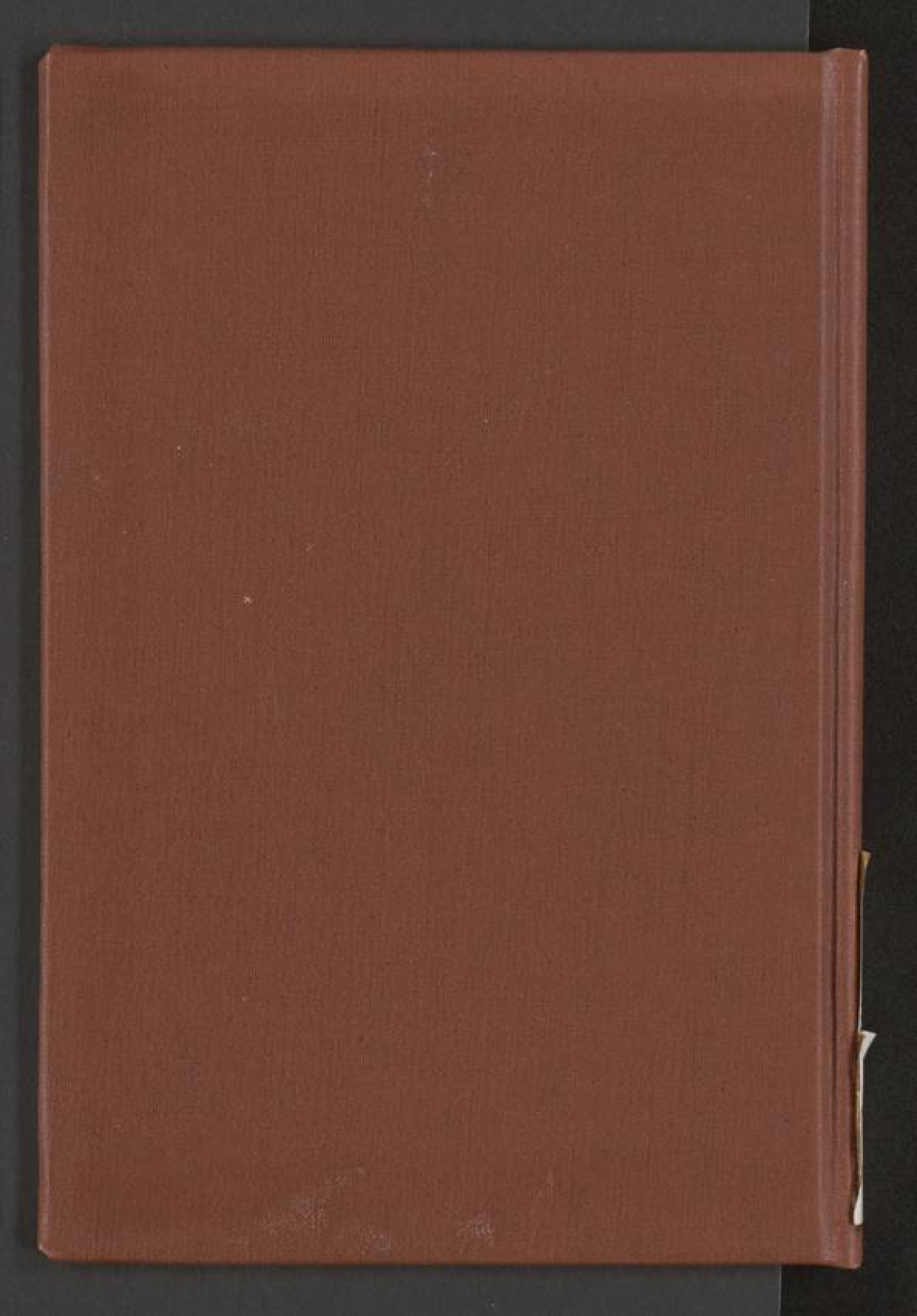
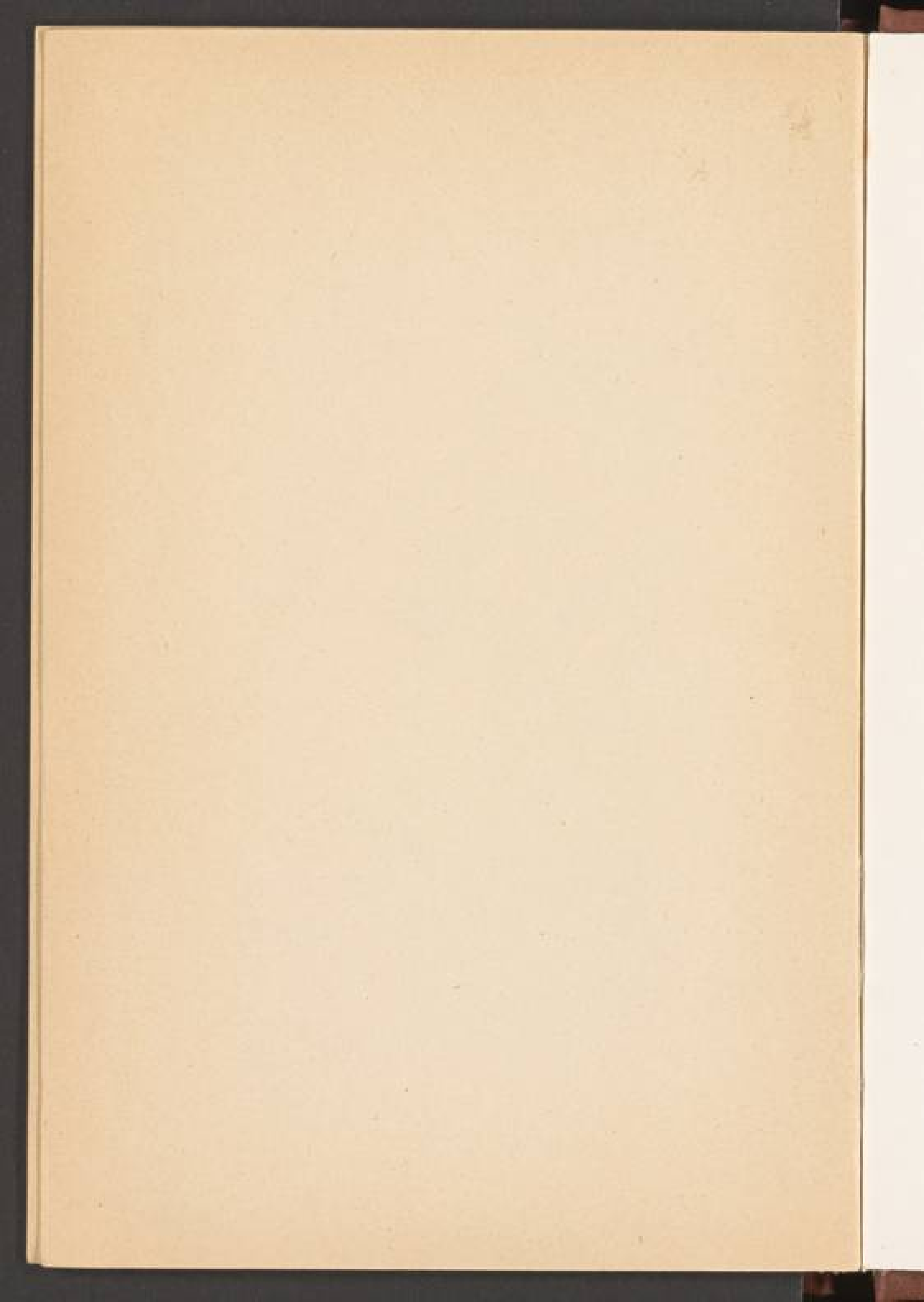
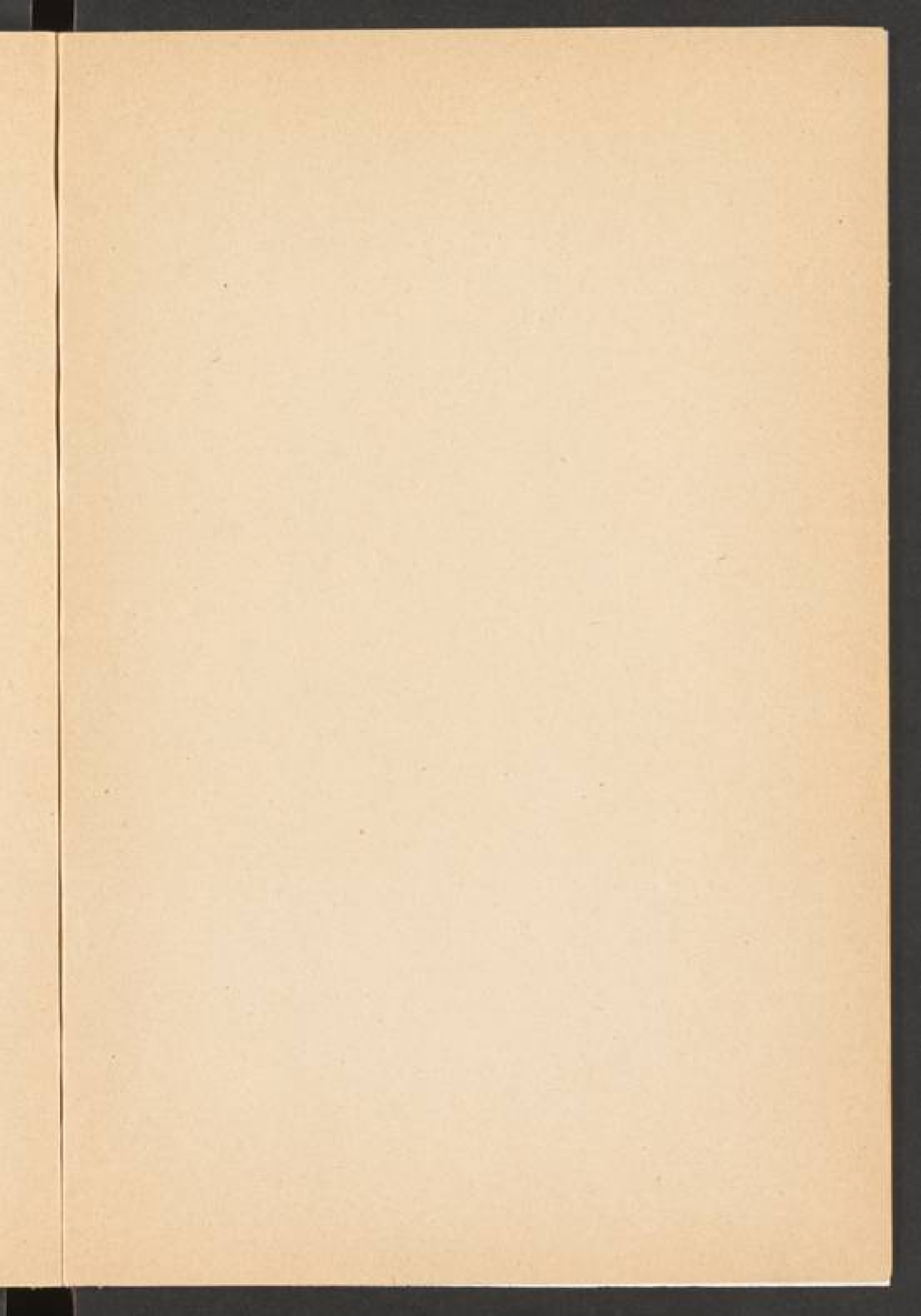



Elmer Holmes
Bobst Library
New York
University

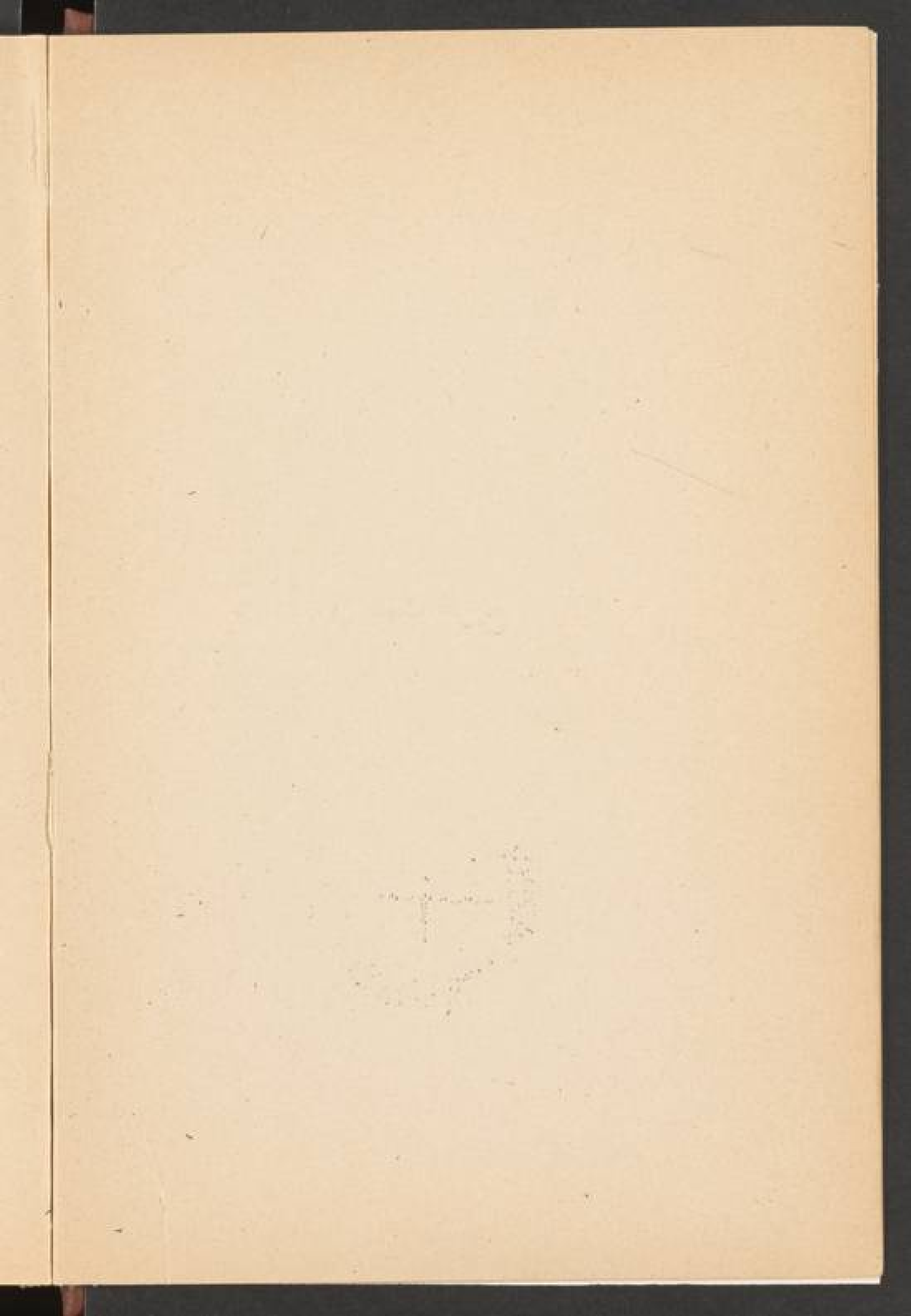








في مهب الريح



ميخائيل نعيمه

في مهبّ الريح



مكتبة صادر
بيروت

١٩٥٣

في مهب الريح

من التشابيه المألوفة حتى الابتذال تشبيهنا الشيء بالريشة اذا هو بالغ في خفة الوزن . ثم تشبيهنا ما ليس على شيء من الاستقرار بريشة في مهبّ الريح . وإني لأستعين بالتشبيه الاخير لأنقل الى اذهانكم صورة العالم كما يتراءى لي في هذه الايّام . فهو في نظري ريشة – وأخفّ من ريشة – في مهبّ الزعازع الهوج التي تجتاحه من كل فجّ وصوب .

ما عرفَت البشريةُ على مدى تاريخها الطويل فترةً من الارتباك ، والقلق ، والذعر ، وتشرّد القلب والذهن كالفترة التي تتخبّط في دياجيرها اليوم . ولا هي شعرت يوماً بأسس كيانها تتشقّق وتميد الى حدّ ما تشعر اليوم . ولا هامت على وجهها تفتّش عن مخارج من مآزقها فلا تجد إلاّ مآزق تفضي بها الى مآزق حتى ليخيّل الى مَن يرقب حركاتها وسكناتها ويصغي الى ضجيجها وعجيجها أنها فقدت رشدها ، وافلت زمامها من يدها ، فما تدري انّى تتّجه وبمن او بماذا تستغيث .

لن اعطيكم مثالاً على ذلك ما تشهدونه من صراع دامٍ وغير

دام بين مذاهب العالم من سياسية واجتماعية ودينية وسواها .
وأعطيكم مثالاً هذه السيول الجارفة من الدعاوة للسلم والحرب في آنٍ معاً . فمِن على منبر تلك المؤسسة الضخمة المفككة الاوصال التي لقّبوها تهكّماً بـ « الامم المتحدة » — من فوق ذلك المنبر وحده تنهلّ شلالات ، ولا شلاّلات نياغرا ، من الخطب الرنّانة . وكلّها يمجّد السلم ويدعو امم الارض الى التمسك به . ناهيكم بما يفيض من منابر المعابد والمدارس ، ومن حقول الصحف ، ومن افواه المذيعين ، ومن شفاه رؤساء الدول ووزرائهم . حتى لكأنّ العالم يوشك ان يدخل ذلك الفردوس الذي وعدت به الاديان معشر الذين آمنوا وعملوا الصالحات . فلا حروب في الارض بعد اليوم ، ولا عداوات بين أسودها وابيضها ، وأصفرها واسمرها ، وبين حاكمها ومحكومها ، وجائعها ومتخمها ، وملحدها ومؤمنها . بل هنالك تساهل ، وتفاهم ، واخوّة وتعاون ، وسلام لا يشوبه خصام .

إلا انكم ما تكادون تنتشون بانغام السّلم تعزفها لكم تلك الجوقة ليل نهار حتى تنقلب نشوتكم قشعريرة اذ تسمعون تلك الجوقة بعينها تعزف لكم ألحان الحرب ، وبمثل الحماسة التي تعزف بها انغام السّلم — بل اشدّ . فساسة العالم الذين ملأوا العالم تسبيحاً للسلم هم هم الذين ملأوه تجديفاً عليه. فقد هبّوا في كل مكان

يحثون الناس بالوعد والوعيد على الاستعداد للحرب . وإن انتم سألتموهم بأية حيلة ، وباي منطق يبرّرون التناقض الفاضح ما بين اقوالهم وافعالهم ، فيبشرون بالسلم اذ هم يُعدّون عُدّة الحرب ، اجابوكم بكل صفاقة وجهٍ أنّهم لا يروّجون للحرب حبّاً بالحرب بل حفاظاً على السلم . وذلك يعني أنّهم يرهقون الناس بالضرائب ويبتزون منهم جناهم ، ويسوقونهم سوق الأنعام ليدرّبوهم على فنون التقتيل والتدمير ، ويطردون الراحة والهناءة والامل من قلوبهم وافكارهم ومساكنهم باذرين مكانها الخوف والشك والقلق ، ويبنون الاساطيل البحرية والجوّية ، ويكدّسون القذائف الجهنمية لا لينتهكوا بها حرمة السلم بل ليقيموا منها سدّاً منيعاً بين الحرب والسّلم . وبعبارة أخرى ، إنهم يعوّلون على الحرب بأحبّ الاشياء الى قلب الحرب – بالمدفع والقنبلة والدبّابة ، وغيرها من وسائل التخريب التي هي خبز الحرب ولحمها ودمها وعضلها . انهم يعوّلون على الذئب بجماعة من الحملان ، وعلى الهرّ برهط من الفئران !

لعمري ان في ذلك لمنتهى الاستهتار بالعقل والمنطق ، ومنتهى الاستخفاف بالناس وآمالهم واقداسهم . فهل من يصدّق ان المدفع الذي ما وُجد الا لتمزيق السلم وازدراده يصلح ان يكون حارساً للسلم ؟ ام هل من يصدّق ان السلم يقتات ويحيا

بالقذائف الجهنمية المكدّسة في مستودعات الدول ، والحرب التي ابتدعتها ما حشتها بغير السمّ الزعاف للسلم ؟ قد تكون الزرافة في عرين الاسد ، والشاة في وجار الذئب ، والفأرة بين براثن الهرّ أوفر أمناً على حياتها من السلم في فوهة المدفع، وفي جوف الدبّابة، او في قلب القذيفة الذرية . وقد يصلح ابليس قيّماً على الجنة قبل ان تصلح الحرب قيمة على السلم .

مررت ذات يوم بجماعة من الصبية يلعبون في ظل شجرة باسقة . فوجدتهم في هرج ومرج عظيمين . ووجدت احدهم في اعلى الشجرة وقد راح يشد حبلاً الى جذع من جذوعها . ووجدت الذين على الارض قد اخذوا بطرف الحبل الآخر وانبروا يتسابقون الى إحكام ربطه حول عنق هرّة رقطاء . وسمعت الذي في أعلى الشجرة يصيح بالذين على الارض: « شدّوا! شدّوا ! » وعندما سألتهم عن الجريمة النكراء التي اقترفتها تلك الهرة المسكينة فاستحقت من اجلها الشنق، اجابني اصغرهم بمنتهى الجدّ والبساطة « هيدي مرجوحة ! » عندئذ ادركت كيف تعبث الدعاوات الخبيثة بالمفاهيم البشرية فتغدو المشانق اراجيح في لغة السياسة .ويصبح الاستعداد للحرب خير ضمان للسلم .

لست ارى عظيم فرق بين ذهنية اولئك الصبية وذهنية ساسة العالم وقادته . فهم في تسابقهم الجنوني الى التسلح يحكمون

الخناق على السلم يوماً بعد يوم ثم لا يخجلون من ان يجاهروا بأنهم يفعلون ما يفعلون لا في سبيل الحرب ، بل في سبيل السلم والترفيه عنه والحفاظ عليه . وقد جرهم هذا المنطق الاعوج الى آخر اشد اعوجاجاً منه . اذ خلقوا خُرافةً اطلقوا عليها اسماً غرّاراً عليه مسحة من المنطق . اما ذلك الاسم فهو « توازن القوى ». ومعناه ان معسكرين متخاصمين ، اذا توازنت قواهما الحربية ، بات كلاهما يرهب خصمه فلا يجرؤ على مهاجمته . وهكذا يبقى السلم بينهما في مأمن من الحرب . واذ ذاك فعلى سكان الارض ، اذا هم شاؤوا سلماً دائماً ، ان يحفظوا التوازن في قواهم الحربية الى الأبد . وفي ذلك من التضليل ما فيه .

لو فرضنا ان في استطاعة البشر حفظ مثل ذلك التوازن الى الابد لكان السّلم الناتج عنه اشدّ هولاً على الناس من الحرب . فأية دولة تستطيع ان تمضي في التّسلح عاماً بعد عام وعينها الواحدة على جارتها مخافة ان تسبقها خُطوة ، وعينها الاخرى على خزينتها التي تنضب يوماً بعد يوم ، وعلى شعبها الذي ارهقته الضرائب فبات يمشي حثيثاً الى الفقر فالجوع فالفناء؟ هذا اذا تيسّر للناس ان يقيموا مثل ذلك التوازن . الا انه في الواقع توازن مستحيل ولا وجود له البتة الا في اوهام القائلين به والداعين اليه .

إنّا اذا وضعنا كمية من الشعير في كفّة من الميزان ووضعنا كمية مثلها في الكفة الاخرى استطعنا باخذنا منها او الاضافة اليها ان نحصل على توازن تامّ بين الكفتين ، وايقنّا ان كمية الشعير في الواحدة تعادل الكمية في الاخرى بغير زيادة او نقصان. اما التوازن في القوى المادية والمعنوية وفي ظروف الزمان والمكان بين معسكرين متخاصمين فَمنذا الذي أوتي من العلم والحكمة ما يخوله البتّ في اللحظة التي فيها يتمّ ذلك التوازن؟ واذا تمّ التوازن - وذلك مستحيل - فأين الانسان الذي يستطيع ان يتنبأ بمدى استقراره؟ فهو ان دام لحظة لن يدوم شهراً. إذ ان العوامل التي تساعد على هدمه لا تقع تحت حصر. واكثرها لا سلطان للناس عليه. فمصادرها خفية ، والقوى التي تخلقها ثم تسوقها الى الناس على غفلة منهم ما برحت بعيدة عن متناول الناس . فظهور زعيم جديد او اختفاء زعيم قديم ، وانتشار مذهب ديني او سياسي كان في مطاوي الغيب ، وسنة قحط او سنة خصب ، ووباء او زلزال ، واختراع جديد او اكتشاف معدنٍ مجهول ؛ وثورة هنا او عصيان هنالك - كل هذه من الامور التي من شأنها ان تعبث بخرافة « توازن القوى » بين لحظة ولحظة . واذ ذاك فالتوازن الذي ارادوه حِصناً للسلم يصبح شَركاً له واي شرك .

اذا كان الزاعمون ان السلم لا يصان الا بآلة الحرب ، وإلا بالتوازن بين آلة وآلة، جادين في ما يزعمون ، فانها الحماقة الخرقاء . واذا كانوا – دفاعاً عن مصالح موهومة – يموهون ويخاتلون في ما يزعمون ، فانها الجريمة النكراء. وهم سيكفّرون عنها بعذاب ولا عذاب جهنم .

اما كان من الاولى بزعماء العالم وقوّاده، اذاهم صفت نياتهم للسلم ، ان يستعدوا للسلم قبل استعدادهم للحرب ؟ فللسلم عدّته كما ان للحرب عدّتها . ان تكن عدّة الحرب مدافع وقنابل واثارة ابشع ما في القلب البشري من عفن البغض والحقد والشهوات السود ، فعُدّة السلم قوتٌ للجياع ، وكساء للعراة ، ومأوى للمشردين، ودواء للمرضى، وكرامة للمهانين ، وحرية للمقيّدين، ومعرفة للجاهلين، وانعتاق للمستثمَرين من المستثمِرين، وغفران للمذنبين ، وعدل للمظلومين ، واعتراف باطني وعلني بقدسية الحياة البشرية وتنزيهها عن الاثمان، ثم اعتراف مماثل بان الانسان اخو الانسان وعونه ونصيره اينما كان ومن اي جنس كان، وبأن الارض ميراث الجميع .

عدّة السلم الصدق ، وعدة الحرب الكذِب
عدّة السلم الامانة ، وعدة الحرب الخيانة
عدّة السلم الثقة ، وعدة الحرب الشك

عدّة السلم التعاون ، وعدة الحرب التنابذ

عدّة السلم المحبّة ، وعدة الحرب البغض

عدّة السلم العطاء ، وعدة الحرب النهب

عدّة السلم التعمير ، وعدة الحرب التخريب

عدّة السلم الايمان بالانسان ، وعدة الحرب الكفر بالله وبالانسان معاً .

عدّة السلم الحياة ، وعدة الحرب الموت .

لو ان الناس حاولوا ان يحصروا في الارقام كل ما انفقوه على عدة الحرب في خلال العقود الثلاثة الاخيرة لا غير لضاقت بهم الارقام ولتخدّرت من هولها عقولهم ، وانعقلت السنتهم وتعطّلت مفاهيمهم الحسابية. فما من ارقام تستطيع ان تؤدي الى اذهاننا المقادير الهائلة من القوى الروحية والمادية التي انفقتها الانسانية على الحربين العالميتين الاخيرتين بصرف النظر عن الحروب الثانوية التي نتجت عنهما . فلا الديار التي دُمّرت، ولا الاراضي التي عُقّمت، ولا الاموال التي هُدرت، ولا الاجساد التي شوّهت، ولا الأرواح التي أزهقت، ولا العيال التي شرّدت، ولا الدواجن التي اتلفت، ولا خطوط المواصلات التي عطّلت بقابلة لأيّ حصر . فكيف بالقلوب التي احرقها الحزن ، وبالمآقي التي قرّحها الدمع ؟

وانتم لو سألتم هذه الانسانية بعينها ماذا الذي انفقته في خلال العقود الثلاثة الاخيرة على عدّة السلم لكان جوابها هزّة من كتف، او قلبة من شفة ، او شقلة من حاجب . ذلك لانّها ما انفقت شيئاً على الاطلاق، فهي تستغرب منكم مثل ذلك السؤال وتعدّه ضرباً من البلاهة . ولا غرو . فما سمعنا ، منذ ان قامت الدول في الأرض وراحت تنظّم أعمالها الداخلية والخارجية فتخلق الوزارات للنهوض بتلك الاعمال – ما سمعنا بدولةٍ واحدة أوجدت لها وزارة للسلم . في حين انه ما من دولة على وجه الارض – مهما صغر حجمها وشأنها بين الدول – إلا لها وزارة للحرب . والاعتمادات التي تخصّص لوزارات الحرب في كل مكان هي اليوم مضرب المثل في التضخّم والسخاء . حتى ان الكثير من الشعوب يقتّر على نفسه في المآكل والمشرب وغيرهما من مقوّمات الحياة ليكفل لجيشه المزيد من الزاد والعتاد. امّا السلم فما سمعنا بعد بشعب جاع في سبيله، او بدولة فرضت على نفسها التقشف لتتذوق لذة السلم وبركاته .

قد ترشقونني بالغلوّ في الكلام فتقولون إن الدول لا تقوم بوزارات الحرب وحدها . فهنالك وزارات الصحة والزراعة والاقتصاد والمعارف والمواصلات وغيرها، وغيرها، وكلها يهدُف الى الاعمال العمرانية . فهي حَرية بأن تُحسب من عدّة السلم.

ويا ليت الواقع كان مصداقاً لما تقولون . إلا انه ، على النقيض من ذلك ، يشهد بانّ الحرب ما مشت يوماً في الأرض إلا جرّت في ركابها كل جهود الناس ، وكلّ اقداسهم . فهي التنين الذي لا يشبع ، والبئر التي لا تمتلىء . حتى الدين الذي كان من المفروض فيه ان يكون اقوى دِعامة للسلم لا يلبث ان يحمل العَلَم ، وينفخ في البوق ، ويدقّ الطبل ويمشي في الطليعة حالما تكشّر الحرب عن انيابها للسلم .

لعلّ الظاهرة الوحيدة التي تستحق أن تُسجّل لحساب السلم هي الجوائز التي تُمنح من حين الى حين باسم السّلم . ولكنّها، اذا قيست بآلاف آلاف الملايين التي تُنفق في سبيل الحرب بَدت كنقطةٍ من الزيت في بحر من الزئبق، او كحمامةٍ منتوفة الريش بين سرب من الغربان، او كبنفسجةٍ ذاوية في حقل من العوسج .

منذ ان أودى قابيل بحياة أخيه هابيل والسلم شريد طريد في الارض يطلب ملجأً فلا يجده ، والحرب سيدة الأرض بغير منازع . تغفو فترةً من الزمن ثم تستفيق وقد تضاعفت شراهتها للدم ومقدرتها على التخريب . فيحسب الناس غفوتها سلماً وما هي بالسلم . إن هي إلاّ حشد جديد لقوى جديدة وتحفّز لوثبة اشدّ هولاً من التي سبقتها . وهكذا راحت الحرب تفتَنّ في توزيع قواها ، وتنمية مواردها ، وتنظيم حركاتها على مدارِ

العصور حتى بلغت ما يكاد يكون ذروة الكمال في هذا العصر. وهو الكمال الذي يجعل منّا ومن دنيانا ريشة في مهبّ الريح. اذ انه ينذرنا، ان لم يكن بالفناء التام، فبالعودة الى عالم الغاب، ونظام الظفر والناب، وبالتخلي عن بدائع حضارة خلقناها بكدّ الجفن والدماغ، وارهاق العظم والعضل، وشددناها بعضها الى بعض بنياط القلب واشواق الروح.

أجل. نحن اليوم ريشة في مهب الريح. وقد بات لزاماً علينا، اذا نحن شئنا أن نسترد لأنفسنا شيئاً من الثبات، إمّا ان نزيد في وزن الريشة، وإمّا ان نخفّف من حدّة الريح. أو ان نجترح العجيبتين معاً. فهل من سبيل الى ذلك؟ ومنذا الذي سيدلّنا عليه ثم يدربنا على سلوكه؟

من الاكيد ان الذين جعلوا منّا ريشة لن يستطيعوا ان يجعلوا من الريشة طوداً. والذين اطلقوا علينا الرياح الهوج لن يكون في وسعهم ان يجعلوا من تلك الرياح نُسَيْمات بليلات. اولئك هم القابضون بأيدٍ من حديد على أزمّة حياتنا الجسدية والعقليّة والقلبيّة. أوَتدرون مَن هم؟ إنهم اسياد الغرب الذي انتقلت اليه زعامة العالم منذ ايام اثينا وروما فما تخلى عنها حتى اليوم إلاّ في خلال فترات قصيرات.

لقد كان من حسنات زعامة الغرب في العالم أنها أطلقت العقل

البشري من عقالاته، ثم أحسنت تدريبه وتنظيمه ، فاندفع بكل ما أوتيه من قوى هائلة يرود العوالم المحيطة به من فوق ومن أسفل ؛ يعالج طلاسمها ، ويفكّ ما استعصى من عُقدها ، ويُظهر ما خفي من مكنوناتها . واذا بالأرض تتخلى للانسان عن كنوز كثيرة كانت دفينةً في احشائها ، واذا بالسماء تبوح له بالكثير من اسرارها ، حتى بات يعتقد ان سيادة الارض والسماء توشك ان تصبح في قبضة يده .

لقد أبطرت الغربَ فتوحاتُه العقلية، وزادت في ثروته المادية مقادير لا تحصى ولا تـُعدّ ، وبسطت سلطانـه على الأرض من القطب الى القطب ومن المشرق الى المغرب . فبـات لا يشكّ قطّ في حقه بتلك الثروة وذلك السلطان . ولكنه ما لبث ان انقسم الى معسكرين يتنازعان ثروة الأرض وسلطانها ويتستران في نزاعهما باسم العدالة من جهة وباسم الحرية من جهة اخرى . ثم يعمل كلاهما ليل نهار على كسب الأنصار والأمصار ، بالقوة حيث تنفع القوة، وبالمال حيث لا يجدي إلاّ المال، وبالدعاوات الطويلة والعريضة التي تنفذ الى القلب والعقل حيث لا تنفذ القوة ولا المال . أمّا انتاج العتاد الحربي من كل اصنافه فيسير على قدم وساق ، بل على دولاب وجناح . وامّا تشييد الحصون ، وتدريب الجيوش ، وتصميم الخطط ، وتنظيم القيادات ، وعقد

المحالفات ، وبث العيون ، وجسّ النبض ، وهزّ الاعصاب من حين الى حين ، والتراشق بالوحول ، والتبجّح بالفضيلة ، والتغنّي بالسّلم — فهذه كلها تجري في السرّ والعلانية ، وبغير انقطاع.

وتنجرف بهذا التيار الهائل جميع دول الأرض ودويلاتها ، وفي جملتها دويلات شرقنا العربي . فتمضي تتمرّس بفنون النباح والنطاح ، والقدح والذمّ ، والتضليل والتدجيل ، والتغني بالحق ، والتبجّح بالقوة . حتى ان بلداً صغيراً ووادعاً وجميلاً كلبنان لا يخجل من ان يعلن الملأ على رؤوس الأشهاد بأن سيفه والقلم «ملء عين الزمن»، ولا هو يتورّع عن سنّ قانون يقضي على الطلاب في مدارسه بانفاق ساعات في كل اسبوع على التدريب العسكري بدلاً من انفاقها على تثقيف القلب والعقل ورفعهما عن مخازي الحروب وعبودية الحياة الجندية. وقد لا يتجهّم الجو العالمي حتى يعلن لبنان التجنيد الاجباريّ . أمّا في سبيل مَن او ماذا يقدّم لبنان بنيه طعاماً للمدفع ووقوداً للنار فعلِم ذلك عند الذين جعلوا من حمامة السلم غدافاً لا يلذُّ له شيء مثلما يلذّ له نهش الجيف بمخالبه ومنقاره .

والذي اقوله في لبنان يصحّ قوله في سائر الدول العربية . فما ادري بأيّ سحر سطت علينا أراجيف الغرب في دعاواته ومهاتراته حتى بتنا نعتقد ان قوة الامم في حناجرها . فلا نشبع

من التحدّث عن تعشُقنا للاستقلال والحرية ، وعن تفانينا في سبيل الكرامة القومية ، وعن الشهامة اليعربية ، والكبرياء الشرقية ، وعن امجاد اسلافنا وجليل ما قدّموه من الاقوال والاعمال للحضارة البشرية . لقد انجرف الجميع في تيّار هائل من التبجح بالماضي ، كأنّ التبجح بما كان يغيّر شيئاً في ما هو كائن . وكأن كسيحاً يستطيع ان يستغني عن عكازه اذا هو ردّد على مسامع الناس بغير انقطاع ان اباه او جدّه كان امير الفوارس وسيّد الميدان .

لئن كانت لنا في حافظة الزمان السحيق صفحات مشرقات بالعدل والبطولة والنبل والاباء والايمان بقدسية الحياة وجمال منبعها الالهيّ فان لنا بجانبها مجلّدات سوداً تنضح بالظلم والجبن والخساسة والذلّ والكفر بالحياة ورب الحياة . فليس من الصدق ولا من الرجولة في شيء ان نذكر الصفحات وننسى المجلدات. ونحن اذا فعلنا ذلك جنينا على انفسنا وعلى بنينا وبني بنينا ، وكنا كمن يستر عريه بثوب مستعار ، او كمن يداوي الرمد بذرّ رماد في العين ، والسرطان بجرعة من الافيون . فمن شأن تغنينا بماضينا ان يصرف همّنا عن خزي فينا الى مجدٍ ليس لنا .

إنني رجل عربي ومن صميم الأرومة العربية. ولكنني لست

ارى في انتسابي الى العرب ما يرفعني فوق غيري من الناس ولا ما يحطّني دون غيري من الناس . فلا شرف العرب يشرفني ان كنت خسيساً . ولا خزيهم يخزيني إن كنت شريفاً . بل تشرفني سيرتي وسريرتي ، وتخزيني أقوالي وأفعالي . وعليّ ، اذا انا اخلصت الحبّ للعرب ، أن اشرّفهم بما اقول وأفعل بدلاً من ان اتشرف بما قالوه وفعلوه .

إن صدري ، على رحابته ، ليضيق بقوم بعُدت الشقة بين ألسنتهم وقلوبهم. فهم يقولون غير ما يشعرون ، ويشعرون غير ما يقولون. ثم يفعلون غير ما يقولون ويشعرون. فبينا السنتهم تنشد أعذب الشعر في الحرية والكرامة الانسانية تراهم مكنّوا في قلوبهم للذلّ والعبودية . فهم يزحفون على بطونهم ويعفّرون جباههم امام ذي سلطان او جاهٍ او مال ، وهم يتجبّرون على من دونهم ويتكبّرون . وذلك ، لعمري ، هو منتهى الذلّ والهوان . والذلّ والهوان متفشيان اليوم في الجسم العربيّ تفشّي السرطان . وهو السرطان الذي لا تنجع في استئصاله تعاويذ الدعاوات ولا الثرثرة عن امجاد السّلف .

وايّ امجاد السلف يتغنى به الخلف راجين ان يبعثوا بذلك همماً تراخت ، وأن يجمعوا كلمة تشتتت، وأن يرفعوا الى فوق ابصاراً منكّسة الى أسفل ؟ تلكم الأمجاد هي سيوف خالد بن

الوليد ، وعمرو بن العاص ، وطارق بن زياد . هي الأعلام العربية التي خفقت في سالف الأزمان من حدود السند حتى حدود الغال . إنها الرغوة التي أثارها العرب في اندفاعهم من قلب الجزيرة شمالاً وشرقاً وغرباً . ولكنها ليست المعجزة التي جاء بها العرب . والتغنّي بها لا ينفع العرب ولا العالم في شيء . أمّا معجزة العرب الكبرى فهي القرآن . وهي وحدها التي تستطيع ان تجعل من العرب قوةً أين منها قوة الاساطيل البحرية والجوية والقنابل الجهنمية ، وأين منها قوة المال والرجال. فالاساطيل للصدأ ، والرجال للموت ، والمال للزوال. اما معجزة القرآن فللبقاء . ذلك لأنها اقامت للعرب – ولغير العرب – هدفاً من حياتهم، وكانوا بغير هدف ، واختطّت لهم طريقاً الى الهدف، وكانوا بغير طريق . وما اكتفت بأن أقامت لهم هدفاً واختطّت طريقاً ، بل إنها برهنت لهم بحياة النبيّ وصحبه أنّ ذلك الهدف مُستطاع بلوغه على من سار في الطريق. فحياة النبي وخلفائه الأولين مليئة بالعِبَر التي تهدي الناس سواء السبيل فلا تتركهم ريشة في مهبّ الريح .

لو لم يترجم النبيّ وصحبه القرآن الى أفعال لما كانت المعجزة معجزة. ولكنهم، وقد امتلأت قلوبهم وعقولهم ايماناً ، ما ترددوا في ترجمة إيمانهم الى أعمال واقوال تتوافق كل التوافق مع ذلك

الايمان. واني لأذكر في ما اذكر من الأخبار النبوية خبر شاةٍ ذبحها اهل البيت في غياب النبيّ وفرّقوها على المعوزين. وعندما عاد النبي اخبرته عائشة بما كان واضافت أنهم لم يُبقوا لأنفسهم من الشاة إلا الكتف. فكان جواب النبيّ لها : لقد بقيت كلها إلاّ الكتف . إنه لجوابٌ حوى من البساطة والبلاغة والحكمة ما لم تحوِه مجلدات من الفلسفة : بقيت كلها إلا الكتف. ومعنى ذلك اننا نكسب ما نعطيه ونخسر ما نمسكه . فالذي ننفقه على الغير من أموالنا وقلوبنا وأفكارنا وارواحنا يُحسب لنا. والذي ننفقه على انفسنا يُحسب علينا. فنحن مطالَبون بسوانا قبل ان نطالب بانفسنا . ونحن ، وكلنا عيال على الله ، لا نستحق نعمة من نعم الله إلاّ اذا أبحناها من صميم القلب لغيرنا من عيال الله. فهل مَن يدلّني بعد ذلك على طريق الى الاخاء والسلم والتعاون بين الناس ، وبالتالي الى الحرية، أقرب من هذا الطريق وأقوَم؟

أجَل . ان معجزة العرب لفي القرآن . إلاّ أنها أصبحت اليوم وكأنها ليست بمعجزة . ذلك لكثرة ما ألِفتها الشفاه والآذان والعيون. ومن شأن الشفاه والآذان والعيون انها اذا ألِفت عجيبة اغلقت دونها القلوب . وقلوب العرب غدت مغلقة دون معجزة العرب منذ ان حكّموا دنياهم في دينهم . فهم اليوم يؤمنون بالراديو والرادار ، وبالدبابة والطيارة ، وبالدعاوات

والمخرقات، ثم بالفلس الذي يبتاع كل هذه — يؤمنون بها كما لو كانت المفاتيح الى الراحة والهناء والسلام والحرّيّة والكرامة الانسانية. اما المفتاح الذي اعطي لهم في القرآن فجوهرة يتبركون بلثمها، ويباهون بجمالها، ولكنهم يتهربون من استعمالها. فكأنها للزينة لا لفتح الابواب المغلقة، وفك المشاكل المستعصية؛ أو كأنها للتسلية والترفيه عن النفس عندما تملّ النفس العمل في معامل الفلس والدينار، او عندما يأخذها شيء من الكلل.

إن تكن هذه هي حال المسلمين مع القرآن فهي كذلك حال المسيحيين مع الانجيل، وحال باقي المذاهب مع ما عندها من كتب دينية. فالمسيحيون الذين عاشوا خلال ثلاثة قرون أقلّية متآخية، متضامنة على السرّاء والضرّاء، متمسكة بالسلم، منكرة على السيف ان يكون حَكَماً بين الناس، ومضطهَدة لذلك من ذوي السلطان في الأرض، عادت في عهد الامبراطور قسطنطين الكبير فباعت إنجيلها بصك يحميها من الاضطهاد ويضمن لها ان تصبح دين الدولة الرسميّ إذا هي أمرت تبّاعها بالقتال تحت راية الدولة وبذلك تنازلت عن تعاليم مؤسسها حيث يقول: أحبّوا اعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا الى الذين يسيئون إليكم.

وهكذا مشى المسيحيون في جيوش اكبر دولة مستعمرة

عرفها التاريخ القديم . فجعلوا من مسيحهم أمبراطوراً وهو القائل : «مملكتي ليست من هذا العالم . » ووضعوا على رأسه تاجاً وهو الذي ما تكلل رأسه بغير الشوك . وأرهقوه بحطام الارض وهو القائل : «للثعالب اوجار ، وللطيور اوكار . اما ابن الانسان فليس له أن يضع رأسه . » فباتوا منذ ذلك الحين ودينهم دَيْنٌ في اعناقهم وشاهد عليهم في الارض وفي السماء. وباتوا لذلك ريشة في مهب الريح . وما المدنيّة التي شادوها ، على كل ما فيها من روعةٍ للعقل والعين والاذن ، بدافعةٍ عنهم جزاء خيانتهم لمسيحهم ، وجزاء ما هدروه وما برحوا يهدرونه من دمع ودم .

الدين في عقيدتي هدف وطريق . امّا الهدف فهو انعتاق الانسان من ربقة الحيوان في اسافله والانطلاق به الى الاله الكامن في أعاليه ـ الى المعرفة التي لا يخفاها شيء ، والقدرة التي لا تعصاها قدرة ، والحياة التي لا يطالها موت . وامّا الطريق فهو ترويض العقل والقلب ترويضاً لا فتور فيه ولا انقطاع على ممارسة الفضيلة والاقلاع عن الرذيلة . وامّا الفضيلة ما هي والرذيلة ما هي فوجدان الانسان كفيل بالتمييز بينهما . ولا يُطالَب احدٌ بخير او يُدان بشرٍ إلاّ على قدر ما ميّز وجدانه الخير من الشرّ .

ذلك لا يعني الزهد في الدنيا والانقطاع عن التلذذ بمفاتنها وخيراتها البريئة. فقد وقعتُ مرة على خطاب يعزى الى عيسى. ولعله أقصر خطاب وابلغ خطاب في موضوع الدين والدنيا اذ قال للدنيا: «مَن خدمني فاخدميه. ومَن خدمك فاستخدميه.» وهو يعني أنّ من استخدم الدنيا لخدمة الحق أبيح له كل ما في الدنيا. ومن خدم الدنيا لا لاجل الحق بل طمعاً بما فيها من ملذات أصبح عبداً ذليلاً لها وظلّ بعيداً عن حرية الحق.

أُعيد القول: إن للدين هدفاً وطريقاً. ولذلك كان الدين بجوهره لا بطقوسه وتقاليده أقوى من ظروف المكان وابقى من تقلبات الزمان. امّا العالم الدنيوي بشعوبه وممالكه وغاياته المتضاربة، ونزعاته المتشاكسة، فلا يوحّده هدف ولا يجمعه طريق. لذلك يبقى عرضة للقلاقل والحروب وريشة في مهب الريح. والدين – كل دينٍ – ما انطلقت انواره في العالم إلاّ من الشرق. أفلا قلتم معي:

واهاً لهذا الشرق ما أضعف ذاكرته وأوهن قلبه! فسرعان ما نسي ميراثه، وسرعان ما تخلى عن سلاحه الذي لا يُفلّ ليستبدل به سلاحاً يتآكله الصدأ. وكم كنت اتمنى لو يسترد ميراثه وسلاحه لعله يستطيع ان يردّ العالم الى رشده بدلاً من ان يفقد هو الآخر رشده في عالم جن جنونه.

لئن احسن الغرب توجيه العقل البشري وتدريبه وتنظيمه حتى بلغ به ما بلغ من بعيد الشأو في دنيا الصناعات والعلوم والفنون فقد أهمل القلبَ كلّ الاهمال ؛ والقلب هو مهبّ العواصف التي تعبث بنتاج العقل ، ومصدر السموم التي تُفسد على الناس الاستمتاع بذلك النتاج . وهو ، على ضآلة حجمه ، ذلك العالم الشاسع الذي يلاصق فيه الانسان الحيوان من جهة ، ويعانق الله من الأخرى . وحتى اليوم ما تمكّن أحدٌ من سبر اغواره السحيقة وتسلّق أعاليه الربانية غير نفر قليل من الناس أنجبهم هذا الشرق هُداةً للبشرية وقادةً لخطاها من الحيوان القابع في اغوارها الى الاله المتألق في أعاليها . اولئك هم انبياء الشرق الذين مرّوا بالأرض مرور الشهب في الفضاء ، ومرور البرق في مطاوي الظلمات . فرسموا للناس طريق الخلاص بخطوط من نور . ومضوا وكأنهم يقولون للناس : « ذلكم هو طريق الخلاص ولا طريق لكم إلاّه . إن سلكتموه نجوتم . وإن لم تسلكوه فلومكم على انفسكم . ونحن دائماً ابداً بجانب الذين يسلكونه . نمدّهم من قوتنا . ونسندهم بافئدتنا . ونصدّ عنهم هجمات الوحوش وغارات اللصوص ما داموا مثابرين على السير ، وما دامت عيونهم على الهدف البعيد . »

لقد ادرك انبياء الشرق أنّ من بين الشهوات التي يكتظ

بها القلب ولا اكتظاظ الرّمانة بالحبّ شهوةً هي بمثابة الشراع للمركب ، والمنارة للملاّح ، والدليل للاعمى . وأنّ هذه الشهوة – وسأدعوها «الشهوة الغلاّبة» – إذا انصاع لها الانسان بكل شهواته كان من شأنها ان تبلغ به في النهاية المرتبة المعدّة له منذ الأزل واللائقة بأسمى ما فيه من ملكات ونزعات وأشواق . ألا وهي شهوة الحياة والحرية . فنحن قبل كل شيء وبعد كل شيء نريد ان نحيا ، وان نحيا طليقين من كل قيد وحدّ الا من القيود والحدود التي نفرضها على انفسنا وبملء ارادتنا لنستعين بها على بلوغ الحياة التي لا تموت والحرية التي لا تُحدُّ .

أجل. انّا نريد الحياة – نريدها بكل جارحة من جوارحنا، وكل نبض من انباضنا ، وكل نفَس من انفاسنا ، وكلّ حركة او سكنة من حركاتنا وسكناتنا . ولذلك نأكل ونشرب ونتناسل. ولذلك نفكّر ونتخيّل ونعمل. ولذلك نحلمُ احلاماً ونبصر رؤى ونغالب الارض والسماء لعلّنا نمدّ في حياتنا الى ما لا نهاية له. الا اننا نتبرم بكل ما يحدُّ من حرّيتنا في الحياة. حتى ليرهقنا ان نكون في حاجة الى الاكل والشرب واللباس والمأوى، ونتمنى لو تصبح حياتنا في غنى عن كل ذلك. فلا نَني نحتال على كل عقبة في طريقنا ، ولا ننفك نختصر المسافات ، ونسهّل المعقّد من سبل المعيشة، كيما يتاح لنا ان نستمتع بحياتنا حرّة

الى اقصى حد . ولأن مثل هذه الحياة يبدو بعيد المنـال على الارض لذلك ترون الانبياء قد وعدوا بها الناس في غير هـذا الزمان وعلى غير هذه الارض . وسواء بلغنا تلك الحياة في هذا العالم ام في سواه فالمهم ان انبياء الشرق قد اجمعوا على القول بان في مستطاعنا بلوغها وعلى اعتبار شهوة الحياة الابدية والحرية الكاملة الشهوة الاولى والاقوى من جميـــع شهوات القلب البشريّ . فهي الشهوة التي لا تعانَد ولا تُقهر ، والتي يتوجّب علينا ان نجعل من جميع شهواتنا خَدَماً لها وحشماً كيما نستطيـع تحقيقها في النهاية. ولن يستطيع تحقيقها إلاّ الصالحون . ولذلك جعلهـا الانبياء بمثابة الثواب الاكبر للمعيشة الصالحة .

فما هو الصلاح الذي إن نحن سلكنا سبيله وتمسكنا باهدابه بلغنا الحياة التي لا يطالها موت والحرّية التي لا يحدّ من مداها حدّ ؟

ذلـكم الصلاح هو تحكيمكم شهوات القلب البيض في شهواته السود . وذلك يعني جعلكم الانسان فيكم سيّد الحيوان . حتى اذا انعتق الانسان من عبودية الحيوان انطلق من بعد ذلك الى حرية عدن حيث يتضوّع دائماً ابداً شذا الالوهـة العارفة كل شيء والقادرة على كل شيء . وتحكيمكم الانسانَ في الحيوان لا يتمّ إلاّ بترويض القلب على كبح جماح أهوائه التي من شأنها ان تعرقل الشهوة الغلاّبة في انطلاقها نحو الحياة والحرية. كأن

تقهروا الغضب بالتسامح ، والطمع بالقناعة ، والكبرياء بالوداعة ، والشهوة الحيوانية بالعفّة ، وحبّ الثأر بالصفح ، والخشونة باللين ، والقوة بالعدل ، والرياء بالصدق ، وسوء الظن بحسن الظن ، والنفور بالعطف ، والخوف بالشجاعة ، والشك بالايمان ، والكره بالمحبة ، الى آخر ما في القلب البشري من سود الشهوات وبيضها.

إنّ عظمة انبياء الشرق ما كانت بذات بال لو أنها انحصرت في القول دون الفعل . إلاّ أنها تجاوزت النصح الى العمل به . فالانبياء ما دلّونا على طريق الحياة والحرية إلاّ من بعد ان سلكوه بأنفسهم واستوثقوا من الغاية التي ينتهي اليها . وقد حذا حذوهم نفر من الذين لاصقوهم بأرواحهم وأجسادهم فتلقّحوا بايمانهم ، والتهبوا بحماستهم ، وتذوقوا مثلهم حلاوة السّلم والحياة والحرية . فكانوا لنا الحجّة القاطعة والدليل الساطع على صحة ما تلقّنوه من معلميهم وعلى مقدرتنا – ونحن بشر أمثالهم – ان نسلك الصراط الذي سلكوا ، وان نبلغ الهدف الذي بلغوا .

هذا هو طريق الحياة والحرية – وبالتالي طريق السلم – الذي اختطّه لنا معلمو الشرق وصحابتهم وحواريّوهم منذ اجيال واجيال . وذلك من بعد ان سبروا اغوار القلب البشري ، وكشفوا دفائنه ، وتفهموا سائر شهواته وعلى الأخص الشهوة الغلاّبة . وكل طريق عداه يؤدي حتماً الى الموت فالعبودية

فالحرب. وانا اذ اجاهر بهذا القول أعلم حق العلم انني اجعل من نفسي هدفاً لكثير من الناس . وكلهم يتهمني بالرجعية قائلاً : « ان هذا الرجل يريد ان يعود بنا القهقرى الى سلطان الدين ورجاله . والدين ورجال الدين هم هم الذين جنوا على الشرق فبات في مؤخرة ركب الحضارة وكان جديراً به ان يسير في المقدمة . وبات لقمة سائغة يتسابق الى ازدرادها اقوياء الأرض ، وكان حرياً بان يكون من القوة بحيث يأخذ الأفضل والأشهى من سمن الارض وشهدها فلا يأكل الغير إلاّ فضلته . »

اولئك هم الذين ما فهموا من الدين إلا قشوره . واللوم في ذلك ليس كله عليهم. بل هو في الدرجة الأولى على رجال الدين الذين جعلوا منه سلسلة طقوس وتقاليد قد تدغدغ العين والاذن إلاّ انها تترك القلب بارداً والفكر شارداً والروح في عطش ممضّ وجوع قتّال. أما أنا فلا ارضى من الدين بغير لبّه. ولبّ الدين هو النهوض بالانسان من مستوى البهيمة الى مستوى الالوهة. ولست اعرف من كل الطرق التي يسلكها الناس طريقاً يؤدي بهم من الحيوان الى الله غير الطريق الذي اختطه لهم معلمو هذا الشرق .

إنّ سالك ذلك الطريق ليشعر بأنه اقوى من الزعازع

والزلازل . وأبقى من الزمان والمكان . وهو المحارب الذي
لا ينام على الضيم ولا تفَلّ له عزيمة . أمّا اعداؤه فليسوا من
لحم ودم . إنهم الشهوات السود التي في قلبه. وهم أوسع حيلة ،
وأشد بطشاً ، واثبت قدماً في الميدان من ايّما عدوّ آخر .
وهو لاهٍ بمصارعتهم عن مصارعة جيرانه واخوانه في الناسوت
واعوانه في حربه الضروس ضد نفسه. فلا يستخفّه الطيش والحمق
الى حدّ ان ينصرف عن حرب اعداه في داخله الى حرب اعداه
في خارجه . ولذلك كان في مستطاعه ان يعيش مع الناس في
سلام . فهو ، اذ يسعى الى الحياة والحرية ، لا يعتمد في الدفاع
عنهما على سلاح من الحديد والنار . لأنه يعلم ان الحديد يفلّه
الحديد ، والنار تأكلها النار . ولكنه يتسلح بالايمان الذي هو
اقوى من النار وامضى من الحديد بما لا يقاس. ومن كان ذلك
شأنه من حياته كان ثابتاً في الزمان والمكان ثبوت الحياة .

اما الذين يفتشون عن حياتهم وحرّيتهم في سلب غيرهم الحياة
والحرية، وعن سلمهم في شن حروب لا نهاية لها على سواهم ،
فمقضيّ عليهم بان يبقوا ريشةً في مهبّ الريح . اذ أنهم كما
يَسلبون يُسلبون ، وكما يحارِبون يحارَبون . وهم ابداً ينتهون
حيث يبتدون ، ويدورون في حلْقةٍ مفرغةٍ ولا يعلمون .

هي امنيّة طويت عليها جوارحي منذ ان انفتح قلبي للنور.

وهي ان ينفض الشرق عنه خبال الاجيال ، ويفلت من شباك الدعاوات الخبيثة والمهاترات السخيفة التي تبث سمومها في الأرض بغير انقطاع ، ومن الطقوس الجافة والتقاليد البالية ، ويعودَ فيرفع مشعل الهداية في العالم ، ويسلك به الطريق المؤدي من الموت الى الحياة ، ومن العبودية الى الحرية ، ومن الحرب الى السلم ، ومن فاقة الأرض الى بحبوحة السماء .

•

السيف والقصبة

أفاق الملك العادل من نومه نحو الساعة الثانية بعد منتصف الليل، واستوى جالساً في سريره، ثم راح يفرك عينيه بيديه محاولاً أن يطرد من خلف أجفانهما أشباح حلم مزعج. ولما أعياه الأمر نادى بحارسه الليلي الواقف خارج الباب وأمره أن يأتيه في الحال بمفسر أحلامه. وكان اسمه بهرام.

وكان بهرام شيخاً طاعناً في السن حوى من الحكمة والفضيلة ما لم يحوه أحد من أبناء زمانه. ومما يروى عنه أنه كان يعرف لغة الطير والحيوان، وأنه تنبأ عن أمور كثيرة فما خابت له نبوءة.

وما إن مثل الشيخ أمام الملك حتى بادره الملك بقوله: «اليوم يومك يا بهرام. فإن صدقت في تفسير الحلم الذي حلمته الليلة فطيّر النوم من أجفاني تنازلتُ لك عن نصف مملكتي. وإن لم تصدق تنازلتَ لي عن حياتك.»

فأجابه بهرام بمنتهى التواضع والاحتشام: «عاش مولاي الملك. أمّا أن أصدق او لا أصدق في تفسير الحلم فأمر لا

أستطيع البتّ فيه . فما أنا غير قارئ في كتاب. وفي الكتب ما يستعصي فهمه أحياناً إلا على كاتبه . وإني لأرجو أن أوفّق اليوم ، كما وُفّقت فيما مضى ، الى فهم ما أقرأ . وأما أن يتنازل الملك لي عن نصف مملكته إذا صدقتُ ، وأن أتنازل له عن حياتي إذا لم أصدق ، فما أنا ممن يطمعون في ملك ولا أنا ممن يبخلون بحياة . فليتلطف الملك – عاش رأسه وسلم ملكه – بأن يقصّ عليّ حلمه . »

قال الملك : «حلمت أيها الحكيم أن جيشاً عدوّاً جرّاراً جاء يغزو مملكتي . فخرجت على رأس جيش عرمرم لملاقاته . ولكننا ما قطعنا فرسخاً وبعض الفرسخ حتى اعترض طريقنا رجل رثّ الثياب ، حافي القدمين ، هزيل البنية ، يحمل قصبة طويلة كتب على رقعة في أعلاها :

نريد خبزاً لا دماً .

نريد عدلاً لا قانوناً .

نريد سلماً لا هدنة .

وقد بدا لنا من هيئة الرجل والقصبة التي في يده أنه معتوه.

وطلبنا الى الرجل مرة واثنتين وثلاثاً أن يتنحى عن الطريق، وأفهمه رجالي أن الذي يطلب إليه التنحي هو الملك بعينه . إلا أنه ما تزحزح من مكانه . عندها أمرت حاشيتي بقطع رأسه

وبتحطيم القصبة التي في يـده . فانبرى له أحد الرجـال واستل سيفه وأهوى به عليه . فقابله الأبله بالقصبة كما لو كانت ترساً . وإذا بالسيف يتطاير شظايا وتبقى القصبة سليمة .

حينئذ انبرى له ثانٍ وثالث ورابع حتى آخر رجل من رجال الحاشية. وكلهم عملاق جبار. فكانت النتيجة واحدة : تتكسر السيوف ، ولا تُمس القصبة بأذى، ويبقى الرجل صامداً كالطود لا يتراجع خطوة ، ولا ينحرف يميناً أو شمالاً .

إذ ذاك كادت تنفجر مرارتي غيظاً من رجـال حاشيتي . فصحت بهم: ابتعدوا من طريقي يا أرانب ويا ثعالب ! واستللت سيفي وانقضضت بجوادي على الرجل وأنا أحسبني سأسحقه سحقاً. ولكن سيفي طار من يـدي إلا القبضة . ونشبت القصبة في بطن جوادي ومنه في صدري. فخرّ الجواد صريعاً وهويت من فوقه وبي رمق أخير يصيح : «أين الرجال ؟!» وتراءى لي في لمحة الطرف ، وأنا أعالج سكرة الردى ، أن جيشي قد انتشر في سهل لا يُدرك له أول ولا آخر ، وأن رجالي قد اصطفوا في ذلك السهل كتفاً الى كتف ، وفي يد كل واحد منهم قصبـة طويلة كالتي في يد المعتوه وتحت قدميـه سيف مكسور ، وفي أعلى كل قصبة رقعة كتب عليها :

ليس بالخبز وحده

ولا بالعدل وحده

ولا بالسلم وحده

يحيا الانسان .

وعندها استفقت من نومي وفي فكري وقلبي وأحشائي من الاضطراب ما لا يوصف .

ذلك هو الحلم يا بهرام . فهات تفسيره . ولك الأمان . »

سمع الشيخ تفاصيل الحلم فأطرق طويلاً حتى عيل صبر الملك فصاح به :

« تكلم ! أما قلتُ إنك في أمان ؟ »

عندئذ رفع الحكيم بصره عن الأرض وحدّق في وجه الملك وأجاب بصوت لا خوف فيه ولا تردد :

« عاش مولاي الملك . وليعلم أن حلمه نبوءة بنهاية ملك السيف وبداية ملك القلم . »

الملك وما دخل القلم في الأمر ؟

بهرام إن القصبة التي رأيتها في يد المعتوه ما كانت غير رمز للقلم .

الملك والمعتوه ؟

بهرام أما المعتوه فشاعر أو كاتب أو فيلسوف .

الملك والكتابة على رأس القصبة ؟

بهرام ذلك ما يطلبه الشعب في سره فلا يستطيع أن يعلنه غير شاعر أو كاتب أو فيلسوف يحسن استعمال القلم ويحسن قراءة ما في ضمير الشعب .

الملك ألعل الشعب جائع ليطلب خبزاً ؟ إن مملكتي لتفيض بالخيرات . فكيف لشعبي أن يشكو الجوع ؟

بهرام الخبز موفور يا مولاي . ولكنه معجون بالدم . وما دام السيف مصلتاً فوق رؤوس العباد كان خبزهم معجوناً بالدم . والانسان مُطالَب بأن يأكل خبزه بعرق جبينه لا بدم قلبه . تلك حقيقة يجهلها السيف ولا تجهلها القصبة . لذلك كتب على القصبة : نريد خبزاً لا دماً .

الملك والعدل ؟ أما لقّبني شعبي بالملك العادل؟ أليس القانون يُطبَّق في مملكتي على الكل بالسواء ؟

بهرام لقّبوك بالملك العادل لعلهم يخففون من ظلمك. فعدلك عدل السيف. لأنك تحكم بالقانون الذي لا يقوم بغير حد السيف . والسيف ظالم أبداً وإن عدل .

الملك وكيف أحكم إن لم يكن بالقانون ؟

بهرام بالعطف واللطف والرأفة والمحبة يا مولاي . فعدل هذه غير عدل القانون. والسيف لا يفهم لها معنى ولا

يقيم لها وزناً . أما القصبة فتفهم المعنى وتقيم الوزن .
ولذلك كُتب على القصبة : نريد عدلاً لا قانوناً .

الملك والسلم ؟ مـــا أظنّ أن في الأرض مملكة ترفل في بحبوحة من السلم كمملكتي .

بهرام وسلمك يا مولاي هو سلم السيف كذلك. وأنت قد انتزعته من جيرانك انتزاعاً . ولا تدري متى ينتزعه جيرانك منك. إن سلماً يقوم بالسيف ينهار بالسيف. فهو هدنـة لا سلم . أما السلم الذي يشاد على التفاهم والتعاون والتآخي فلا يتصدع ولا ينهار. ذلك السلم لا يفهمه السيف وتفهمه القصبـة . ولذلك كتب في أعلاها : نريد سلماً لا هدنة .

الملك ومـا تفسيرك للسيوف تتكسر على القصبـة وتبقى القصبة سليمة ؟

بهرام معنى ذلك يا مولاي أن السيف سيمضي وتبقى القصبة.

الملك ومتى كانت القصبة أقوى من السيف ؟

بهرام ما كانت ، ولكنها ستكون .

الملك أتدول دولة السيف وتقوم دولة القصبة ؟ إنك لتهذي أيها الشيخ .

بهرام قلت لمولاي إنني لست غير قارىء في كتاب. والذي

أقرأه في حلم مولاي هو ان دولة السيف آذنت بالغروب وأن دولة القلم آذنت بالبزوغ .

الملك وذلك السهل الفسيح الذي رأيته آخر ما رأيت وقد اصطف فيه الرجال كتفاً الى كتف وفي يد كل واحد منهم قصبة كالتي في يد المعتوه وتحت قدميه سيفٌ مكسور – وفي أعلى القصبة : «ليس بالخبز وحده ولا بالعدل وحده ولا بالسلم وحده يحيا الانسان» – ماذا ترى كل ذلك يعني يا بهرام ؟

بهرام ذلك يعني يا مولاي أن الناس ، وقد تخلصوا من سلطان السيف بقوة القصبة ، ونالوا الخبز والعدل والسلم ، سيمضون يفتشون بمعونة القصبة عن أشياء أبعد من الخبز والعدل والسلم .

الملك وما عسى تلك الأشياء أن تكون ؟

بهرام إنها أشياء في ضمير الزمان يا مولاي . وبصري أقصر من أن يدركها اليوم .

الملك يا لخيبة فألي فيك يا بهرام . لقد ضيّعتَ حكمتك في شيخوختك . ولولا أنني أمنتك على حياتك لأمرت الآن بقطع رأسك بحد السيف لعلك لا تنسى أن السيف كان وسيبقى أمضى من القصبة. لكنني سأحجر

عليك في مقصورة من مقصورات قصري تطل منها على فناء القصر الواسع لتبصر بعينيك ما سيفعله السيف بالقصبة .

*

وأصبح الصباح فأمر الملك بجمع كل ما في مملكته من أقلام وبحرقها في الساحة الواسعة أمام القصر على مرأى من الجماهير . مثلما أمر بزج كل الشعراء والكتّاب والفلاسفة في السجون .

وكان كما أمر الملك . فغصّت السجون بالشعراء والكتّاب والفلاسفة وامتلأت الساحة الواسعة بالأقلام . وأُضرمت النيران في الأقلام وارتفع دخانها ولهيبها في الفضاء حتى كاد يحجب الشمس. وهلل الناس وكبّروا وتعالت هتافاتهم: «عاش الملك!» إلاّ معتوهاً كان يدفع القوم بمنكبيه محاولاً الوصول الى رابية الأقلام المشتعلة. حتى إذا بلغها من بعد أن خمدت نيرانها تناول منها فحمة وتسلل من بين الجماهير الى حيث كان عَلَمٌ يخفق فوق سارية عالية . فأنزله ورفع مكانه رقعة وقد كتب عليها بالفحمة التي كانت في يده :

نريد خبزاً لا دماً !

نريد عدلاً لا قانوناً !

نريد سلماً لا هدنة !

وما هي إلا طرفة عين وانتباهتها حتى مشت في الجماهير اهتزازات خفية كأنها السحر . وإذا بهم خضمٌ متلاطم الأمواج. واذا بصراخهم يشق عنان السماء : «ليسقط الملك!»

وكان بهرام ينظر من نافذته بعينين دامعتين . وعندما سُئل: أحزناً على الملك كان بكاؤه أم فرحاً بانتصار الشعب ؟ أجاب :

«لا ذاك ولا هذا . ولكنها العجيبة التي اجترحتها فحمة القصبة ! »

•

الخرافة الكبرى

من الحكايات التي سمعتها في صغري ، وما أزال أذكرها ، حكاية فلاح توثقت عرى المودة بينه وبين دب في جواره. فكان كلاهما يحرص على سلامة صاحبه وراحته حرصه على سلامته الخاصة وراحته .

وذات يوم من أيام الصيف أقبل الدب على الفلاح عند الظهيرة فوجده مستسلماً لنوم هنيء في ظل شجرة كبيرة، فربض بجانبه لا يبدي حراكاً مخافة أن يفسد عليه صفاء قيلولته. واذا بذبابة تحط على أنف الفلاح فيروح يتململ في نومه محاولاً طردها فلا تنطرد ، بل تمضي تنتقل بمنتهى الوقاحة من أنف الرجل الى أذنه ، ومن أذنه الى ذقنه فشاربيه وشفتيه . فما كان من الدب الغيور على راحة صاحبه إلاّ أن تناول صخرة كبيرة بيديه وقذف بها الذبابة المزعجة. فما نالها بسوء، وسحق رأس صاحبه .

تعود هذه الحكاية الى ذهني كلما فكرت بكبار العالم في الزمان الحاضر وبما يبدونه من الغيرة على البشرية وصحتها وسلامتها . فهم يريدونها بشرية هانئة ، مطمئنة ، تغط في نومها

نوم الأبرار . ولذلك لا يبحّ لهم صوت ، ولا يكلّ لهم ساعد في الدفاع عنها ضد ذبابة وقحة لا تنفك تفسد عليها هناءتها وطمأنينتها . أما تلك الذبابة فالحرب. وأخشى أن ينتهي اولئك الكبار في دفاعهم عن البشرية الى مثل ما انتهى اليه ذلك الدب في دفاعه عن صاحبه فتسلم الحرب ، وتنسحق البشرية .

ومن هم كبار العالم؟ ألعلهم صفوة البشرية من حيث المعرفة الصحيحة ، والارادة الصالحة ، والخلق الكريم ؟ ألعلهم المؤمنون بأن الانسان فرخ إله ، وبأنه مدعو ليبسط سلطانه على الأرض ومن ثمّ ليقفز منها الى السماء ، فهو لذلك أثمن ما في الأرض والسماء؟ ألعلهم كبار بمحبتهم وصدقهم وسلامة نيّتهم، وبتساهلهم وتسامحهم، وبالمدى الذي تنطلق فيه بصائرهم وأبصارهم ؟ ألعلهم كبار بترفعهم عن الصغائر ؟

أسفاه! إنهم كبار كبر الدب بين الذباب، وآكل النمل بين النمل، والغراب بين العنادل . ويا ليتهم كانوا كباراً كبر البنفسجة بين العوسج ، والنحلة بين الزنابير ، والشمعة المشتعلة في الظلمات الدامسات .

وإنهم أقوياء بما يستندون إليه من جيوش في ثكناتهم ، وأساطيل في بحارهم، وقذائف جهنمية في مستودعاتهم، وقاذفات للموت في مطاراتهم. ويا ليتهم كانوا أقوياء بأشواقهم الى الانعتاق

من كل هذه الأشياء .

وإنهم لأغنياء بما يملكون من فضة وذهب ومن حيلة ودهاء ومن قدرة على التلاعب بأفكار الغوغاء وعواطف الدهماء. ويا ليتهم كانوا أغنياء لا بما يملكون من هذه الأمور بل بما لا يملكون .

وكيف يدافع كبار العالم عن العالم ؟ ومن أي السبل يسعون الى إنقاذ البشرية من تلك الذبابة المزعجة — ذبابة الحرب ؟ إن لهم في ذلك خرافات لا تحصى . وأكبرها وأدهاها الخرافة القائلة : «إذا أردت السلم فاستعدّ للحرب .»

وهي الخرافة التي ما برح كبار الأرض يروّجون لها بأقوالهم وأفعالهم وأموالهم منذ أن استوطن الانسان الأرض . فكان من رواجها أن انساق صغار الأرض في ركاب كبارها . وراح الكل — كباراً وصغاراً — يكتبون تاريخ البشرية بالدمع والدم . فما تتيبس أيديهم ، ولا تجحظ أبصارهم ، ولا تضطرب أمعاؤهم ، ولا تتقزز أنفسهم ، ولا تقف أنباضهم من هول ما يكتبون. وهل أفظع لبشرية ما فتئت تنشد السلم من أن يكون تاريخها تاريخ نار ودماء، وشقاء وفناء، وغدر وثأر، وكره وضغينة، وخصام وانتقام ينزلها الانسان بالانسان ؟ ثم هل أفظع من ان يمجد كاتبو ذلك التاريخ اولئك النفر من الناس الذين كانوا أشدهم فتكاً بالناس ، فيجعلوا منهم أبطالاً وأنصاف آلهة حريين بالتعظيم ؟

أليس من الخزي والعار أن تقطع البشرية ما قطعته من آلاف السنين ، وأن يكون الجانب الأكبر من تاريخها تاريخ حروب شنّها الانسان على الانسان بدلاً من أن يكون تاريخ حرب واحدة شنّها الناس معاً على كل ما من شأنه أن يحول بينهم وبين ما يتوقون إليه من سلم وهناء ومعرفة وحرية ؟ أما كفى الانسان حرباً أنه في كل لحظة من وجوده يناضل ضد الجوع والحر والقر والمرض والجهل والموت ؟ أما كفاه أنه في جهاد دائم مع نفسه حتى يفرض عليه الجهاد ضد انسان مثله منهمك في حربه مع الجوع والحر والقر والمرض والجهل والموت ، وفي حربه مع نفسه ؟ أليس الأحرى بمحاربَين يقاتلان عدوّاً واحداً في ساحة واحدة أن يوحدا قواهما في محاربة العدو المشترك بدلاً من أن يهدراها هدراً في حربهما الواحد ضد الآخر ، فيسلم العدو ويهلكا ؟

ذلك ما يقضي به المنطق السليم وتفرضه المصلحة الحقة . إلا أن لكبار العالم منطقاً لا ينطبق على المنطق ، ومصلحة تنافي كل مصلحة . ففي منطقهم أنه إذا التقى جائعان يفتشان عن رغيف فالمصلحة تقضي على أحدهما أن يفتك بالآخر ليكفل لنفسه الرغيف الذي ما يزال في عالم الغيب بدلاً من أن يتعاون الاثنان في التفتيش حتى اذا ظفرا بالرغيف اقتسماه فكان حياة لكليهما.

واذا توافق اثنان في طريق وانبرى لهما نمر فمن مصلحة الواحد أن يبطش برفيقه بدلاً من أن يتكاتف واياه على البطش بالنمر. واذا سار اثنان في ظلمة دامسة فمن الخير لأحدهما أن يفقأ عيني رفيقه لتنكشح الظلمة من حواليه ويبصر طريقه بدلاً من ان يتوكأ أحدهما على الآخر ريثما تنكشح الظلمة من حواليهما. واذا تلاقى مركبان في عرض البحر وكان كلاهما في خطر الغرق فالدفاع عن النفس يقضي بأن يغرّق أحدهما الآخر بدلاً من أن يتضامنا في حربهما مع البحر .

كلنا جياع وعطاش وعراة . وكلنا في ظلمات دامسات. وكلنا في كفاح مستمرٍ ضد الطبيعة وعناصرها ، وضد الجراثيم والأوبئة ، وضد ما تحجّب فينا ومن حولنا من أسرار البقاء والفناء ، وضد الحزن والألم ، وأخيراً ضد الموت. فبأي منطق يقاتل بعضنا بعضاً بدلاً من أن نكون جيشاً واحداً ، وإرادة واحدة ، وسلاحاً واحداً في حربنا مع الجوع والعطش والعري ، ومع الظلمة وما يختبىء في تلافيفها من أمراض وأوبئة ، ومن حزن وألم فموت ؟

ولماذا يحب الناس السلم ويباركونه ، ويكرهون الحرب ويلعنونها ؟ ألأن السلم يعني الهناء والحرب تعني الشقاء ؟ أم لأن السلم حياة والحرب موت ؟ وها هم يشقون في السلم ويموتون

مثلما يشقون في الحرب ويموتون .

إنما يطلب الناس السلم ليتاح لهم أن يحاربوا أعداءهم الذين من حولهم ، وأعداءهم الذين فيهم . فلا الجوع ولا العطش ولا العري ، ولا المرض ولا الجهل ولا الخوف ولا الألم ولا الموت تنفكُّ لحظة عن مهاجمتهم . وإنما يكره الناس الحرب لأنها تصرفهم عن محاربة اعدائهم الى محاربة أنصارهم . فما من انسان عاش على الأرض إلاّ كان نصيراً لكل الناس في حربهم الأبدية ضد أولئك الأعداء . فهل أشد حماقة وأفظع غباوة من نصير يقتل نصيره ، وحليف يفتك بحليفه ؟!

وإذن فالسلم ليس غاية ترتجى في ذاتها ولذاتها . ولكنه وسيلة الى غاية . إن هو الا حالة تمكن الانسانية المحاربة من تنسيق قواها وتوحيد سلاحها وقيادتها في حربها مع أعدائها الألداء . وهذه الوسيلة في يد الانسان تنقلب الى مكيدة ضده والى سلاح في أيدي خصومه كلما نفخ النافخون في بوق الحرب فراح الناس يتهاوشون ويتسابقون ويتقاتلون ويتذابحون . فيعضون التراب في حين أن أعداءهم يتنادمون ويتسامرون ويتزاوجون ويتكاثرون .

والسلم لا يكون سلماً إلاّ اذا صفا جوّه من غيوم الحرب . فانصرف الناس الى نضالهم مع أنفسهم ومع الطبيعة وكلهم

مطمئن الى أن شريكاً له في النضال لن يغدر به ويبادره بطعنة نجلاء في ظهره أو في جنبه أو في بطنه أو في أم رأسه. واذذاك فقولهم: اذا أردت السلم فاستعدّ للحرب – قول هراء وخرافة شنعاء. انه لجريمة نكراء ضد السلم وضد الانسان. اذ كيف لنا أن نستعد للحرب من غير أن نقيم لها وزناً ومن غير أن نبني لها المعاقل والحصون في أفكارنا وقلوبنا، ومن غير أن ننفق عليها الكثير من وقتنا ومن لحمنا ودمنا؟ وما دمنا في زمان السلم ننفق من أفكارنا وقلوبنا ومن لحمنا ودمنا على الحرب في سبيل الحرب، فأي السلم سلمنا وأين نحن من حربنا مع الطبيعة ومع انفسنا؟

أنملأ آذاننا وأعيننا وأنوفنا بأخبار الحرب، ومشاهد الحرب، وروائح الحرب، ثم نقول اننا في سلم؟ أما كان الأحرى بنا في زمان السلم لو ملأنا قلوبنا وأفكارنا بأخبار السلم، ونبذنا كل ذكر للحرب؟

ما أجمل أن تفتح صحيفة، أو أن تسمع اذاعة، او أن تحضر اجتماعاً لا أثر فيها للحرب والخوف من الحرب، بل كل ما فيها أخبار عن انتصارات جديدة أحرزها الانسان في حربه مع نفسه ومع الطبيعة. لكن سلماً يجثم على صدره شبح الحرب فلا تسمع فيه غير حديث الاستعداد للحرب لسلم أشد هولاً

من الحرب . وهو السلم الذي نحن فيه اليوم والذي جلبته علينا الخرافة الكبرى . ولو أن كبار العالم الذين يدعون الغيرة على الانسانية وهنائها كانوا أوفر ذكاء من الدب في الحكاية لما روجوا لتلك الخرافة الحمقاء . ولو أنهم كانوا كباراً حقاً لاقتنعوا وأقنعوا الناس بعكس تلك الخرافة فقالوا :

« اذا أردت الحرب فاستعد للحرب . واذا أردت السلم فاستعد للسلم . »

•

رحابة الصدر

قال لقمان لابنه عند توليه الحكم في جزائر واق الواق :

يا بنيّ !

ثلاث لا يستقيم معها حكم لحاكم : أن يحب الحكم فوق حبه للمحكوم . وان يُخضع العدل للقانون . وان يضيق صدره بمعارضيه . والأخيرة هي الأهمّ .

وثلاث لا يستقيم بدونها حكم لحاكم : ان يحب المحكوم فوق حبه للحكم. وان يُخضع القانون للعدل . وان يتسع صدره لمعارضيه . والأخيرة هي الأهم .

لئن اكتملت لك كل الصفات الحميدة ، يا بني ، الا رحابة الصدر، بقيت ريشة في مهب الريح وألعوبة في ايدي محكوميك. ورحابة الصدر تعني الصبر الجميل على المعارضة من اي نوع كانت ومن ايا مصدر جاءت، كيما يتاح لك ان تقوّم اعوجاجك او ان تقوّم اعوجاجها اذا كانت معوجة و كنت مستقيماً. اما ان تحاول القضاء على كل معارضة فأمر أعيذك منه ، يا بني ، لأنه فوق طاقتك وطاقة اي انسان . ومن ثم فانت بغير معارضة جواد بغير لجام ومركب بغير شراع .

الا فاعلم، يا بني، ان لكل ما في الكون معارضاً او نقيضاً. بذا قضت الحكمة التي لن تدركها بعقلك وقد تدركها يوماً بقلبك. فحياة وموت، ونور وظلمة، وحرارة وبرودة، وحركة وسكون، وجذب ودفع، ورجاء ويأس، وايمان وشك، وفرح وحزن الى آخر ما هنالك من متناقضات لا تقع تحت حصر.

لولا المعارضة، يا بني، لما كانت حركة او حياة. فهي من الأكوان حجر الزاوية، ومحور الدائرة، ونقطة الانطلاق. وانت لو سلكت الى غايتك من حياتك مسالك الكواكب في ابراجها، او مسالك الحيتان في اعماقها، او مسالك النسور في اجوائها، لما نجوت من المعارضين لارادتك وغايتك. لذلك فأحوج ما تحتاج اليه في حياتك، سواء أكنت حاكماً ام محكوماً، هو صدر لا يضيق بمعارضة المعارضين، بل يتقبلها بالشكر والفرح، عالماً انه لولاها لالتوت سبله، وشلت ارادته، وطاشت سهامه.

وانك لواجد ابلغ مثال على صحة ما أقول في حكاية جدّيك آدم وحواء وخروجهما على ارادة خالقهما بامتثالهما لارادة الحية. فكأن الله الذي خلق تلك الحية خلق فيها معارضاً لارادته كيما يخرج بآدم وحواء من الغفلة المستسلمة الى اليقظة المتحفزة، ومن اللا ارادة الى الارادة.

لقد شاء الله ، لحكمة نجهلها اليوم ، ولكننا لن نجهلها الى الأبد، ان يُقيم بمشيئته معارضاً لمشيئته. ولولا ذلك لما خلق الحية. ولو ان المعارضة ما كانت بعضاً من نظامه الشامل لقضى على الحية حالما عارضته . ولمحا آدم وحواء من سجل الحياة فور خروجهما على مشيئته. الا انه ما فعل شيئاً من ذلك. واكتفى بأن لعن الحية وبأن أخرج آدم وحواء من جنة عدن . اي من غيبوبة لا معارضة فيها الى استفاقة كل ما فيها معارضة . أليس معنى ذلك ان المعارضة هي الطريق الأوحد الى المعرفة والحياة والحرية ؟

لقد كان الله ، وهو القدير على كل شيء ، رحب الصدر الى حد انه خلق من ذاته معارضين لذاته . فما كمّ افواههم اذ عارضوه. ولا ردهم عن المعارضة بالقوة. ولا زجهم في السجون. ولا محق آثارهم من الارض . بل ، على العكس من ذلك ، ابقى على حياتهم واطلق لهم الحرية في عالم يعارض بعضه بعضاً بغير انقطاع ، لعلهم – في آخر الدهر – ينتهون من المعارضة والمشاكسة الى التفاهم والتآلف. ثم الى المعرفة التي لا يفوتها علم شيء. ثم الى القدرة التي لا تعاندها قدرة. ثم الى الحرية التي لا يحدُّها حد.

أما أنت ، يا بني ، فما دمت بعيداً عن المعرفة التي لا يفوتها علم شيء ، وعن القدرة التي لا تعاندها قدرة ، وعن الحرية التي لا يحدّها حدّ ، فحذار ان يضيق صدرك بمعارضة معارض ، او

بمنافسة منافس. فأنت كلما تبرمت بمعارضيك ومنافسيك شددت أزرهم عليك ، وشحذت سلاحهم ضدك ، وربطت حبلاً بعنقك ثم سلمتهم طرف الحبل فاقتادوك الى حيث يريدون لا الى حيث تريد . وحادوا بك عن جادة الصواب الى جادة الضلال .

حذار ثم حذار ، يا بني ، ان تزدري اي انسان من الناس . فقد يستنسر البغاث ، وقد تستأسد الثعالب . والبغاث اذا استنسر كان احدّ مخلباً واقوى منسراً من النسور . والثعالب اذا استأسدت كانت أشدّ بأساً وأفظع بطشاً من الأسود . وانت في الواقع لا تعرف اي الناس هم البغاث والثعالب وايهم النسور والاسود . لذلك اوصيك برحابة الصدر تجاه الأقوياء والضعفاء بالسواء .

واحذر ، يا بني ، الذين يغالون في مدحك قبل ان تحذر الذين يغالون في قدحك . واحذر اكثر من المادحين والقادحين اولئك الذين لا يمدحون ولا يقدحون . فسلاحهم امضى من سلاحك لأن صدورهم ارحب من صدرك . وهم يعرفون ان مادح السلطان كاذب وان صدق . وان قادح السلطان صادق وان كذب . ولأنهم يعرفون ذلك تراهم لا يمدحون ولا يقدحون . لذلك اوصيك برحابة الصدر تجاه القادحين قبل المادحين .

واحذر كذلك ، يا بني ، ان تسوس الناس بالقانون لا غير . ذلك هو الظلم بعينه . فالقانون طوق واحد لرقاب عديدة متفاوتة

الحجم والقوة . فرقبة الثور غير رقبة النملة . ورقبة الخنزير غير رقبة الحمامة . ورقبة الحوت غير رقبة البرغشة . وحبسك الخلد والهزار في ظلمات الأرض هو خير الثواب للخلد واقسى العقاب للهزار . وحجبك نور النهار عن البومة منّة . اما حجبـك إياه عن النحلة فجريمة .

ثم لا يغرنك ، يا بني ، ان القانون في يـدك يخولك سلب الحياة والرزق والحرية . بل عليك اذا شئت ان تعدل ان تعرض الحبل على عنقك قبل ان ترسل احداً الى المشنقة . وقبل ان تزج مخلوقاً في السجن ان ترسل قلبك الى السجن . وقبل ان تسلب انساناً رزقـه ان تتخلى عن كل ما لديـك من ارزاق . فاذا استطعت ذلك ثم حكمت على غيرك بالشنق ، او بالسجن ، او بتجريده من ممتلكاتـه ، كنت عادلاً في حكمـك وان خالفت القانون . وإلا كنت ظالماً وان يكن القانون بجانبك . فالناس في الخير والشر سواسية . وانت لا تعلم ايهم الأكثر خـيراً ، وأيهم الأكـثر شرّاً . لذلك اوصيك برحابة الصدر حتى تجـاه المجرمين . فقد تكون منهم من حيث تدري ولا تدري .

واذكر ، يا بني ، ان الحكم سيف ذو حدين . فحد للمحكوم . وحد للحاكم . فإن شئت الا يرتدّ السيف الى صدرك حذارِ ان ترده الى صدر غيرك .

ما اختصم اثنان ، يا بني ، في أمر من الأمور إلا لأن صدر كليهما ضاق بمعارضة الآخر . ومن ضاق صدره بالمعارضة ضاق بالحياة التي لا تقوم بغير المعارضة . ومن ضاق صدره بالحياة فما نفعه من تجاريب الحياة ؟ انه لعبء على الحياة والموت معاً .

تعلّم رحابة الصدر، يا بني ، من الارض ومن البحر ومن الهواء . فالارض لا تضيق بالظربان دون الغزلان . وبالعوسجة دون البنفسجة . وبالتراب دون التبر . وبالاشرار دون الابرار. والبحر لا يقبل الحوت دون الاخطبوط . واللؤلؤة دون الاسفنجة . والجدول الصافي دون الساقية العكرة . ومراكب الحجاج دون مراكب القرصان. والهواء لا يرقص لشدو البلبل ويمتعض لنقيق الضفدع . وهو لا يسكر بشذا الزنبقة ويتقيأ أمعاءه لرائحة جيفة . وهو لا يعتزّ بالبازيّ ويخجل بالخفاش . وهو لا يستأنس بالنهار ويستوحش بالليل. لذلك اوصيك برحابة الصدر قبل كل شيء وبعد كل شيء .

إي ، بنيّ ، تلك هي وصيتي اليك ألقيها وديعة في قلبك ، ولا اشدّها حبلاً في عنقك ، مخافة ان يفلت قيادك من يدك . فكن اميناً على وديعتك . وسر على بركات الله .

سحر الطفولة

ما السر في انجذابنا الى الطفولة انجذاباً هو السحر واكثر ؟

نتأمل كائناً صغيراً فتميع قلوبنا عطفاً عليه ونود لو نضمه ونشمه ، ولو نداعبه ونلثمه ، ولو نلفه بشغاف القلب وننزله في بؤبؤ العين . سواء في ذلك حمل الشاة ، وجرو القطة ، وخشف الغزالة ، وفرخ الدجاجة . فما قولك بالطفل الآدمي ؟

الطفولة جهل مطبق . ونحن نكره الجهل في كل مظاهره ونسعى بكل قوانا الى التخلص منه. ولكن التفتيش عن المعرفة يكلفنا الكثير من العناء ، ويتركنا في شك دائم وحيرة مقيمة من امر ما نظننا نعرفه . فما اكثر ما نحسبنا هتكنا الحجاب عن سر من اسرار الكون الخارج عنا والقائم فينا واذا بذلك السر عينه ينحسر عن أسرار جديدة وألغاز جديدة ، وكلها محجب بألف حجاب .

أترانا عندما نتعشق جهل الطفولة فانما نتعشق غبطة نتوهمها في ذلك الجهل على حد قول المثل الانكليزي: «الجهل غبطة» ؟ أم ترانا ننجذب الى جهل الطفولة اعترافاً منا بأن ما بلغناه

من معرفة ليس بمعرفة ، وتبرماً بالمشقات التي نتكبدها في التفتيش عن المعرفة ؟

أم ترانا نغتبط بجهل الطفولة لأننا نؤمن بأن ذلك الجهل ينطوي على مفاتيح المعرفة الكاملة نظير ما تنطوي البذرة على الشجرة ، والبيضة على الطائر ، والذرة على الحياة والحركة ؟

*

والطفولة منتهى العجز والاتكالية . ونحن نمقت العجز والاتكال ، ونغالي في طلب القوة والاستقلال ، ونستبيح كل سلاح في الدفاع عن انفسنا .

ألعل حبنا لعجز الطفولة واتكالها ليس اكثر من اقرارنا بعجزنا ، وبتهربنا من الكفاح في سبيل العيش، ومن المسؤوليات الجسام التي تلقيها على كواهلنا الحياة ؟

أم لعلنا ، إذ نميل بكل جوارحنا الى عجز الطفولة واتكالها ، فانما نعبّر عن شوق دفين فينا الى حياة مثلى كتلك التي صورها السيد المسيح عندما قال لتلاميذه :

« انظروا الى طيور السماء فانها لا تزرع ولا تحصد ولا تخزن في الأهراء . وابوكم السماوي يقوتها . أفلستم أنتم أفضل منها ؟.. اعتبروا زنابق الحقل كيف تنمو . انها لا تتعب ولا تغزل . وانا اقول لكم ان سليمان في كل مجده لم يلبس كواحدة

منها. فاذا كان عشب الحقل الذي يوجد اليوم ، وفي غد يُطرح في التنور ، يُلبسه الله هكذا ، أفلا يلبسكم بالاحرى انتم يا قليلي الايمان ؟»

أم لعلنا نبصر في عجز الطفولة جرثومةَ القدرة على كل شيء، وفي اتكالها الوعودَ التي لا يتسرب اليها الشك بانها ستنتهي بأن تسخّر كل ما في الكون لخدمتها، عن وعي سابق وعن تصميم، مثلما تسخره الآن عن غير وعي وبدون تصميم ؟

*

والطفولة اباحية سافرة ، ونحن نتستر من الاباحيـة بألف ستار من قوانين وضعناها للحشمة والوقار، وللتعارف والتخاطب والتعامل . وتلك القوانين قد أباحت لنا اشياء وحرمت علينـا اشياء . وترانا ، مع ذلك ، ننتشي باباحية الطفولة ونحدث عنها باعجاب ، ونحاول تقليدها في ظروف نخلقها لتلك الغاية خلقاً . كالمساخر بأنواعهـا حيث تمحى الوجوه والأسماء والشخصيات ، وتطرح مراسم اللياقـة والوقار جانباً ، ويباح الكثير من المحرمات .

أيعني ذلك ان الاباحية صفة أصيلة في كياننا، واننا نشتاقها بكل ما فينا من حرارة الشوق ، فلا نلجمها الا مكرهين ، ولا نتخلى عنها إلاّ لغاية والا الى حين ؟

أم ان انشغالنا باباحية الطفولة لا يعني غير مقتنا للحواجز الشائكة التي أقامتها الهيئة البشرية في وجه شهواتنا السود ؟

أم هو تفريق بين اباحية الكبار الأثيمة واباحية الصغار الطاهرة ، وأمل شريد بعيد بأن نعتق يوماً من جميع القيود والحدود ، وننطلق في عالم كل ما فيه مباح لنا لأن كل ما فينا مباح له ، ولأنه فوق خيرنا وشرنا ، وحلالنا وحرامنا ، وأجمل من ان ننعته بالجميل ، وأكمل من ان ندعوه كاملاً ؟

*

والطفولة انانية جامحة . فالطفل ان صادف هوى في نفسه صولجان ملك ، او عكاز كسيح ، او قمر في السماء ، او عصفور على فنن ، أو قلادة في عنق غادة ، ما خالجه اقل ريب في حقه بأن تكون كل هذه في قبضته وتحت مطلق تصرفه . ونحن ما ننفك نشترع الشرائع ونخلق التقاليد للحد من انانية الانسان تجاه أخيه الانسان وتجاه الطبيعة. فكيف نوفق بين حبنا للطفولة وانانيتها الجامحة وبين شرائعنا وتقاليدنا التي ليست سوى قيود نفرضها بالقوة على الانانية البشرية ؟

أنقول ان الانانية نوعان : نوع تباركه الحياة ، وهو انانية الصغار ، ونوع تلعنه وهو انانية الكبار ؟

لعمري ان الانانية انانيــة ، أكانت انانية طفل في مهده ام انانية شيخ على شفير لحـده . ويقيني اننا ما احببناها في الصغير وكرهناها في الكبير إلا لأنها في الصغير سافرة ظاهرة ، وبغير حد . ولأنها في الكبير متسترة ، متكتمة ومحدودة. تلك انانية ربانية لا تماري ولا توارب ولا تداجي . وهذه انانيـة تمشي في ثوب الحمل الوديع ولها انياب الذئب واظافره .

*

أعود فأسأل عن السر في انجذابنا الى الطفولة فلا أجد له غير تفسير واحد يرضى به فكري ويطمئن اليه قلبي . وهو ان حالة الطفولة التي تبتدىء بها دورة الحيـاة البشرية انما ترمز الى حالة الغبطة التي ستنتهي اليها . فالحياة ، وان تراءت لنا كما لو كانت تسير في خطوط مستقيمة او ملتوية ، لا تسير في الواقع إلا في دوائر . فبـذور تنبت وتزهر وتثمر لتعود بذوراً . وفصول تدور بعضها على بعض وأواخرها مقطورة أبداً بأوائلها . ومياه تخرج بلا انقطاع من البحر لترجع في النهاية الى البحر .

ولكن قطـرة تنطلق من البحر فتدور دورتهـا ثم تعود من حيث اتت تكتسب صفات ما كانت لها قبل انطلاقهـا من البحر .

كذلك ينطلق الانسان من قلب الوجود ، وقـد انطوت

فيه كل اسرار الحيـاة ، ليعود الى قلب الوجود وقد انكشفت له كل اسرار الحياة . ينطلق طفـلاً عاجزاً جاهلاً ليعود كائناً قادراً على كل شيء وعليمـاً بكل شيء . وما الاعمار يطويهـا دورة بعد دورة غير مراحل في طريق الخير والشر الذي لا طريق الاه الى المعرفة والقدرة والحرية .

واذ ذاك فالسحر الذي ينفـذ الى قلوبنا لدى احتكاكنـا بالطفولة ليس اكثر من انتفاض الاشواق الدفينة فينا الى حياة تشبه حياة الطفولة في انعتاقها من قيود الخير والشر ، والزمان والمكان ، وفي اباحيتها الطاهرة السافرة ، وأنانيتها الجامحة الشاملة . وتختلف عنها في وعيها اللامتناهي وقدرتها على ان تعول الكون بدلاً من ان تكون عالة على الكون .

لولا ايماننا بحكمـة الحياة وعدلها وجمالها لما تعلقنا باذيالهـا تعلّق الرضيع بثدي امه . ولولا انها لم تشأ لنا غبطة اسمى بما لا يقاس من غبطة الطفولة لما تخطت بنـا الطفولة الى الصبا ، فالى الشباب ، فالى الكهولة ، فالى الشيخوخـة ، فالى القبر . ولو لم تكن الطفولة وعداً لنا بأن تلك الغبطة السامية لن يحول بيننـا وبينها قبر او زمان لما كان للطفولة في حياتنا ذلك السحر الذي يتحدى الوصف والتحليل .

*

فألف سلام على الطفولة الطاهرة الساحرة . وألف سلام على الحياة الحكيمة الحليمة التي جعلت لنا من مرح الطفولة الجاهلة العاجزة المستسلمة باباً الى الغبطة التي كلها معرفة ، وكلها قدرة ، وكلها انطلاق .

•

الدين والمدرسة

قامت المدرسة أول ما قامت في كنف الدين وترعرعت في حضنه. وما ذلك الماضي ببعيد يوم كان الراغب في تعلّم القراءة والكتابة لا يجد له معلّماً غير راهب في دير ، او كاهن في معبد ، أو شيخ في مسجد ؛ ثم لا يجد كتباً يستعين بها على الدرس والتحصيل غير الكتب الدينية .

ومرّت عصور كانت المدرسة في خلالها عالة على الدين ورجاله ومنهلاً لا يرده إلاّ القليل من ذوي اليسار وذوي العطش القتّال الى نهلة من المعرفة . الى ان قامت الدولة الحديثة بحاجاتها المتشعبة ، ومطامعها الواسعة ، وواجباتها المتشابكة ما بين تشريع وقضاء ، وتنظيم اقتصادي وسياسي ، وتسيير علاقاتها مع باقي الدول في الحرب والسلم. فكان لا بدّ لها من جيوش جرارة من الموظفين الذين يحسنون تصريف شؤونها والسهر على سلامتها. وهؤلاء الموظفون ، وان تفاوتت مراتبهم وواجباتهم ، كانوا في حاجة الى شيء من الدرس والتحصيل . وإذن فلا بدّ للدولة من مدارس .

وكانت الخطوة الاولى تخطوها الدولة نحو المدرسة . فتستقل المدرسة ، الى حدّ ، عن الدير والهيكل والمسجد .

ثم جاء العلم الحديث بمختبراته وفتوحاته . واذا المدرسة عالم شاسع ، له بداية وليس له نهاية . واذا بالدولة لا تستطيع القيام بواجباتها بغير المدرسة وبغير العلم . لذلك تنتهي بان تتبنى المدرسة وان تجعل التعليم اجبارياً في درجتيه الابتدائية والثانوية. وقد لا ينقضي قرنٌ نحن فيه حتى يصبح التعليم إجبارياً في كل اقطار الارض ، وحتى يباح التعليم العالي لكل راغب في زيادة.

لقد انتقلت المدرسة من كنف الدين الى كنف الدنيا — من الدير والهيكل والمسجد الى وزارة المعارف .

وان تسألوني عن المدرسة اين كانت احسن حالاً وأقوم خطى في السير نحو اهدافها : افي الدير والهيكل والمسجد أم في وزارة المعارف ؟ — أجبكم بأنها ما وجدت بعد اهدافها لا هنا ولا هناك ولا هنالك . فقد كانت في الدير والهيكل والمسجد مطية لاثارة نعرات طائفية الله ورسله وانبياؤه منها براء . وهي في وزارة المعارف مطيّة لاغراض قومية، زمنية ارضيّة، اذا حصر الانسان همّه فيها لم يبقَ من عظيم فرق بينه وبين الحيوان .

انما رسالة المدرسة ، في اعتقادي، هي تمهيد السبيل للانسان للتغلب على الحيوان. ثم النهوض بالانسان الى ما فوق الانسان،

الى الله . وتلك لعمري هي رسالة الدين . على هذا الصعيد لا على سواه يستطيع الدين والمدرسة ان يتلاقيا ، وان يتحالفا . ولهذه الغاية لا لغيرها يليق بهما ، بل يتحتّم عليهما ، ان يعملا يداً واحدة فتغدو المدرسة هيكلاً ويصبح الهيكل مدرسة ، وحتى يكون ذلك ستبقى الانسانية خشبة في عرض اليمّ تتقاذفها الاهواء والانواء ، فلا تهتدي الى ملجإ او ميناء .

تتسابق الدّول في هذه الايام الى تعزيز مدارسها وتوسيع نطاق علومها وفنونها . والمجلّية المجلّية منها هي التي تمكنت من القضاء على الاميّة، ومن استثمار العلم والفنّ استثماراً يزيد في ثروتها ، ويدعم هيبتها ، ويرفع مكانتها بين الدّول . فالمدرسة الحديثة لا تعدو كونها مختبراً هائلاً لا لخلق الرجال، ولا للنهوض بالانسان الى ما فوق الحيوان، بل لخلق مشاكل جديدة بخلق حاجات جديدة ، ولتنمية خيرات الارض ثم للنزاع على اقتسام تلك الخيرات، ولتثبيت كيان زمنيّ زائل يدعى الدولة. فهدفها هو ان توفّر لانسان اليوم من القوت والكساء والمأوى، ومن اساليب اللهو والمتعة، ومن وسائل النقل والحركة، ومن اسباب القوّة والاعتزاز بالنفس أكثر مما كان موفوراً لانسان الأمس .

الا قولوا للذين جعلوا غاية الانسان من وجوده متعة البطن والعين والانف والاذن ان للحيتان في بحارها والجواميس في

مراعيها مثل تلك المتعة . افلا فرق بين الانسان وبين الحوت والجاموس ؟

وقولوا للذين جعلوا هدفهم جمع الثروات وتكديس الخيرات ان النملة كذلك تنفق عمرها في الجمع والتكديس . اوليس الانسان بافضل من النملة ؟

وقولوا للذين جعلوا القوّة هدفاً للانسان إن في قرن الثور وساعده قوّة أين منها قوة الانسان. العل الثور خير من الانسان؟

ثم قولوا للذين حصروا غاية الانسان من حياته في تجديد النسل وتكثيره ان البعوض كذلك يتناسل ويتكاثر . العل الانسان والبعوضة سيّان ؟

أجل . ان الانسان لمن لحم ودم . و كذلك الحيوان . فهما من ذلك القبيل صنوان . ولكنّ الحيوان يعيش بلحمه ودمه للحمه ودمه . فهو لا يعرف له هدفاً غير الاكل والشرب والتناسل . وهو يسعى الى هدفه بقوة كامنة في كيانه ندعوها الغريزة . اما الانسان ، وان ساقته الى حاجات اللحم والدم عين الغريزة التي تسوق الحيوان ، فيحس في داخله قوًى جياشة واشواقاً لافحة الى الحدّ من سلطان تلك الغريزة والى التغلّب عليها في النهاية ، فهو يطمح ابداً الى الانعتاق من ربقة الغريزة والافلات من عقال البهيمة .

ذلك ما ترمي اليه جميع الشرائع الارضية وتلك التي ندعوها سماوية. والا " فما معنى قولكم للانسان: «لا تقتل. لا تزنِ. لا تسرق. لا تشهد بالزور. لا تشتهِ مقتنيات قريبك. لا تقابل الاذية بالاذية»؟ ما معنى الصوم والصلاة والتوبة والغفران؟ اليست هذه كلها شكائم في فم الغريزة واغلالاً في عنقها واصفاداً في رجليها؟ ثم ما معنى هذه الاشواق التي لا تنطفىء الى السلام الدائم، والعدل الكامل، والجمال الذي لا يذوي، والحرية التي لا تُحد، والحياة التي لا تموت، وكلها لا يفقه له الحيوان معنى ولا يمتّ الى اللحم والدم بصلة؟ اليست هذه الاشواق دليلاً على تبرّمنا بسلطان الغريزة علينا، ثم دليلاً لنا على الهدف الأبعد والاسمى من وجودنا؟

لذلك أقول بان الانسان مطالَب بأكثر من الأكل والشرب وتجديد النسل، وبأكثر من تذليل البحار والقفار والجوّ، وبأكثر من بناء المدن والمعامل والمعاقل، واقتسام الارض وترابها ومعادنها، وتشييد الممالك والذود بالمال وبالارواح عن حياضها. إنه مطالَب قبل كل شيء وبعد كل شيء بكبح جماح البهيمة في طبيعته، ثم بالارتقاء الى ما فوق البهيمة، ثم بالسمو الى ما فوق الانسان ـ الى العلم بكل شيء والقدرة على كل شيء.

ذلكم هو الهدف. وهو، من غير شك، بعيد المنال. إلا انه ليس بالمستحيل. اذ ليس من مستحيل في حياة تمتد ما

امتدّ الزمان ، إلاّ اذا انقطع حبل الحياة وحبل الزمان . وذلك ما ليس يستطيع ان يصوّره فكر او ان يتخيّله خيال.

ولو انّ الاهداف كانت تدرَك بمجرّد تحديدها والتكلم عنها لكانت الارض غير الارض والبشرية غير البشرية . ولكن ما من هدف يستطاع الوصول اليه الا بالسعي والجدّ والعناء ، والسعي والجد والعناء تذهب كلها هدراً ما لم يكن من خلفها فكر ثاقب وقلب مؤمن وارادة قحّامة .

واني لأسأل – والعالم اليوم من التشويش والقلق والفوضى حيث تعلمون :

مَن ترى سيتولّى امر تثقيف فكر الانسان وقلبه وارادته وتوجيهه الى هدفه ؟

لقد حاول الدين ذلك. فما افلح ايّ دين الا في فجر دعوته، والا الى حدّ. ثم اقتعد جانباً من مضمار الحياة الفسيح واكتفى بالتهديد والتنديد والترديد من غير ان تكون له حماسة الفكر المتوقّد ، وحرارة القلب المؤمن ، وصلابة الارادة القحّامة .

وانجبَ الدين المدرسة . فما ان شبّت عن الطوق حتى تنكرت لوالدها ثم راحت تناصبه العداء بالكثير من الادعاء والخيلاء . وليس من ينكر اليوم على المدرسة القوة الهائلة التي لها في تسيير مجاري الحياة البشرية . وانها لمكابرة ان ننكر مثل

تلك القوة على الدين. فالدين والمدرسة هما الركنان المتينان اللذان تقوم بهما وعليهما مدنية الانسان وحضارته . ولكنها مدنية متداعية وحضارة تكاد تحتضر. ولماذا ؟ لان بين الدين والمدرسة ما يشبه الجفاء. فالدين قد نسي رسالته. والمدرسة ما اهتدت بعد الى رسالتها .

ولو ان الاديان خفّفت من غلوائها في احتكار الحقيقة ، وفي عبادة الحرف دون الروح ، وفي نزاعها الظاهر والخفيّ بعضها ضدّ بعض ؛ ثم لو انها تضافرت جميعها على النهوض بالانسان الى ما فوق الحيوان لا طمعاً بجنة ترجى او هرباً من جهنّم تخشى ، بل امتثالاً الى المشيئة الكلية التي ما اودعت الانسان اشواقاً لاهبة الى المعرفة والحرية إلاّ لتبلغ به سناء المعرفة وفضاء الحرية؛ ولو ان المدرسة ما بالغت في حشو دماغ الطالب بشتى المعلومات لتترك فكره قفراً ، وارادته شلواً ، وقلبه سِباخاً ؛

اقول لو ان الدين والمدرسة تفاهما على هدف الانسان من وجوده ثم تعاونا على الوصول به الى ذلك الهدف لأصبحت ارضنا سماء واصبح عالمنا جنة تحسدنا عليه حتى الملائكة .

الشباب الحائر

يقوم الكون بكل ما فيه ومن فيه . فما من كائن حي أو غير حي ، عاقل او غير عاقل ، منظور او غير منظور الا يؤدي قسطه من العمل في بناء ما يجب بناؤه ، وترميم ما يحتاج الى الترميم ، وهدم ما يستدعي الهدم في الهيكل العجيب الذي ندعوه العالم او المسكونة . ونحن لو شئنا أن نرقب الكائنات من حيث قيمتها او اهميتها في حياة الكون لما استطعنا الى ذلك سبيلاً . اذ ليس ما يكفل لنا ان ما نضعه اليوم في رأس القائمة لن يصبح غداً في اسفلها . ذلك لأننا نؤخذ بالمظاهر ، والمظاهر متقلبة ابداً .. فهي ابداً خداعة .. ومن ثم فنحن لا نستطيع أن نقيم لاي شيء وزناً في ذاته . وانما نحكم على الاشياء بنسبة ما تسببه لنا من نفع او ضرر ، ومن لذة أو الم . والنفع والضرر واللذة والألم امور نسبية ومرهونة بظروف الزمان والمكان . فما يبدو لنا ضرراً في هذه الآونة من الزمان وهذه النقطة من المكان ، قد ينقلب نفعاً في آونة أخرى ومكان آخر ، مثلما تنقلب اللذة ألما والألم لذة .

الا أننا ، وان تعذر علينا ترتيب الكائنات ترتيباً لا يتغير

ولا يتبدل من حيث قيمتها واهميتها في حياة الكون ، نرانا مكرهين بطبيعتنا على المقارنة والمفاضلة . فمرتبة الشمس عندنا غير مرتبة القمر، وأهمية البحر غير اهمية الساقية، وقيمة الانسان غير قيمة اليربوع .

وعلى هذا القياس نرانا نؤثر الطفولة على الكهولة والشيخوخة. ونؤثر الشباب على الطفولة والكهولة والشيخوخة معاً. وما ذاك لأن الشباب يغني عن الطفولة والكهولة والشيخوخة ، او يقوم مقامها .. ذلك قول يكذبه الواقع ويدحضه العقل والوجدان ، بل لأن الشباب يجمع بين الكثير من صفات الادوار الثلاثة . ففيه شيء من طهارة الطفولة دون استسلامها ، وشيء من صلابة الكهولة دون حذرها، وشيء من حكمة الشيخوخة دون عجزها.

*

والشباب ، الى ذلك ، سريع الانطباع ، سريع التأثر ، سريع الحركة . وهو مؤمن بقلبه ، وان كفر لسانه بكل ما في السماء والارض من أرباب . وهو طاهر بفكره ، وان تمرغ بجسده في حمأة من الموبقات . وهو بنّاء بخياله ، وان أمعنت يداه في الهدم . أما القوة الهائلة التي لا يملكها الا الشباب، فهي قوة الانطلاق او الاندفاع . فأكره ما يكرهه الشباب هو القعود أو الركود ثم السدود والحدود من أي نوع كانت . واحب ما

يحبه هو الاندفاع والاستطلاع وتحطيم السدود والقيود ، حتى لتكاد الحرية تكون معبوده الاوحد. وهو يعبدها آناً باسم خالق السماء والارض ، وآناً باسم معشوقة من لحم ودم، وآونة باسم الجمال، والحق والعدل، والمعرفة، والاخاء، والمساواة وما اليها.

لقد اقامت البشرية اهدافاً كثيرة لنفسها منذ أن استوطنت الارض حتى اليوم ، الا أن الهدف الذي كان له ابعد الاثر في حياتها ، وفي حياة الشباب على الاخص ، هو الحرية — ذلك الهدف الذي اريقت في سبيله انهار من الدماء الزكية وجلها من دماء الشباب . فما الاديان ، على كل ما فيها من تفاوت في الطقس والعقيدة ، غير وعود للانسان بالانعتاق من ربقة الارض وشهواتها ، ومن الموت ومخاوفه واوجاعه . والاديان قامت على اكتاف الشباب، وانتشرت في الارض بحرارة الشباب، واغتذت وارتوت بلحوم الشباب ودمائه . كذلك قل في المعرفة بكل اصولها وفروعها، فالشباب كان وما برح في طليعة المفتشين عنها، والعاملين على جمع شتاتها ، والسهر عليها من التلف والاندثار. وما ذاك الا لأن المعرفة هي الطريق المؤدي الى الحرية، والحرية هي الطريق المؤدي الى المعرفة . فحيث لا معرفة لا حرية ، وحيث لا حرية لا معرفة .

ذلك كان شأن الشباب حتى الحرب الأخيرة التي ودعناها فما

اطاقت عنا بعاداً.. وراحت تبذر بذورها في قلوبنا وافكارنا وأرواحنا . واذا بالارض بيت للمجانين، واذا بالناس قد اختلط حابلهم بنابلهم وانبروا ينبحون بعضهم على بعض ، ويكشرون بعضهم لبعض، وينهشون بعضهم بعضاً ، وينفثون في الجو سموم احقادهم ومطامعهم وشتائمهم ومثالبهم ، واكاذيبهم وترهاتهم . ثم يعملون الليل والنهار على محو آخر أثر للحرية وللمعرفة في حياتهم . ولا يخجلون من ان يجاهروا بأنهم يعملون ما يعملون « دفاعاً عن الحرية والمعرفة » !.. انها المأساة التي تتضاءل ازاءها الزلازل مهما بلغت فظاعتها ، والاوبئة مهما اشتد فتكها ، والمجاعات مهما تمادت شراستها .

*

في مثل هذا الجو المحموم والمسموم يعيش شباب اليوم ، فما يعلم ماذا يعمل وانّى يتجه . انه لفي حيرة ما بعدها حيرة، فمن ورائه حرب أثيرت باسم الحق والعدل والحرية ولكنها انتهت بأن اجهزت ، او كادت ، على الحرية والعدل والحق . ومن امامه شبح هائل يبعث الرعب في النفس ، ويخطف النور من العين ، ويخنق الايمان في القلب ، ويشل الفكر والخيال والعضل .. هو شبح الحرب العالمية الثالثة التي اصبحت طلائعها على الابواب ، والتي بوحيها يتكلم كل ذي سلطان في الأرض ،

وبوحيها تتحرك اقلام الصحافيين وألسنة المذيعين، وبوحيها تدور المعامل والمتاجر ، وتجري الأساطيل في البحر والجو ، ويساق الشباب رغم أنفه الى الثكنات العسكرية حيث يدرب على احدث اساليب التقتيل والتنكيل والتدمير ، وحيث تخدر احاسيسه الانسانية وتطلق من عقالها كل غرائزه الحيوانية، وحيث تكفن ميوله الطبيعية الى الحب والجمال والحرية بأكفان من البغضاء والشناعة والعبودية .

لهف قلبي على هـذا الشباب الحائر ما بين أمسه وغده .. والواقف كالمشدوه بين حرب دنست اقداسه ، وحولت اعراسه مآتم ، وحرب تنذر بأن تقتلعه بجذوره من تربة الحياة وان تصهره في اتونها الهائل فلا تبقي منه ومن آماله بالمستقبل وايمانه بجمال الحرية والمعرفة الا على الرماد .

لهف قلبي على هذا الشباب المتشوق الى الحياة ، المتوثب الى الحرية ، المتعطش الى المعرفة ، المتطلع الى الحق والعدل والجمال ، يكفر بالحياة والحرية والمعرفة وبالحق والعدل والجمال لأن الذين في ايديهم مقاليد حياته قد سدوا عليه جميع المنافذ الى مُثله العليا واعاضوه عنها مُثلاً زائفة . لقد اعاضوه عن الحياة موتاً ، وعن الحرية عبودية ، وعن المعرفة جهلاً ، وعن الحق باطلاً ، وعن العدل عسفاً ، وعن الجمال بشاعة . وذلك بقوة الدعاية التي بلغت

من الخبث والدهاء حداً لا يستحيل عليها معه مسخ جميع القيم الانسانية وتزييفها وجعل أسفلها اعلاها واكدرها اصفاها . حتى بات الشباب وهو لا يدري ماذا يصدق مما يسمع ويقرأ وماذا لا يصدق ، وبمن يثق من زعمائه وبمن لا يثق ، وبماذا يعلق آماله ، وعلى اي الاسس يشيد حياته .

وما قولك في بشرية شبابها في حيرة من امره ومن حياته؟.. انها لبشرية حائرة . وما هذه المخاوف التي تساورها فتدفعها الى الحرب دفعاً هو الجنون بعينه الا الدليل القاطع على حيرتها من أمرها ومن حياتها. ولو انها كانت على هدى، او شبه هدى، من هدفها لما تبلبلت افكارها واحاسيسها كل هذا التبلبل ، ولما انقسمت الى معسكرين يتراشقان السباب والشتائم ويتهم احدهما الآخر بأنه وحده المسؤول عن كل ما في الارض من بلبلة وقلق وخوف واندفاع في ركاب الحرب . ثم يدعي كل منهما انه وحده يناضل عن الحق والحرية ويبني مستقبلاً زاهراً للبشرية .

في هذه الغمرة من الفوضى المادية والروحية ، ومن القلق الفكري والقلبي ، ليس يليق بالشباب أن يقنع من حياته بالحيرة ، ولا ان يستعيض عن صوت الحياة في داخله بأصوات الدعاية الخبيثة الخداعة .. فالحيرة اذا طال مداها انقلبت شللاً ،

والدعايات اذا لاقت بذورها الخبيثة تربة في الفكر والقلب خنقت كل ما فيهما من بذور صالحة .

ألا فليعلن الشباب على رؤوس الاشهاد أنه يربأ بقلبه المحب ان تحوله الدعايات والمخرقات الى قاذورة من البغضاء ، ويربأ باشواقه السماوية الى الحرية ان تنقلب نيراناً جهنمية تلتهمه وتلتهم اخواناً له في الناسوت مـا عرفوه ولا آذوه ولا هو عرفهـم او آذاهم . ويربأ بفكره الذي هو دليله الى النور أن يصبح دليـلاً يقوده الى الظلمة . ويربأ بحياته ان يقدمها قرباناً لرصاصة يطلقها عليه ، او قنبلة يقذفه بها انسان مثله أكره على ذلك إكراهاً . فهو ما أعطي الحياة الا ليحياها ، والا ليفهم معناها فيبلغ بهـا في النهاية كل ما يشتاقه من خير ومن معرفة ومن حرية . وقطُّ ما اعطيها ليتخلى عنها لسواه يتصرف بها على هواه، وعلى الأخص في سبل حبلى بالاثم والشناعة والموت الزؤام .

اجـل .. انه لمن حق الشباب ان يعلن ارادته في الحياة . فهي ميراثه الاثمن والاقدس . وانه لمن الواجب عليه ان يخرج من الحيرة والتردد الى اليقين والانطلاق . وان لم يكن بد من الحرب فليشهرها حرباً ضروساً على الحرب ، وعلى كل ما يثقل خطاه ، ويشل عزيمته في اقتحام المجهول ، وتذليـل العَصي ، وتقريب القصي . فما من لذة تضاهي لذة الظفر بمعرفة ما كنت

تجهل ، ولا من غلبة توازي الغلبة على قوة كنت عبدها .

تلك هي رسالة الشباب في الأرض ، ولن يؤديها غيره .. وان هو أخفق في تأديتها فقل على البشرية السلام . ولكنه لن يخفق ما دام له ايمانه بنفسه وبالحرية وبحقه في الحياة .

•

ستستريحون يوم استريح !

على شاطىء البحر الذي لا يستريح ، جلس أربعة من الناس يستريحون في ظل صخرة سامقة كست الأمواج اسفلها بالطحلب ، ومدت أمامها بساطاً من الرمل الناعم البراق الشبيه بالتبر. وكان الأربعة عائلة مؤلفة من والد ووالدة في متوسط العمر ، وابن في الخامسة والعشرين ، وابنة في العشرين . وقد خرجوا منذ الصباح في سيارتهم الفخمة يبتغون تبديل الهواء والترويح عن النفس في طريق واسع جميل يرافق البحر مسافات بعيدة . وعندما بلغوا تلك النقطة من الطريق ارتأت الابنة - وكانت تقود السيارة - ان يتناولوا غداءهم في ظل تلك الصخرة . وما ان استقر بهم المقام ، حتى راحوا يخرجون من سلال وحقائب حملوها من السيارة أصنافاً من اللحوم الباردة والجبن والتوابل والفواكه والحلوى والمشروبات الساخنة والمثلجة ، فيوزعونها في صحاف و كؤوس ، ثم يرتبونها بمنتهى الاناقة على سماط من الورق الأبيض النقي ...

- عجلوا ، عجلوا ! أكاد أموت جوعاً ... بل أكاد آكل

الحجارة لفرط ما بي من قابلية ما أحسست مثلها قط في حياتي.

قالت الابنة ذلك وتناولت قطعة كبـــيرة من الروستو ووضعتها بين قطعتين من الخبز ، وراحت تلتهمها بنهم الذئب الذي يوشك الجوع ان يودي بحياته .

الوالدة : برافو !.. هي المرة الاولى اسمعـك تشكـين فيها فرط القابلية بدلاً من قلتها . كلي ... كلي يا حبيبتي ... ألف صحة وصحة .

الوالد : أرأيت يا ابنتي ما يفعله قليـل من الحركة في الهواء النقي ؟

الوالدة : بل قليل من صرف الفكر عن مخرقات ماركس وانجلس ولينين وستالين ومن لف لفهم ...

الابنة : امي ! رجوتك لا تنغصي عليّ غـدائي ... فسأبقى في وادٍ وتبقين في وادٍ .

الوالدة : اما انك نغصت على امك حياتها باعتناقك مبادىء الشيوعية الهدامة ، فما ذلك عندك بأمر ذي بال .

الابن : تعرفين يا امـاه انني اشتراكي لا شيوعي . وأنا ، مع ذلك ، انتفض اشمئزازاً كلما طرقت اذني هذه الأراجيف الصبيانيـة التي تنعت الشيوعية بالهدم دون البنـاء . لو كانت الشيوعية التي تمقتينها تهدم ولا تبني لآن لها ان تهدم نفسها . ولو

كانت الديموقراطية التي تدينين بها تبني ولا تهدم لما خشيت على نفسها من الشيوعية ، بل لما نبتت منها الشيوعية الهدامة . أفلا قلت لي ما الذي تهدمه الشيوعية وليس جديراً بالهدم ؟

الوالدة : انها تهدم الدين ، والدولة ، والعائلة ، والوطن ، والحرية ... فكأنها تقوض جميع الاسس التي يقوم عليها المجتمع البشري .

الابن : أما الدين فاذا كان مرده – كما تؤمنين – الى قوة منها كل شيء ، وفيها كل شيء ، واليها كل شيء ... فما اخال الشيوعية بقادرة على هدمه ، وان هي تمكنت من هدمه كانت أقوى منه ، وكان حرياً بالهدم .

الابنة : لا فض فوك يا أخي ... زدها من مثل هذا العيار .

الابن : وأما الدولة فالشيوعية لا تمحوها بل تثبتها على أسس جديدة هي أسس المنفعة العامة بدلاً من المنفعة الخاصة .

الوالدة : ولكنها دولة تديرها حفنة من الناس ، على عكس الدولة الديموقراطيــة التي تنشأ بارادة الكل وتدار بارادة الكل لمنفعة الكل .

الابنة : بارادة الأكثرية يا أمـاه ... ألا تقبلين مني هـذا التصحيح ؟

الوالدة : قبلت ... بارادة الاكثرية .

الابن : ومن هم الاكثرية في أية دولة من دول الارض؟ هم الفلاحون والعمال وذوو المهن الصغيرة الحقيرة ... أترضين أن تحكمك هذه الاكثرية ؟

الوالدة : معاذ الله... بل أفضل أقلية مستنيرة على أكثرية جاهلة .

الابن : وذلك ما تفعله الشيوعية بالتمام عندما تسلم مقاليدها لحفنة من الرجال الممتازين بدرايتهم وحنكتهم واخلاصهم وتفانيهم في سبيل المجموع . ان الجيوش لا تنظمها وتدربها وتسيرها غير اقلية ضئيلة من الضباط والقواد. منذ أقدم العصور والاقلية تحكم الاكثرية . وما الفرق بين حكم وحكم إلا في أقلية تحكم لمنفعتها واقلية تحكم لمنفعة الجميع . اما الانتخابات النيابية فليست سوى مخدرات للأكثرية وذر رماد في عيونها .

الابنة : عافاك يا أخي، عافاك... زدها من هذه البضاعة .

الوالدة : لا بل زيديني انت من بضاعتك عن العائلة والوطن والحرية الفردية .

الابنة : لا قيمة للفرد في ذاته... لانه لا يستطيع وحده ان يخلق شيئاً : لا لغة ، ولا فناً ، ولا صناعة ، ولا دولة ، ولا ديناً . ولا هو يستطيع ان يجدد ذاته... فقيمته اذ ذاك قيمة الصفر ، ولكن الصفر يصبح ذا قيمة عظيمة بين أرقام

كثيرة. واذ ذاك فأي بأس على الفرد اذا هو جعل حريته رهناً بحرية المجموع، فأضاع نفسه في المجموع ليجدها فيه؟ واذ ذاك فالعائلة الصغيرة يجب ان تذوب في العائلة الكبـــيرة التي هي الانسانية. والوطن الاصغر ينبغي ان ينصهر في الوطن الاكبر الذي هو الارض. وذلك ما تسعى اليه الشيوعية.

الوالدة: هذا كلام قد يقنع غيري من الامهات ... أما أنا فلن أتخلى لدولة أو غير دولة عن واجباتي كأم وعن عواطفي نحو ابني وابنتي وإن يكونا خصمين لي في العقيدة.

الابن: ما من خصومة بيننا يا امي... وكل ما في الامر انك تطلبين سعادتنا وراحتنا من باب، ونطلب سعادتك وراحتك من باب آخر.

الوالدة: بئست السعادة تُفرض عليّ فرضاً ... أنا سعيدة بما املك وبما اعتقد، وبدولة تتيح لي ان أملك ما أملك وان اعتقد ما اعتقد. خير لي ان أموت جوعاً من ان يملي عليّ احد من الناس افكاري واعمالي، ويحرمني الحق في ان املك ارضاً او بيتاً وان اتصرف بهما كيفما أشاء.

الابن: ليست الحرية يا امي سوى اسم «مبهم» لمسمى أشد ابهاماً. ألعلك امي وانا ابنك باختيارك واختياري؟ أم لعلك جئت هذا العالم وستمضين منه بمحض ارادتك؟

الابنة : بل هي الحرية ان يرث والدي عن والده أرضاً سباخاً تحتوي احشاؤها بحيرة من البترول فيصبح ذا ثروة طائلة من بعد ان كان عاملاً فقيراً ! ليست الارض وما على سطحها وفي جوفها ملكاً لأحد من الناس، بل هي ملك الناس اجمعين.

الابن : أُجاريك الى هذا الحد لا أبعد ... فالكنوز الدفينة في الارض يجب ان تكون ملك الدولة التي تمثل المجموع ومثلها وسائل الانتاج والنقل والتنوير والري وسائر المنافع العامة . فهذه حرام ان تبقى نهباً لجشع الافراد والشركات الاستثمارية . أما الملكيات المحدودة من دار وعقار ومنقولات فمن الخير ان تبقى . لأن في بقائها ضماناً لاستمرار الدولة الاشتراكية . اذ لا يصح ان نجرد الانسان من غرائزه الفردية لنخلق فيه غريزة اشتراكية . وغريزة التملك من أقوى الغرائز في الانسان، فلا يجوز ان نقضي عليها... بل الافضل ان نوجهها توجيهاً اشتراكياً . أما العقيدة الدينية فليس من السهل – بل ليس من المستحسن – استئصالها . ولكن من الضروري الحد من اذاها عندما تتصلب وتتعصب الى حد ان تهدد وحدة الدولة وسلامتها .

الوالدة : أراك أكثر تسامحاً من اختك ...

الابن : اما قلت لك انني اشتراكي ؟ والاشتراكية هي

الطريق الوسط ما بين الرأسمالية والشيوعية. اما اختي فشيوعية، ولكن بالقول لا بالفعل . ولو جاءها الآن زمرة من الرفاق الشيوعيين فاحتجزوا سيارتها باسم الدولة ثم استأثروا بهذا الزاد الطيب الذي امامها وعوضوها عنه رغيفاً يابساً وبصلة ...

الابنة : كفاك ... كفاك ! لقد بت اخشى اذا انت تاديت في حديثك على هذه الوتيرة ان تفسد في النهاية دفاعك الجميل في البداية . دعونا من الجدل، وهيا نأكل... فالجوع لا يرحم .

الوالد : أحسنت ، أحسنت ... الجوع لا يرحم .

الابنة : كدنا ننساك يا ابي ، ولكنك صبور وحليم ... أرجو ان لا يكون صدرك الرحب قد ضاق بثرثرتنا .

الوالد : ما ضاق يا ابنتي ، ولن يضيق باذن الله . فمن حسنات هذا الصدر انه يتسع لكل نزعة وبدعة . ما هي المرة الاولى تصطرع فيها المذاهب البشرية ، ويختلف الناس في تفسير القصد من وجودهم وفي تدبير شؤونهم على الارض. وحتى اليوم ما قدر لمذهب واحد ان يسود العالم . ذلك لأن في الانسانية حيوية غريبة تأبى الوقوف والجمود ، ولا تنفك تخلق الجديد من القديم طمعاً بالوصول الى الراحة التي تنشد . وكل جديد لا بد يمسي قديماً يوماً من الأيام . ومن ثم فلو صح ان مذهباً

واحداً يحمل الخلاص كل الخلاص للناس لما اقتبلته الجماهير بعين الحرارة والحماسة . لأن الجماهير بطيئة الفهم والحركة ، تثيرها الزعازع من حين الى حين ولكنها قلما تغير من جوهرها او تفلح في اطلاقها من حظائر تقاليدها الضيقة وأوهامها الموروثة وغرائزها الحيوانية . ان الجماهير كانت ، وما برحت ، مقابر للمذاهب .

الابنة : اذن انت ترحب بالشيوعية كمذهب جديد ...

الوالد : ارحب بكل مذهب يحمل الى الناس وعوداً بالخلاص من اعدائهم ... او تدرين من هم أعداء الناس ؟

الابنة : من ؟

الوالد : هم الجوع ، والبرد ، والفقر ، والجهل ، والذل ، والجور ، والوجع ، والموت وكل ما يمشي في ركاب هذه من خوف ، وجشع ، ورياء ، وحقد ، وبغض ، وفحش ، واثم مستور او مكشوف .

الابنة : أليس ان الشيوعية تعد باستئصال هذه الشرور كلها ، اما الديموقراطية فتحتضنها وتغذيها وتحنو عليها ؟

الوالد : لست من السذاجة يا ابنتي بحيث اؤمن بأن في استطاعة اي مذهب ان يبر بأكثر من جزء ضئيل جداً من وعوده ... ولا أنا أطلب من اي مذهب فوق ذلك . والذي

اخشاه على المذاهب ومنها هو ادعاء كل منها بانه وحـده يملك جميع مفاتيـح الخلاص . فهـذا الادعاء ينتهي حتماً الى حمى من التعصب والكره والغطرسـة . وتلك الحمى تنتهـي الى فقدان الوعي ، فالهذيان ، فالحرب . فتكون النتيجة ان الطبيب يقضي على عليله بالموت تحت ستار الدفاع عن صحته ورفاهيته . وهكذا المذاهب في تطاحنها تبلو الناس بالفناء والدمـار بحجة انها تقودهم الى البقاء والعمـار . ألا بئس الطب وبئس البقـاء والعمار !!

الابن : وهل يكون عمار بلا دمار ، أو حياة بلا موت ؟

الوالد : لا يا ابني ... ولكن بيتاً تبنيه بيدك ثم تهدمـه بيدك ، هو غير بيت تبنيه أنت فأهدمه انا... لا لغاية نبيلة بل لمجرد الانتقام والنكاية والتشفي. وذلك ما تفعله الحرب بالتمام. انها تميت وتهدم انتقاماً ونكاية وتشفياً ، لا حباً وتسامحاً وغـيرة . ولذلك كانت الحرب اكـبر بلايا الناس ، وكانت المذاهب التي تؤمن بالحرب وسيلة الى السلم والحرية والحياة، خناجر وحراباً في قلب السلم والحرية والحياة .

الابن : ولكنك لا تنكر يا أبي ان الحروب جاءت البشرية بالكثير من المنافع ...

الوالد : أجل ... ولكنها منافع غـير التي كانت البشرية

ترمي اليها من وراء حروبها. فالناس ما تعمدوا يوماً من الأيام بلوغ تلك المنافع بحروبهم . بل هي جاءتهم نتيجة عفوية لتفاعل قوى فوق قواهم . فلا يليق بنا ان ننسى – ونحن في حضرة هذا البحر – انه يتحرك ابداً بارادة غير ارادتنا . ومثله هذه الارض وما فيها وما عليها ، وهذه الشمس وكل ما خفي عنا وما بان لنا من الاكوان . فنحن ان نكن مخيرين في اليسير من امورنا فلا نزال مسيرين في الكثير. والقوى التي فوق قوانا هي التي تستخرج لنا الخير من شرورنا حفاظاً علينا من الاندثار. وهي تحافظ على بقائنا لغاية تعرفها ونجهلها . ونحن لن نصبح أسياد انفسنا واسياد الكون حتى نفهم تلك القوى ونماشيها بارادتنا لا قسراً عنا . والى ان يكون لنا ذلك يحسن بنا ان نقلل من غرورنا وغطرستنا ، وان نكتفي بما لدينا من خير ، وان نسعى بكل ما نملك من وسائل شريفة للحصول على خير اوفر وأعمّ حتى يكون لنا الخير الاكبر ... الا وهو خير المعرفة الكاملة التي بها – لا بغيرها – نصبح أسياد انفسنا واسياد المسكونة .

لنتمذهب يا ابني ... ولكن من غير ان نتحمّ. وللنناضل، ولكن من غير ان نغرق نحن ونغرق الذين نناضل من اجلهم في بحور من الدمع والدم . واذا كانت المعرفة لا تنال الا

بالدمع والدم فلنبذل لها بسخاء من دموعنا لا من دموع سوانا، ومن دمائنا لا من دماء الغير .

*

وطال بالاربعة المقام، وتمادى بهم الحديث . وكان البحر في كرّه وفرّه يخاطبهم بغير انقطاع فيقول لهم في جملة ما يقول : «ستستريحون يوم استريح»... ولكنهم ما كانوا يسمعون !

•

هجم الربيع

هجم الربيع !

بهاتين الكلمتين حياني امس احد الجيران . وكانت اجمل تحية . فقد حاصرنا الشتاء في هذه السنة حصاراً طويلاً قاسياً استنفد كل ما اختزناه من الوقود ، حتى اصبح الناس ، عند التلاقي ، لا يتساءلون عن الحال والعيال ، ويتساءلون عن الفحم والحطب : اباقٍ عندكم حطب؟ ايابس حطبكم ام اخضر ؟— لقد سئم الجميع روائح الفحم والدخان ، وسئموا حتى زغاريد النار في الحطب . وقد اشتاقت عضلاتهم الى الحركة والعمل ، وملت ابصارهم التطلع الى الجدران والسقوف ، وباتوا يتبرمون بالامطار والثلوج والعواصف تنقضّ عليهم من سماء غضبى لا يلطف من غضبها شعاع شمس او بسمة قمر او غمزة نجمة .

واخيراً اطلت الشمس علينا من فوق صنين لتتولى بذاتها قيادة الهجوم المبارك — هجوم الربيع . فكان البردُ اول ضحاياها . وجاء دور الثلج — حليف البرد الأعند والأشد . وها هو تنهار عزيمته ، وتتصدع صفوفه، ويثخن صدره بالجراح،

ويميع قلبه فينحـدر من الاعالي شلالات تدفع شلالات . وفي انحداره من الاعالي واندفاعـه نحو البحر يأتيك بالعجيب من الاغاني . فكأنه ، وهو الهارب من الميدان، يعدُّ الهرب ضرباً من البطولة فيسمعك من الاهازيج ما لا تمله اذنك ولا ترتوي منه روحك .

وبانهزام جحافل الثلج جحفلاً اثر جحفـل تنكشف عورة الجبال من حولنا ساعة تلو ساعة ويوماً بعد يوم . ففي جلابيبها البيض تبدو خروق لن تجد لها راتقاً . وهـذه الخروق تتسع وتتسع الى ان تتقلص الجلابيب في خلال شهور معـدودة فلا يبقى منها خيط او سريدة .

وبانهزام البرد والثلج تتنفس ارضنا الصعداء ويأخـذ وجهها الاجرد يكتسي بزغب من الخضرة الحيية . وهذه الخضرة الحيية لا تلبث ان تختضب بجميع الوان قوس السحاب عندما تنبري الازاهير من مخابئها وتنتـثر على ضفاف السواقي ، وفي الحقول والكروم والبساتين ، وعلى جوانب الطرق ، وحتى في شقوق الصخور . اما اتفق لك ان رأيت « بخور مريم » يرنو اليك بطرفه الناعس من شق صخرة ؟

واذ تتنفس ارضنا الصعـــداء يقبل عليها عشاقها بالمعول والمجرفة ، وبالرفش والمحراث. وهو ضرب من الغزَل والبوح

بالشوق ما اتقنه ولا فهم بعيد مغازيه ومراميه غير عشاق الارض. ويسكرك منظر السواعد المفتولة تقلب التراب رأساً على عقب. مثلما تسكرك رائحة التراب البكر يحملها النسيم مضمخة بانفاس الارض الحنون ومحبتها وجودهـا . وترى الناس ذكوراً واناثاً ، كباراً وصغاراً ، يكبون على التراب البكر ليودعوه بذار آمالهم بالموسم الآتي – بذار اللوبياء والبطاطا والبندورة والحمص وغيرهـا وغيرها من عشيرة البقول والحبوب . وترى الشمس تباركهم من فوق وتسكب عليهم فيضاً من النور والدفء والعافية .

انه لحديث يلذ ويطول – حديث الارض وعشاقها في استقبالهم لطلائع الربيع في الجبال . فما دامت الشمس تشرق سافرة وتغرب سافرة دمت ترى النـاس جماعات وفرادى يسبقونها الى حيث تدعوهم الارض ونبات الارض وقلما يأوون الى مساكنهم الا مع الغروب او بعـد الغروب . ومن كان منهم يملك حقولاً او جنائن او كروماً في الجرود – ولا اقول « الصرود » – تراهم يسبقون الفجر الى املاكهم وفي كتف كل منهم معوله وفي يده « زوادتـه » او منجله . والذين يترتب عليهم الحرث تراهم يسوقون امامهم ابقارهم وعلى اكتـافهم محاريثهم ، وفي آذانهم هدير الامواه المتسابقة الى البحر ، وفي

عيونهم بريق الهمة المكبوتة وقد افلتت من الكبت، وفي انوفهم عبير الارض وقد ارتفع عن صدرها كابوس الشتاء . لقد بات الناس ، كالنحل، لا يعرفون الهدوء في النهار ولا يستريحون الا في الليل : هذا ينكش ، وهذا يحرث ، وهذا يزرع ، وهذا يقلّم ، وذلك يرمم ، والآخر يقطع حجارة في المقلع . فما من عاطل عن العمل غير الرضّع والعجز والمقعدين . اما الاحداث في سن الدراسة فتحس ، اذ تراهم يسيرون الى المدرسة ، ان المدرسة اصبحت في انظارهم سجناً ، وافظع من سجن ، وان الاودية والجبال تدعوهم اليها باصوات ابن من عذوبتها دندنة جرس المدرسة اللعين .

حقاً ان نداء الجبال في مثل هذه الايام لا يعاند . فما استطعت اليوم الا تلبيته والامتثال له . ولا دريت اية قوة انتشلتني من بين كتبي واوراقي وحملتني شرقاً – وصعوداً – نحو صنين .

ما هي الا دقائق حتى وجدتني واقفاً امام نجاصة برية (أأقول « كمثرى » برية ؟) على جانب الطريق اتأمل اغصانها المهشمة وقد اخذت ثغورها تفتر عما يشبه الزمرد . ومن فوق الزمرد قد بدت حبيبات بيض هي براعم الزهر ، توشك ان تتفتح عن بهجة بيضاء معطرة من قماقم الآلهة . اية فتنة هي

خضرة الربيع عند بزوغها من اخدارها الشتوية ! ومن ذا يستطيع وصفها في الاعشاب وفي اوراق الاشجار بانواعها – في الحور والدلب والصفصاف والبلوط والزيزفون والتين والكرز والخوخ والتفاح ، وغيرها من النباتات الكبيرة والصغيرة ؟

السلام عليك ايتها النجاصة البرية ، وليغفر الله للذين هشموا اغصانك عبثهم وطيشهم . ففي كل عام امرّ بك لأتلقى منك بشارة الربيع ايام لا خضرة على شجرة ، ولا زهرة على فنن ، بعد . وحسبي منك تلك البشارة تنتشي بها الروح ويصفق لها القلب .

واتوقف قليلاً على كتف الوادي لعل عينيّ تشبعان من منظر جداره المقابل لي والمرتفع مئات الاقدام عن القعر وقد بدت فيه رفاريف ضيقة اكتست كلها بالخضرة الطريئة . ولكن عينيّ النهمتين لا تشبعان من التطلع الى الصخور الشاهقة وقد خلع عليها الربيع جبة من الجمال والجلال لا توصف ولا تصور . فأسلخها عن وجه تلك الصخور سلخاً وامضي اتوقل اعلى فأعلى .

ها هي الساقية التي احبها كثيراً والتي وعدتني من قبل ، وتعدني اليوم ، انها ستولم لي بعد شهر وبعض الشهر—في اوائل ايار—وليمة لا مثيل لها من عطر الزيزفون والنسرين والوزال .

وما نكثت مرة بوعد أو بعهد. وها هي تلك المرجة التي ستفرش لي عما قليل بساطاً من الاقحوان وشقائق النعمان . انها تبدو اليوم كما لو كانت في غفلة ولا غفلة اهل الكهف ، ولكنني اعلم حق العلم وقد هجم الربيع، انها ليست في غفلة ، وانها ، حتى في هذه الساعة ، آخذة في حياكة بساطها البديع على منوال الشمس السحري وفي معمل الارض العجيب .

مرحى مرحى ! فهذه سنونوة تنزلق بجناحيها السريعين على صفحات الفضاء من فوق رأسي . وفي انزلاقها رشاقة وخفة ولباقة ونشوة تجعلني اتمنى لو كان لي مثل جناحيها . ومن ثم فهي تغني ! وماذا عساها تغني وهي اولى بنات جنسها التي تلطفت بزيارة جبالنا منذ شهور وشهور ؟ انها بالاكيد تغني : لقد هجم الربيع ! وانها لتبشرني بان قوافل المغنين من الطير قادمة الينا من الجنوب لتنضم الى الجوقة التي تلازم هذه الجبال صيف شتاء . كالحسون و « النقار » وابي الحناء (بو الحن) وتلك الشادية العبقرية التي لولا حنجرة لها تفوق حناجر العنادل قوة وعذوبة لحسبتها فراشة قبل ان تحسبها عصفورة . ذلك لضآلة حجمها بين العصافير . اما اسمها – ويا خجلي من اسمها – فهو في لغتنا الجبلية « دعويقة » !

ومرحى ثم مرحى ! فتلك الشوحة ورفيقها المدوّمان في

الجو – هناك، هناك – فوق تلك الصخرة المارده حيث يعتزمان ان يبنيا لهما عشاً يتعذر الوصول اليه الا على الريح وعليهما، هما كذلك من جنود الطليعة في هجوم الربيع ! وقدومهما شهادة لنا بان الربيع لن يتوقف في زحفه ، وحاشا ان يعود القهقرى .

ومرحى ثم مرحى لتلك الجوقة التي ايقظها الربيع من سباتها العميق فراحت تبثه شكرانها نقيقاً صاخباً ، مزعجاً. ولكنه لا يزعجني اليوم لانني اسمع فيه لحناً من ألحان الربيع. حتى الضفادع تغدو كائنات محببة الى القلب والاذن عندما تحمل اليهما بشائر الانعتاق من سجن الشتاء .

ويطول بي دربي ويستبق خيالي الواقع ، فابصر جحافل الربيع تزحف وتزحف حتى تدرك القمة . ولن تدركها قبل اواخر حزيران ، وقبل ان تكسو السفوح والحقول والكروم والبساتين والاحراج بالاخضر والاحمر ، وبالاصفر وبالابيض وبالبنفسجي والبرتقالي، وسائر الالوان التي تنهل منها العين ولا ترتوي. اما العطور والاغاريد فيترنح منها حتى الهواء، ويسكر بها الذين يشمون بقلوبهم ويسمعون بارواحهم . اذ ذاك يبلغ ربيعنا اشده ، ويبلغ زحفه الظافر الذروة ، فيتنازل للصيف عن القيادة ، وينام على غاره حتى تدور الارض دورة جديدة .

وتقترب الشمس من البحر . فاعود ادراجي وفي النفس جوع الى المزيد من بواكير الربيع ومباهجه . فاقول لها : أما عرفتِ بعد ان الربيع ليس للشبع ؟ فيكفيك منه نغمة وشمة وضمة وذكرى، ثم يكفيك ان يقول لك الناس وان تقولي للناس :

لقد هجم الربيع !

ه

الادب والدولة

ليس من ينكر انّ للأدب أبعد الأثر في تكوين الأمم ، وتوجيه مجاري حياتها . إلا انه من الصعب ، بل من المستحيل، تحديد ذلك الاثر وتقدير قيمته ومداه . ذلك لأنه لا ينحصر في ناحية دون اخرى من نواحي الحياة البشرية . فهو في العقل وفي القلب ، في الروح والجسد ، في الحقل والمعمل ، في السجن والمدرسة، في دواوين الحكم وفي المعابد، في المناجم والمصانع، في المساكن والمتاجر ، في المتاحف والمكاتب ، في ساحات الوغى ودور الملاهي ، وفي كل ما يتصل بالانسان من قريب او من بعيد .

هذا كلام لا مجاز فيه ولا مغالاة ، بل هو دون الحقيقة بكثير، واضيق من ان يتسع لكل وجوهها. وها هم الكتّاب والنقّاد والمؤرخون ما ينفكون يبحثون تأثير هذا الكاتب او ذاك في حياة تلك الامة او هاتيك بل في حياة الانسانية بأسرها، وبالاخص في الانقلابات الكبرى التي شهدتها البشرية على مر العصور ، وأقربها الينا الثورة الفرنسية والاميركية والروسية .

فهل من يجهل ان موليير وفولتير وروسو وهيغو وبلزاك كانوا ملوكاً بغير عروش وكانوا أبعد أثراً في تاريخ بلادهم وتاريخ العالم من الجالسين على العروش في أيامهم ؟ وان بوشكين وتولستوي وتورغينيف ودوستويفسكي وغوركي كانوا أباطرة غير متوجين واعظم سلطاناً من أباطرة الروس الذين عاصروهم؟ وان غيتي وشيلّر ونيتشه وماركس كانت – وما تزال – لهم مملكة اين منها مملكة فردريك الكبير وغليوم الثاني ؟

ونحن لو جئنا نحلل حياتنا في هذا الشرق العربي لما استطعنا الوصول الى جذورها السحيقة ولما عرفنا الى ايّ حدّ نحن مدينون اليوم بتفكيرنا الروحي والاجتماعي والسياسي، وبنظمنا وتقاليدنا ، لادب الجاهلية ولآداب العصور التي تلت الجاهلية ، ثم لآداب باقي الامم من شرقية وغربية ، ثم للرسالات الدينية التي قامت بين ظهرانينا وانتشرت على ألسنة أسلافنا وأقلامهم وانطلقت الى العالم من تحت سمواتنا . وها هما دولة المتنبي ودولة ابي العلاء ما تبرحان قائمتين في قلوبنا وأفكارنا وقد مرّ على تأسيسهما اكثر من الف عام في حين ان دولة بني حمدان ودولة بني بويه أصبحتا من زمان خبراً من الاخبار .

وقصارى القول إن للأدب دولة لا تدول وسلطاناً لا يحول. فما هي العلائق التي يحسن ان تقوم بينه وبين الدولة بمعناها

المألوف من حيث هي هيئة منظمة وجدت لتأمين النـاس على أرواحهم واجسادهم ، وتسهيل سبل العيش لهم ، والسير بهم من الضنك الى الفرج ، ومن القلة الى البحبوحة ، ومن المرض الى العافية ، ومن الجهل الى المعرفة، ومن الضعف الى القوّة، ومن التفسّخ الى الاتحاد ، ومن الفوضى الى الاستقرار ؟

تلك هي الغاية المفروضة للدولة. ولولاها لما كان من مسوّغ لوجودها. ولهذه الغاية يتحمل الناس في سبيل الدولة ما يتحملون من حدّ لحرياتهم ؛ فيلقون بمقاليدهم اليها تتصرف بها حسبما تمليـه حكمتها . فتشرف على مقدراتهم ، وتنظم مرافق حياتهم ، وتفرض عليهم المكوس والضرائب ، وتسنّ لهم القوانين، وتقيم لهم شتى الدوائر والمحاكم . فوزارة للزراعة ، ووزارة للصحة ، ووزارة للتجارة والصناعة ، ووزارة للتربية ، ووزارة للحربية ، الى ما هنالك من وزارات تتعدد بتعدد مرافق الحياة وأهميتها. ولكنني ما سمعت ولا قرأت حتى اليوم عن دولة أقامت وزارة للادب . ولا عبرة بوزارات خلقتهـا اكثر الدول باسم الفنون الجميلة او باسم الدعاية والنشر . فوزارة الفنون الجميلة تحصر جلّ همّها في المتاحف والآثار ، ووزارة الدعاية والنشر في بث الدعاية للدولة وسياستها ونشر ما يوافق غاياتهـا ، ومحاربة ما يخالفها . أما الادب الصحيح الذي هو اعظم وأنجع دعايةٍ للدولة

التي تُنبته فحبله على غاربه ، يشقى ويسعد ، ويكبو وينهض ، ويتقلص ويمتد ، ويجوع ويشبع في معزل عن الدولة ، كأنه ليس منها بخلّ او بخمر، او كأنه لقيط لا ينتسب الى حيّ من الاحياء او ميت من الاموات . ولكنه ما ان ينجب اديباً متفوّقاً يتألق نوره ، ويسطو على الافكار قلمه ، ويغزو آلاف آلاف القلوب بيانه ، ثم يبتلعه اللحد ، حتى تستيقظ الدولة من سباتها ويروح رجالها يتنافسون في تمجيد ذلك الاديب ، وتروح مدنها تتسابق في إقامة الأنصاب له و « تشريفه » بتسمية شارع من شوارعها او ساحة من ساحاتها باسمه .

أيكون ذلك من سوء طالع الادب ؟ — لا وربّ الادب! بل هو من حسن طالع الادب ان يحيا بحيوية فيه لا في الدولة، وان يشقّ طريقه بساعديه لا بسيف ملك او بسلطان برلمان ، وان يمشي في طريقه مرفوع الرأس عزيز الجبين من غير ان يتوكأ على عصاً غير عصاه ، ويستنير بنور غير نوره ، ويستلهم إرادة غير إرادته .

هنالك أدباء ينعون على الدولة إهمالها للادب . فهم يريدون منها ان « تشجّعهم » بابتياع قسم من نتاج اقلامهم ، أو باسناد وظيفة اليهم ، او بتسخير أبواق الدولة للاشادة بمواهبهم . لقد ساء ما يبتغون . فهم من حيث لا يعلمون يبتغون لاقلامهم

الرقّ، ولافكارهم الانغلاق، ولمواهبهم الموت. فالدولة ما عَدت كونها هيئة مؤلفة من رجال ذوي أغراض وذوي مطامع. حتى ولو تنزه كل رجال الدولة عن الاغراض والمطامع الشخصية بقيت للدولة اغراضها ومطامعها. ومن حقّها اذا ما انفقت من خزينتها ان تطلب ممن تنفق عليهم ان يخدموا اغراضها ومطامعها. وإذ ذاك فحرية الاديب في ادبه وَهْم من الاوهام وخرافة من الخرافات. والاديب الذي يبيع إلهامه بمال، وإن يكن من خزينة دولته، رحمة الله عليه من الآن والى الابد.

انه لمن الخير للادب ان يبقى طليقاً من شِباك الدولة وبعيداً عن الاهواء التي تعصف بسياستها وبرجالها من حين الى حين. فلا يكون جزءاً من جهاز الحكم، او مطية مقودها في يد الحكام. ولا ينسى انه كتلة حية في جسد الامة الحي! وان الامة، مهما يكن شأنها بين باقي الامم، عضو من الاعضاء الكثيرة التي يتكوّن منها ويقوم بها الجسد الاكبر — واعني الانسانية. فالحكام يأتون سراعاً ويمضون سراعاً، والدول تولد وتشب وتشيب وتموت. اما الشعوب فتبقى. واما الانسانية فلا تموت. فالادب الذي يقيم لنفسه وزناً ويعرف لذاته قيمة يجب ان يصرف همّه الى الانسان قبل حكامه، والى الامة قبل الدولة. فلا يعير الحكام والدولة انتباهاً الا على قدر ما ينحرفون

بالانسان عن طريقه القويم او لا ينحرفون .

وانه لمن الخير للدولة ان تعيش والادب في سلام تام. واعني ان تطلق له الحرية فلا تحاول تقييده في ما يفكّر ويشعر وكيف يليق به ان يُفصح عن افكاره ومشاعره حتى ولو كان في تفكيره وشعوره وبيانه ما ينافي مصلحة الدولة كما يفهمها رجال الحكم ؛ وحتى لو كان يدعو الى تقويض اركان الدولة . فالدولة الواثقة من اهدافها ومن نياتها ومن الوسائل التي تلجأ اليها لبلوغ تلك الاهداف وتحقيق تلك النيات لا خوف عليها من الادب . بل من الارجح ان تجد لها في الادب اقوى معين وأخلص نصير . والدولة التي أهدافها مزيفة ، ونياتها فاسدة ، ووسائلها مشبوهة يستحيل بقاؤها زماناً طويلاً وان هي سدّت على الادب جميع المسالك ، فحطمت الاقلام ، وعقلت الالسن ، وكمّت الافواه. فالسوس الذي ينخر لبابها سيقضي عليها عاجلاً ام آجلاً . وفي الأغلب عاجلاً .

إلاّ انه ليس يكفي الدولة ان تعيش والادب في سلام . بل هنالك واجبات معنوية ومادية تترتب على الدولة نحو الادب مثلما تترتب عليها واجبات معنوية ومادية نحو الامة . فما دام للادب تأثيره البالغ في حياة الامة ودامت الغاية من وجود الدولة تنمية الامة وتوفير اسباب الرزق والراحة والسعادة لها ، فبأيّ

منطق تهتمّ الدولة بتحسين المواصلات ، وتعميم العلم ، وتقوية الصناعات، وتكثير المنتجات، وتوفير الريّ والبذار للمزارعين، والمحروقات للسواقين ، والحبر والورق للصحفيين ، ولا تهتم بالادب وهو الطريق الاقوم والابقى بين ارواح الناس وقلوبهم وأفكارهم، والمدرسة الاوسع والاعمّ لصغار الامة وكبارها ، والبذار الذي يستغله الناس في كل ساعة، وكل شهر، وكل عام؟ بأي منطق تعمل الدولة على زيادة ثروة الامة المادية بزيادة ما تنتجه وتصدره من الصوف والنعل والبصل ولا تعمل على زيادة ثروتها المعنوية والمادّية معاً بزيادة ما تنتجه وتصدره اقلام كتّابها؟

ولا يخطرنّ ببال انني ادعو الدولة الى الاتجار بالادب . معاذ الله . ولكنني ادعو الدولة الى تفهم حقيقة بسيطة جداً . وهي ان الادب روح وجسد. اما الروح ففكر وشعور وذوق وفنّ واشواق واحلام. واما الجسد فغلاف وورق وحبر وطباعة وتجليد . وهذه كلها امور مادية ليس في قدرة الكاتب خلقها حين يشاء او ابتياعها بالثمن الذي يشاء. في حين ان الدولة تملك القدرة على خلقها او في الاقل على ابتياعها من اسواقها مثلما تملك القدرة على ابتياع الزفت لتعبيد الطرق، والسماد لامداد الأرض بالغذاء الذي تحتاج اليه كي لا يحلّ بها العقم والبوار. فعلامَ لا تهتم الدولة بتوفير المواد الضرورية لكيان الادب وتهتم بتوفير

الزفت للطرق والسماد للارض؟ اتكون قرائح الامة ومواهبها الروحية والفنية اقل قيمة في نظر الدولة من الزفت واحطّ قدراً من السماد؟ واذن فايّ مبرر لوجود الامة ووجود الدولة التي تسوسها ؟

اقول ذلك وتجارب السنين الاخيرة ما تزال ماثلة لذهني ولعينيّ ايام راحت الحرب تنهب خيرات الارض وتنكب سكان المعمورة بالقلة من كل شيء الاّ البغض والحقد، والا وسائل القتل والدمار ، مما حمل جميع الدول على تقنين المواد الاولية التي لا تستقيم حياة الناس في هذه الايام بدونها . ومنها الورق الذي هو المادة الاولى في حياة اي كتاب وبالتالي في حياة الأدب .

لقد حرصت الدول غنيّها وفقيرها ، كبيرها وصغيرها، ان توفر الورق ابان الحرب لكل ما من شأنه ان يساعد مجهودها الحربي . ونحن في هذا الشرق ما نسينا النشرات الانيقة التي كانت توزعها علينا بعض الدول بالمجان وتلك التي كست بها جدران عواصمنا وجوانب طرقاتنا . اما دويلاتنا الشرقية فكانت تتناول نصيبها الضئيل من الورق من حليفاتها الكبار فتوزعه بالتقتير على الصحافة . ذلك لأن الصحافة ، على اهمية شأنها، كانت في نظر حليفاتنا الكبار باباً من ابواب الدعاية لهن.

وهي في نظر حكوماتنا بوق لا بد منه لتسيير امور الدولة . فهي جديرة باهتمام الدولة وان سفلت اغراض الكثير منها واقحلت قرائحه فكان بالموت اولى منه بالحياة .

اما الادب فكان عليه ان ينظر الى كل ذلك متلمظاً بريقه ، وان يقبع طوال سني الحرب في رؤوس الادباء وقلوبهم من غير ان يتاح له الخروج الى عالم الله الفسيح . إلاّ ادب الثروة والبهرجة والاناقة ، وما اندره بين الادباء ! فما من دولة من دول الشرق تعطفت على الادب بحصة ، ولو ضئيلة ، من الورق او حاولت ان تحميه من جور « السوق السوداء » التي لا طاقة له على اقتحامها . فكأنه غريب عن الامة وحياتها ، او كأنه نبتة طفيلية في جسدها .

واني لأسأل نفسي وأسألكم : ما قيمة امةٍ بغير ادبائها ؟ وما قيمة دولة لا تعرف لأدب الامة قيمة فتوفر له المواد الضرورية لوجوده ؟

أم الحياة

وأعني بها المرأة . فقد ورد في سفر التكوين أنّ آدم سمّى امرأته حواء « لانها امّ كلّ حي » .

إنها لمغامرة منّي أن أخوض بكم موضوعاً لاكته الالسن من كل جانب وقلّبته الاقلام على الف وجه ووجه منذ ان تعلّم الانسان النطق ومنذ ان جرى له قلم بمداد . حتى ليتبادر الى الذهن انّ كل جديدٍ يقال في الموضوع لا يمكن ان يكون اكثر من ترجيع أصداء او اجترار أفكار . الا انني ما كنت أقدم على مثل هذه المغامرة لو اتفق لي ان وقعت في كل ما سمعته وقرأته عن المرأة على ما ينقع غلّة قلبي ويكبح لجاجة فكري .

وماذا سمعت وقرأت حتى اليوم عن المرأة ؟

سمعت مَن يقول إنها مخلوق لا شأن له في ذاته . ولا غاية من وجوده الاّ ان يكون عوناً لمخلوقٍ آخر على بلوغ غايته من وجوده . وذلك المخلوق الآخر هو الرجل . فالرجل هو الاصل والمرأة الفرع . هو المبتدأ وهي الخبر . هو الزيت والنور وهي الاناء او المصباح .

وسمعت من يقول إن المرأة براء من روح الله . لانها ما تقبلت نسمة الحياة من فم الخالق وصدره مثلما تقبلها آدم . بل استُلّت ضلعاً من اضلاع آدم وسُوّيت امرأة . فقيمتها في ميزان الوجود دون قيمة الرجل ، وأجرها دون أجره بكثير.

وسمعت من يقول إن المرأة حليفة الشيطان وقد تآمرت واياه على الرجل فحملته على عصيان ربّه وبذلك سببت له خسارة الغبطة الفردوسية وأوقعته في حبائل الخير والشر واشداق الموت .

والذين يقولون هذه الاقوال يستندون في الغالب الى ما ورد في التوراة عن تكوين آدم وحوّاء . ولكنهم يتقيدون بالحرف فيفوتهم الروح . والحرف بغير الروح جيفة لا حياة فيها ولا حركة ، ولا وزن لها ولا قيمة . فالتوراة بعهديها القديم والجديد هي في اعتقادي الكتاب الفريد الذي يصوّر حياة الانسان تصويراً هو الغاية في الصدق والدقّة والابداع . فمن قول موسى في اول سفر التكوين: « في البدء خلق الله السموات والارض » الى قول الرسول يوحنا في آخر سفر الرؤيا : « نعمة ربنا يسوع المسيح معكم اجمعين . آمين » – من فاتحة العهد القديم حتى خاتمة العهد الجديد – تمدّ ابديات من الغفلة الهائمة التي لا تعرف شيئاً فلا تقدر على شيء . تتلوها ابديات من اليقظة التي تدفع ثمن المعرفة والمقدرة بحوراً من الدمع والدم، ودهوراً

من الحزن والألم ، لتنتهي جميعها في ذلك الانعتاق الابدي الذي أعلن من اعالي الصليب: «ابتاه في يديك استودع روحي.»

وكتابٌ يصور لكم حياة الانسان في بدايتها ونهايتها ، ومدّها وجزرها ، واسافلها واعاليها ، وظواهرها وبواطنها ، وأرجاسها وأقداسها ، لكتابٌ يستحيل ان تدلّ حروفه على معانيه الا ّكما يدلّ الرمز على المرموز اليه. فالمعاني كلّما اتسعت ضاقت بها الحروف . كالارواح كلما سمت ناءت بأغراضها الاجساد .

لذلك كان حظ المرأة بين رجال يعبدون الحرف دون الروح ، والرمز دون المرموز اليه ، حظاً سواده اكثر من بياضه ، وباطله اضعاف حقّه ، وظلمه أضعاف أضعاف عدله . ولكنني استدرك فأقول إن حظ الرجل المقيّد بالحرف دون المعنى وبالرمز دون المرموز اليه ما كان يوماً من الايّام خيراً من حظ المرأة . ومتى كان حظ الظالم من دنياه أفضل من حظ مظلومه ؟ او كان نصيب الجاهل من تماديه في جهله غير الجهل وما يحبل به الجهل من عذاب وعناء وشقاء ؟

ويدور الزمان فاذا بنا في عصر يقول بالمساواة التامة بين الرجل والمرأة — لها ما له وعليها ما عليه في ادارة شؤون العائلة وشؤون الدولة . وتبتهج المرأة بهذه المساواة تنتزعها من الرجل

انتزاعاً . ويخيّل اليها ان الحياة توشك ان تلقي اليهـا بمفاتيح السعادة الابدية . لقد رضيت بالقشور وفاتها اللباب .

امّا اللباب الذي ما ادركته المرأة بعد ولا ادركه الرجل فهو ان الانسان بشطريه المـذكر والمؤنث مطالَب باكثر من تجديد النسل ، ومن تعمير البيوت والمدن والممـالك ، ومن استثمار الأرض وخيراتها. وهنا اعود بكم الى سفر التكوين حيث يقول : « وقال الله لنصنع الانسان على صورتنا كمثالنا ... فخلق الله الانسان على صورته... ذكراً وانثى خلقهم. » واذن فالانسان الذي هو الرجل والمرأة معاً مطالَب بتحقيق صورة الله فيه. وصورة الله تعني معرفة كل شيء والقدرة على كل شيء.

لقد كان آدم قبل ان تكون له حواء في حالة من غبطة الغيبوبة التي تشبه غيبوبة الطفولة . فلا فكر ولا قـدرة ولا ارادة . وكانت شجرة الخير والشر وشجرة الحياة في متناول يديه فمـا مد اليهما يداً . امّا من بعد ان ازدوج فقد كان اوّلَ ما تنبه فيه الشوق الى المعرفة. والمعرفة لا تكون إلاّ بالمقارنة. والمقارنة لا تكون إلاّ بين أمرين غير متشابهين .

لقد انقسم آدم على ذاته ليعرف ذاته . فطريق الخير والشر هو الطريق الاوحد الى المعرفة. واي معرفة؟ – معرفة الحياة . ولعلكم تدركون هنا عظمة سفر التكوين اذ جعل الانسان يبدأ

حياته بتذوق ثمار شجرة الخير والشرّ دون شجرة الحياة. لانه لو تذوّق ثمر شجرة الحياة قبل ان يتذوّق الخير والشر لما عرف للحياة طعماً على الاطلاق . ولكنه من بعد ان اختار طريق الاختبار الذاتي – طريق الخير والشر – سيصبح في إمكانـه ، اذا هو سلكه حتى النهاية، ان يتذوق طعم الحياة التي لا تموت. وشجرة الحياة ما تزال في انتظاره عند نهاية مطافه في دنيا الخير والشرّ.

من كان في حاجة الى برهان على ان طريق الازدواج هو طريق المعرفة وطريق الحياة فلينظر الى جسده لا أبعد . فنحن لا نمشي برجل واحدة بل برجلين ، ولا نعمل بيـد واحدة بل بيدين اثنتين . وكذلك نبصر بعينين ، ونسمع بأذنين ، ونشم بمنخرين، ونتكلم بشفتين، وكلّ ما ازدوج فينا انما ازدوج بقصد التعاون لا التنابذ ، وقصد الوصول بنا الى غاية موحّدة لا الى غايات متشعبة متناقضة .

كذلك ازدوج الانسان ليتمكن من سلوك طريق المعرفة. ولو انه بقي فرداً ولا شبيه له من جنسه ، كما كان آدم قبل ان تكون له حواء ، لبقي الى الأبد عقيمـاً من الفكر والارادة والمعرفة ، وبقيت مواهبه الغزيرة دفينة فيه نظير ما تبقى قوة الحياة دفينة في بذرة حُجبت عن التراب والماء ونور الشمس . لولا حوّاء لما تنبه آدم الى الحياة والمعرفة . وحسبها شرفاً

وعزّاً وكرامةً ان تكون امّ الحياة وامّ المعرفة معاً . امّـا ان يقال فيها إنها الواسطة لتجديد النسل ، وإنها ربّـة البيت ومربّية الأجيال ، وإنها فتنة العيون والقلوب ، وملهمة الشعراء والفنانين ؛ وإنها جديرة بالجلوس في دسوت الحكم ، وبتصريف شؤون العالم الاقتصادية والسياسية — فليس في ذلك كلّـه ما يزيد في قامتها قيراطاً وفي قيمتها مثقال ذرّة . تلك ظلال لا انوار ، وشروح لا متون ، وقشور لا لباب .

انّما المهم ان يدرك الرجل والمرأة انهما ما ازدوجا في طريق الخير والشرّ إلا ليتوحّدا في نهاية ذلك الطريق عند شجرة الحياة . فهما يوم يدركان ذلك تهون عليهما امجاد العالم وحظوظه، وواجبات العيش وحقوقه ، ويعملان يداً واحدةً وقلباً واحداً وفكراً واحداً على الافلات من حبائل الخير والشرّ . واذ ذاك فلا سابق ولا مسبوق ، ولا سيّد ولا مسود ، ولا جنس خشن وجنس لطيف . بل هنالك نسر جبّار بجناحين متساويين عزماً ومدًى وجمالاً ، يشق أجواء الوجود الى حيث المعرفة والقدرة والحرية . فصورة الله لن تُمسخ شيطاناً ، وامّ الحياة لن تغدو ام الموت .

غاندي ــ ضمير الشرق المستيقظ

منذ ألفٍ وتسعمئةٍ وعشرين سنة وقف يسوع الناصري على جبلٍ من جبال الجليل مخاطباً تلاميذه والجماهير المحتشدة حواليه فقال في جملة ما قال :

«قد سمعتم أنه قيل للأولين : لا تقتل . فان مَن قتلَ يستوجب الدينونة . أمّا أنا فأقول لكم : إنّ كلّ من غضب على أخيه يستوجب الدينونة ...

«قد سمعتم أنه قيل : العين بالعين والسنّ بالسنّ . أمّا أنا فأقول لكم : لا تقاوموا الشرّير . بل من لطمك على خدّك الأيمن فحوّل له الآخر . ومن أراد ان يخاصمك ويأخذ ثوبك فخلّ له رداءك أيضاً . ومَن سخّرك ميلاً فامشِ معه اثنين ...

«قد سمعتم أنه قيل : أحبب قريبك وأبغض عدوّك . أما أنا فأقول لكم : أحبّوا أعداءكم . وأحسنوا الى مبغضيكم . وصلّوا لأجل مَن يُعنتكم ويضطهدكم لتكونوا بني أبيكم الذي في السماوات . لأنه يطلع شمسه على الأشرار والصالحين ويمطر على الابرار والظالمين ...

« لا تدينوا لئلا تدانوا. لأنكم بالكيل الذي به تكيلون يكال لكم . مـا بالك تنظر القذى الذي في عين أخيـك ولا تفطن للخشبة التي في عينك ؟ يا مرائي ، أخرج اولاً الخشبة من عينك وحينئذٍ تنظر كيف تخرج القذى من عين اخيك ... »

ومنذ ثلاث وستين سنة قرأ موعظة المسيح على الجبل شابٌّ هنديٌّ كان يدرس الحقوق في لـندن وكان اسمه موهانداس كارماشند غانـدي وله من العمر عشرون عاماً . فكانت تلك الموعظة نقطة تحوّل عجيب في مجاري فكره وحياته . إذ هدته الى كنوز الحكمـــة الشاملة التي اختزنتها بـلاده في أسفار « الأوبانيشاد » قبـل ان يولد المسيح وقبل ان يكلّم الله موسى على طورسينا بأجيال واجيال .

و« الأوبانيشاد » ـ مهما تضاربت الآراء في تاريخها ـ أقدم من أسفار موسى بغير شك. أمّا خلاصة فلسفتها فيحتويها كتيّب يُعرف باسم بهاجفـاد جيتا (Bhagavad Gita) ومنزلته عنـــد الهندوس كمنزلة الانجيل عند المسيحيين والقرآن عند المسلمين .

لقد كان الانجيل مفتاح الـ« جيتا » عنـد غاندي . فاذهله ما في الكتابين من تقارب في الهدف على بعد الشقّة التي تفصل ما بينهما في الزمان والمكان . وعلى اختـلاف ظاهر في اساليب البيان والتمهيد الى الهدف . فكلاهما يقول بوجود ذاتٍ عالمية

شاملة. وكلاهما يدعو الى كبح جماح النفس للتغلب على الذات الفردية تغلّباً يتيح للانسان الاتصال بالذات الشاملة . وكلاهما يسير بالانسان الى حيث يدرك الصلة الوثيقة التي تربطه بالناس اجمعين وبسائر المخلوقات . ولذلك كان حجر الزاوية في تعاليم المسيح والتعاليم الهندوكية مقابلة الاساءة بالصفح ، ومقاومة الشرّ بالخير ، والكفّ عن أذيّة المخلوقات الحية . وهو ما يدعوه الهندوس «أهِمْسْا» .

والأهِمْسْا هذه هي التي تقضي على الهندوس بالامتناع عن أكل اللحوم ، وباعتبار البقرة حيواناً مقدّساً . فكأنهم اتخذوا من هذا الحيوان القويّ ، المسالم ، الكريم ، اللبون ، رمزاً يمثل المملكة الحيوانية كافة. فبالغوا في اكرام البقرة والحفاظ عليها الى حدّ ان اتّهمهم الغير بعبادتها . وذلك افتراء وبهتان .

راحت تلك التعاليم تفعل في نفس غاندي فعل الخميرة في العجين . لقد اطلع عليها ملايين الناس من قبله فما فعلت فيهم فعلها فيه لأنهم ما كانت لهم الخميرة التي كانت له. وأعني خميرة الذين اعدّتهم الحياة للخروج بالناس من مأزق حرج زجّهم فيه جهلهم للحياة وقوانينها وأهدافها. واليكم صورة مصغّرة للمأزق ، بل المآزق التي كان ، وما برح ، العالم يتخبّط فيها عندما شعر غاندي بان في ذمّته رسالة يؤدّيها الى بلاده بنوع أخصّ ، والى

الشرق ثم الى الغرب بنوع أعمّ :

منذ اكتشاف العالم الجديد أخذت قارّة واحدة – هي اوروبا – تبسط سلطانها بالتدريج على سائر قارات الارض . فما إن اقبل القرن العشرون حتى باتت كل افريقيا ، وكل آسيا واوقيانيا ، وكل ما تبقّى من العالم المعروف مستعمرةً ، او سلسلة مستعمرات للشعوب الاوروبية ، او الشعوب المتحدرة منها . واذا قلنا للشعوب الاوروبية فانما نعني طبقة منها – هي طبقة ذوي النفوذ المالي والسياسي . وتلك الطبقة راحت تستغل مستعمراتها استغلالاً لا يقيم وزناً لشيء إلا للكسب من ايّما باب جاء . وفي سبيل ذلك الكسب كانت تبيح المحرّمات . فتعامل سكان المستعمرات معاملة لا تليق بالبهائم . فهم طعام للمدفع ، وهم عضلات تساعد المستعمر على نهب خيرات الارض من غير ان يصيبهم منها إلا بقدر ما يصيب بغل الناعورة من الماء الذي يخرجه من النهر .

ذلّ وفقر وجهل ، ومجاعات وأوبئة ، وتفسّخ أخلاقي واجتماعي وديني – ذلك قليل من كثير ممّا جرّه ويجرّه الاستعمار في ركابه على الشعوب المستعمَرة . وذلك ما تفتحت عليه عينا غاندي في بلاده ، وما ألهبه حماسة للنضال في سبيل قومه . فكانت فاتحة نضاله في جنوبي افريقيا حيث دعاه شغل طارىء ،

وحيث لَـمَس لَـمْس اليد كلّ ما كان بنو جلدته يُسامونه من خسف وهوان وعنت بين ايدي المستعمرين الاوروبيين. فكان من ذلك ان نذر نفسه للدفاع عنهم بكل ما أُوتيـه من حرارة ايمان بالانسان وحقه في الحياة والكرامة والعدل والحرية.

جاهد غاندي في جنوبي افريقيا عشرين حولاً ذاق في خلالها أصنافاً من البؤس والاضطهاد والمذلّة. ولكنه تحمّلها كلها بصبر عجيب، وإرادة لا تلتوي، وايمان لا يتزعزع بأن المحبة اقوى من البغض، واللين أصلبُ قناة من العنف، وبأن الحق منتصر لا بدّ في النهاية. ثم عاد الى بلاده ليطبّق فيها على ثلاثمئة مليون ونصف المليون عين الأساليب التي طبّقها على مئة وبعض المئة من آلاف ابناء جنسه في افريقيا. وأعني أساليب المقاومة العزلاء من كل سلاح إلا الحق، والرامية الى استرداد الكرامة البشرية بقوة الايمان والمحبة والتضحية لا بقوة السيف والنار، ولا بالمكر والغدر، ولا بالبغض وحبّ الأخذ بالثأر.

لقد اذلّ المستعمر الهند بما كان يبتزّه من خيراتها الخام لينقلها الى بلاده ثم ليعيدها الى الهند منسوجات وادوات للاستهلاك. إذن فلتنبذ الهند منسوجات المستعمر، ولتكسُ نفسها من نتاج مغزلها. وقد احتكر المستعمر الملح. إذن فلتزحف الهند الى البحر ولتستخرج منه ما تحتاج اليه من الملح.

ثم ان المستعمر لا يستطيع ان يحكم الهند بغير معونة الهنود انفسهم . اذن فليكفر الهنود بكل وظيفة وكل صلة حكومية تربطهم بالمستعمرين .ولتحذر الهند في كل ذلك من ان تريق قطرة دم هندي او غير هنديّ .

وهكذا اصبح المغزل في يد غاندي امضى من السيف في يد «دجان بلّ» . وأصبحت الملاءة البسيطة البيضاء التي كانت تلفّ جسد غاندي النحيل درعاً لا تخترقها مدافع اساطيل سيدة البحار. وأصبحت عنزة غاندي اشدّ بأساً من الأسد البريطاني . وهكذا انتفضت الهند كلها انتفاضة جبّارة ومشت بأجسادها وقلوبها وأرواحها خلف ذلك الرجل الزاهد إلا في الحياة كما شاءها الله ان تكون ، السائر الى غايته في جسد هزيل «لو تو كأت عليه لانهدم» . ولكن بروح تهزأ بالمادة وجميع مغرياتها ، وتهزأ حتى بالموت .

وهكذا تمت الاعجوبة . فقد خلعت الهند عن كاهلها نير الاستعمار ، وبدأت تفكك عنها ما تحجّر على كر العصور من تقاليدها الدينية والاجتماعية. فالطبقات الأربع باتت أكثر مرونة في تمازجها . والمنبوذون باتوا غير منبوذين . والهند التي كانت في مؤخرة الركب البشري تمشي اليوم بخطوات سريعة وواسعة لتعود فتحتلّ المقام المرموق الذي كان لها في سالف العصور .

كثيرٌ هم الذين سخروا بمحرر الهند في بدء دعوته . وفي مقدمتهم نائب الملك «تشلمز فورد» الذي قال في دعوة غاندي واساليبه إنها صبيانية وفي منتهى الحماقة . ولكنّ هذا الرجل الذي كان يؤمن بالصيام ككفّارة عن ذنوبه وذنوب تُبّاعه قد عاش ليخذل كل الساخرين به ، وليرى غول الاستعمار تتقلم أظافره ، وتتحطم انيابه ، ويتقلص ظله رويداً رويداً عن الشرق . والرصاصة الاثيمة التي أودت بحياته ما كانت غير وسام رصّعت به الحياة صدر زعيم عظيم من زعمائها ، وقائد حكيم من قوّادها ، وغير خاتم ختمت به جهاده الطويل ، ونصره النبيل .

أجل. لقد أخذ الشرق يستفيق . واكبر الفضل في استفاقته يعود الى غاندي . وانها لاستفاقة تؤذن بانبلاج فجر جديد في الأرض .

اوزار الماضي

الناس على سفر.. وان تسألني : من أين والى أين؟ اجبك: من غياهب الجهل الى سناء المعرفة — من غفلة الغريزة المستسلمة الى وعي الارادة الخلاقة — من عبودية الموت الى حرية الحياة.

ثم ان تسألني: من اين لي علم ذلك؟ أجبك: من هذه النفس البشرية القلقة التي هي نفسك ونفسي ونفس كل انسان، والتي لا تعرف الراحة ولا الاستقرار. فهي أبداً تفتش عن أشياء وأشياء، ان لم يكن بالرّجل والساعد فبالعين والاذن، أو بالانف واللسان، او بالفكر والخيال . وهي لا تكاد تظفر بحاجة من حاجاتها أو رغبة من رغباتها حتى تنصرف عنها الى حاجة جديدة ورغبة جديدة . فكأنها والقناعة عدوان لدودان ، وكأنها والزمان فرسا رهان ، وكأنّ الراحة حرمت عليها ما دامت الارض والسماء تكتمان عنها سراً أو تكبتان لها رغبة .

لله ما اعند النفس مفتشاً وما أدهاها محارباً ! فلا الطبيعة بعناصرها الساحقة ، ولا الموت بجحافله الماحقة ، ولا الزمان بعراقيله وأحابيله استطاعت ان تنكس للنفس علَماً، او أن تفل

لها عزيمة ، أو ان تلفها بأكفان القنوط فتلقي سلاحها ، وتقر بانكسارها ، وتستسلم صاغرة خاسرة. بل ان الامر على العكس من ذلك بالتمام : فما خسرت النفس معركة حتى انبرت تخوض معارك . ولا استعصى عليها باب حتى راحت تدق أبواباً . ولا عجزت عن ذلك حاجز بوسيلة من الوسائل حتى احتالت عليه بوسائل اخرى . حقاً انه العناد الذي لا يستطيع وصفه قلم او لسان مهما يكن نصيبه من البلاغة .

لقد ضايق الانسانَ في البدء أن يحيا حياة البهيمة، فيشبع اذا جادت عليه الطبيعة بالغذاء ، ويجوع اذا حجبته عنه . فاكتشف فن الحراثة والزراعة ، وفن تخزين القوت من يوم ليوم ، ثم من فصل لفصل ، ثم من عام لعام .

وضايقه الحر والقر ، والزوابع والعواصف ، فاخترع الخيط والابرة وفن النسج والبناء، وراح يكسو جسده حسبما تقتضيه حاجته، ويبني المساكن فيأمن غدر العواصف. حتى انه استطاع ان يكيف حرارة مسكنه على هواه .

وضايقه ان يكون ذا نطق فلا يستطيع ان يحفظ ما ينطق به الا بمقدار ما تستوعبه ذاكرته الخوانة ، ولا ان ينقله من مكان الى مكان ، فاستنبط فن الكتابة والطباعة .

وضايقه ان لا تكون له قدرة الطير على التحليق في الفضاء،

وقدرة السمكة على ارتياد الاعماق. فاخترع الطيارة والغواصة.

وضايقه ان لا تكون له عين تبصر في الظلام وأذن تسمع الاصوات من بعيد ، فاكتشف الكهرباء واخترع التليفون والراديو .

وشاقه ان يعرف اشياء عن جسده واجساد الكائنات حواليه، وعن القوى التي تفعل وتتفاعل فيها . فكانت علومه .

وشاقه ان يسبغ على حياته شيئاً من الجمال يكون بمثابة بلسم لجراحه الحراقة، ولاعصابه المرضوضة، وافكاره المكدودة. فكانت فنونه .

وشاقه ان يعرف من اين جاء ، ولماذا جاء ، والى اين يمضي . فكانت اديانه وفلسفاته .

ما لي اعدد انتصارات النفس في سباقها مع الزمان وفي كفاحها مع المجهول وهي لا تكاد تحصى؟ ولكنها، على كثرتها، ليست غير وشل من بحر ، وغير بداية بارعة تبشر بنهاية لامعة. فالشموس والاقمار والمجرات في اجوائها لا تزال علامات استفهام هائلة . ونحن نريد ان نعرف كيف تكونت ، ولماذا تكونت ، ونريد ان نعرف ما فيها ومن فيها . ثم نريدها مطايا لغاياتنا بدلاً من ان نكون مطايا لغاياتها ، حتى اذا ضاقت بنا الارض مسكناً اتخذنا من الفضاء ومن كواكب الفضاء مساكن.

ونحن نريد ان نفض الخواتم عن كل ما في الارض من سائل وجماد ونبات وحيوان وانسان، وان نسيطر عليه سيطرة كاملة.

ونحن نريد ان يكون في الارض سلام وخصب وفرح واطمئنان.

واخيراً نريد ان نقهر الموت ، وأن نخلق الحياة بمثل القدرة التي خلقتنا .

*

انها لاهداف بعيدة الى حد ان تبدو مستحيلة المنال. ولكن ليس في الزمان من بعيد، مثلما ليس فيه من مستحيل الا عند من كفئت بصائرهم وابصارهم فتفتتت عزائمهم، وتشعثت افكارهم، وانهارت اراداتهم . اما الذين عرفوا عناد النفس في كفاحها العنيف مع الزمان ، وفي اقتحامها معاقل المجهول ، فيدركون أنها سائرة حتماً الى اهدافها البعيدة بعين الدوافع التي مكنتها حتى اليوم من أهدافها القريبة . وما تلك الدوافع غير اشواقها اللافحة الى السيطرة على الاكوان سيطرة لا يبقى معها من اثر لاي حد أو قيد . حتى ولا للموت . أجل . نحن سائرون الى أهدافنا . وما من قوة تستطيع صدنا عنها . فالسلاح الذي سلحتنا به الحياة لتمكننا من الاستمتاع بها كاملة ، صافية ، سافرة هو أمضى من ان يفله جوع أو عطش ، أو خيبة أو وجع ، أو مرض أو موت . بل ان هذه كلها مشاحذ تشحذ

ذلك السلاح بغير انقطاع ، فلا يعلوه صدأ ولا يحل به كلل . انه الشوق الذي لا ينطفىء الى الاتحاد بما نشتاقه . ذلكم هو السلاح الذي اذا عرفنا مضاءه وأحسنا استعماله ، استعضنا به عن كل سلاح عداه .

*

نحن سائرون الى اهدافنا . ما في ذلك أقل ريب . الا اننا نسير بأرجل السلاحف وكان في امكاننا ان نطير بأجنحة النسور . ونسير بأرجل السلاحف لاننا موقورون حتى الارهاق بأوقار لا نفع منها ، نحملها من الامس الى اليوم ، ومن اليوم الى الغد . وجلها اشياء ورثناها عن الماضي وفات وقت الانتفاع بها . ولكننا لا نطيق الانفصال عنها حتى وان كلفنا الحفاظ عليها بحوراً من الدمع والدم ، والحزن والألم ، فأخرنا دهوراً عن بلوغ أهدافنا . وليس ما يحببها الينا الا اننا ألفناها واعتدناها حتى بتنا نخشى أن تذهب بذهابها عصارة الحياة وحلاوتها .

ان شأننا مع الاوزار نحملها من امسنا الى يومنا ، ومن يومنا الى غدنا ، هو شأن ربة البيت الجاهلة لا تنفك تجمع امتعة جديدة الى القديمة حتى يضيق البيت بالامتعة وبساكنيه . وان قال لها قائل : ما نفعك من هذا الكرسي المهشم ، أو من تلك القبعة الرثة ، أو من ذلك الحذاء الغريب الذي لم يبق في الارض

من يحتذي حذاء على شاكلته ؟ أجابتـه بأن الكرسي عزيز على قلبها لانه الكرسي الذي كان « المرحوم » جالساً عليه عندمـا كاشفها الحب للمرة الاولى . وان القبعة الرثة هي القبعـة التي ابتاعتها لبكرها في عيد ميلاده الأول . وان الحذاء هو الحذاء الذي عاد فيه جدها من حرب كيت وكيت . ولو انها مـا كانت مائعة القلب والفكر والارادة الى ذلك الحد لألقت بتلك الاشياء في النار فاستراحت من نقلها وتنظيفها والسهر على سلامتها . ولانفرج بيتها لساكنيه فأحسنت الى نفسها واليهم ومـا أساءت الى جدها وزوجها وبكرها بشيء .

*

لست أعني أن يقطع الانسان كل رباط بماضيه ليسهل عليه السير نحو أهدافه . فمن الماضي ما هو بمثابة الجذور والجذوع . وهذه لا حياة لنا الا بها . ونحن لو شئنا اقتلاعها ، لما استطعنا الى ذلك سبيلاً . ومنه ما هو بمثابة الفروع والاغصان . وهذه ينخر بعضها السوس ، وبعضها تهشمه العناصر ، فتصبح عبئاً لا خير فيه للجذور والجذوع ، وبؤرة يتسرب منهـا الفساد الى الفروع والاغصان الصالحة . وهكذا تحدّ من نمو الشجرة ، وقد تنتهي بها الى العقم فالموت . فتقليمها ثم تلقيمهـا النار اجدى لها وللشجرة .

من منا لا يسخر اليوم بصياد يمضي الى الصيد وفي كتفه الواحدة بندقية حديثة الطراز ، وفي الاخرى قوس وجعبة من السهام ؟

ومن لا يهزأ اليوم بجيش يمشي الى القتال مسلحاً بالطيارات والدبابات والقنابل الذرية وكذلك بفؤوس من الصوان وما اليها من الاسلحة التي عرفتها عصور ما قبل التاريخ والتي أصبحت اليوم آثاراً في متاحف العاديات ؟

أفليس من الاجدر بنا أن نسخر بأنفسنا ونحن نحمل في رؤوسنا وفي قلوبنا وفي بيوتنا وفي معاهدنا العلمية والدينية اشياء كانت فيما مضى عوناً لنا في كفاحنا ، ونصيراً في بلوغ ما بلغناه من اهدافنا، أما اليوم فقد باتت أوزاراً لا نفع منها. بل باتت أحابيل لأقدامنا ، وأقنعة لأبصارنا ، وفخاخاً لافكارنا . وبات الضرر كل الضرر في الاحتفاظ بها، والتغني بمنافعها وجمالها، والتلهي بنقلها سالمة ، كاملة من يوم نحن فيه الى يوم يليه .

كثيرة هي تلك الأوزار وهائلة . وليس في الامكان وصفها أو حصرها جميعاً. ولكني محدثكم عن بعضها، ومن ذلك البعض أوزار اللغة .

أوزار اللغة

يتحدث الناس بالكثير من الاعجاب والدهشة عن فتوحات العلم الحديث ، حتى ليخيل الى البعض ان الانسان يوشك ان يقبض على سر الحياة والموت ، وان يصبح السيد المطلق في الكون . وما العلم الحديث غير مولود واحد من مواليد الفكر البشري ، وكلها حري بالاعجاب والدهشة . كالفنون بانواعها ، والديانات والفلسفات على اختلافها . ولكن أدهاها وأعجبها وأدهشها وأهمها على الاطلاق في اعتقادي هي اللغة ، التي لولاها لما كانت علوم ولا فنون ولا ديانات ولا فلسفات .

لله ما ادهى اللسان والشفاه تتحرك بعشرين أو ثلاثين أو أربعين حرفاً لا أكثر ، ثم ما ادهى الفكر يزاوج بين تلك الحروف فاذا بها مقاطع ، وبين المقاطع فاذا بها كلمات تدل على كل ما تقع عليه العين ، وتسمعه الأذن ، ويشمه الأنف ، وتلمسه اليد ، ويتذوقه اللسان ، وكل ما ينبض به القلب من حزن وفرح ، وقلق واطمئنان ، وشك وايمان . ثم يزاوج بين تلك الكلمات فاذا بها عبارات وفصول وروايات ، واذا بها علوم وفنون ،

وفلسفات وديانات، ومدنيات وحضارات.. واذا الناس اينما كانوا يتفاهمون ويتلاقحون ، ويتعاونون أو يتنابذون ، ويتصادقون أو يتخاصمون ، ولكنهم يسيرون أبداً الى اهدافهم من حيث يعلمون أو لا يعلمون! ولو لم تكن لهم لغة لما عرفوا لهم هدفاً، ولما استطاعوا وصل ماضيهم بحاضرهم ، ولا اختزان المعرفة من جيل الى جيل ليستعينوا بما اختبروه في الامس على اقتحام مصاعب ومشاكل تعترض سبيلهم اليوم أو في الغد .

تلك لعمري عجيبة الانسانية الكبرى . ومن المؤسف ان يألف الناس اللغة ، كما ألفوا أجسادهم والطبيعة من حواليهم ، فلا يبصرون فيها عجيبة ، وان يبصروا العجائب في اكتشافات العلم الحديث . وما هي غير جذع من جذوع الدوحة الام التي هي اللغة !

من الاكيد ان الانسان خلق اللغة وما خلقته اللغة . وقد خلقها لتكون آلة طيّعة في يده يستعين بها على بناء حياته، وحل مشكلاته ، وبلوغ أهدافه . لا ليكون آلة طيعة في يدها ، ولانها من عظيم الاهمية حيث هي، فلاعجب أن يبالغ الانسان في الحفاظ عليها ، وفي تنسيقها وترتيبها وصقلها وضبط معانيها ، ثم في ربطها بالقوانين والقواعد مخافة ان تتفكك أوصالها ، وتضطرب مدلولاتها ، وتتبلبل مقاصدها فيتعذر التفاهم بها ،

وتضيع الغاية الاساسية من خلقها ، وتصبح نقمة كبيرة بدلاً من ان تكون نعمة عظيمة عميمة .

*

ولكن الانسان ما خلق لغته في يوم واحد أو قرن واحد. بل كوّنها على مدى قرون ليس يعرف تعدادها الا الذين يعرفون—أو يتوهمون انهم يعرفون—عمر الانسان على الارض. وهؤلاء لا شأن لي معهم . فهم يدّعون علم ما في ضمير الله . ودليلك على ان الانسان خلق لغته هو انه ما يزال حتى الساعة يضيف اليها ويطرح منها. فلغته في تطور دائم لأنه في تطور دائم، ولكنه تطور بطيء جداً . وكان من الممكن أن يكون سريعاً جداً . بل انه لمن العار على الانسان ذي الفكر الجبار والخيال المجنح ان تكون له لغة لا تماشي سرعة الفكر والخيال. بل — على العكس— تحد من قوتهما وسرعتهما بما تفرضه عليهما من قيود ، كانت حصوناً فيما مضى فأصبحت اليوم انقاضاً وعقبات ومعاثر .

ما من لغة يتكلمها ويكتبها الناس في زمان الطيارة والراديو والصاروخ الا تشكو تضخماً في ما ورثته عن ماضيها من قيود وحدود ترهق المتكلم والكاتب على السواء . فلا هي تجلو معنى ولا هي تدفع لبساً . وجل ما في الامر ان الذين خلقوها في سالف الزمان خلقوها لغاية من الغايات . فذهبت الغايات وبقيت

القيود والحدود. وكان من الحق والواجب والمنطق ان تذهب القيود والحدود بذهاب الغاية التي وجدت من اجلها . ولكن الناس يألفون قيودهم – كما يألف العصفور السجين قفصه – فلا يتنازلون عنها الا مكرهين . وفي ذلك من العجب ما فيه .

حسب اللغة أهمية في حياتنا انها حاجة لا يستغني عنها صغير أو كبير ، ولا عالم أو جاهل ، ولا غني أو فقير . وانها تكاد تكون أهم من الخبز والماء والهواء . فحري بنا أن نسهل على الناس الحصول على تلك الحاجة من اقرب السبل . اذ انها السلاح الذي لا مندوحة لأي انسان عنه ، والوسيلة التي لولاها لما بلغت الانسانية هدفاً واحداً من اهدافها . ولما كان لها اقل امل في الحصول على مثقال ذرة من المعرفة .

*

أريد أن أحصر كلامي في العربية وابنائها .. فهي اللغة التي رضعتها مع اللبن ، فمشت في دمي ، وجرى بها قلمي ، واتخذتها الترجمان الاول لقلبي وفكري . وابناؤها اخواني . صبغتهم صبغتي ، وأسرارهم اسراري ، وأوزارهم أوزاري . واني لأسائل نفسي وأسائلهم : ما الذي فعلناه في سبيل لغتنا من بعد أن تسلمناها من أسلافنا ؟ هل نحن عاملون على تنقيتها من أدرانها ، وعلى تشذيب ما يبس من فروعها وأغصانها ، وعلى اعتاقها من

أوزار ماضيها التي ترهقها وترهقنا من غير ان تنفعنا بشيء او تنفعها ؟

كيف لي أن أجيب بالايجاب و « أن » واخواتها . و « كان» وأخواتها ، وأحرف الجزم ، وأحرف النصب ، والممنوع من الصرف ، والاسماء الخمسة ، والافعال الخمسة ، ونون الاناث، ولام « كي » ، وعين المضارع، والاعلال، والادغام ، والهمزة، و « حتى » وغيرها من طلاسم صرفية ونحوية تنخزني بالف منخز، وتطعنني بألف حربة ، وتتغامز عليّ بألف عين وعين ، ملؤها الخبث والغطرسة والتهكم والسخرية ؟

*

لست بآسف على زمان انفقته من صباي وشبابي في صراع عنيد وعنيف مع تلك الطلاسم . لقد جُلت معها جولات طويلة أو قصيرة ، وموفقة أو غير موفقة . فخرجت من حربي معها بما خرجت . ولا سبيل الى استرداد وقت فات ، أو الى التعويض عن قوى ذهبت هدراً، وكان من الافضل ألا تُهدر وان تُصرف لغايات أنبل وأبقى من فتح همزة أو كسرها ، ومن صرف « نوح » أو منع « ابراهيم » من الصرف .

الا انني — والزمان الذي نحن فيه زمان سرعة وحركة وتفتيش محموم — آسف لنفسي ولكل من أمسك قلماً أو اعتلى

منبراً ، نحرق الكثير من زيوت أدمغتنا ، ومن دماء قلوبنا ، ودقائق أعمارنا تفادياً لاساءة قد تبدر عن غير قصد منا الى همزة « أن » أو خبر لعل ، أو الى الواو في « أبوك وأخوك وحموك وفوك وذو مال » ، أو الى عين المضارع فنجود عليها بالضم بدلاً من الكسر ، أو بالكسر بدلاً من الفتح .

واني لآسف اكثر من ذلك بكثير لفتيان وفتيات يصارعون تلك الطلاسم على مقاعد المدرسة فتصرعهم الطلاسم . وينتهون بأن يخرجوا من المدرسة بعد ان يتركوا فيها زهرات شبابهم ، ولغتهم عصيّة على ألسنتهم وأقلامهم، ومحاسنها قصية عن مداركهم وأذواقهم . وفي قلوبهم ما يشبه الحقد عليها وعلى الذين خلقوها ورتبوا لها تلك القواعد ، وعلى الذين يدرسونها فلا ينقونها من الزوائد .

لست من القائلين بتبسيط اللغة الفصحى الى حد أن تصبح ضرباً من العامية المنمقة ، ولكنني أقول : يا ليت الفصحى تأخذ بعض القواعد عن العامية . فهي لو فعلت ذلك لاستغنت عن الكثير من القواعد التي ما برحت تتمسك بها جيلاً بعد جيل . وما هي غير أوزار ثقيلة ورثتها عن الماضي ، وفات وقت نفعها من زمان، وقد أشرت الى البعض منها . وانه لمن الخطل الفادح والجهل المطبق ان ننكر على العامية عبقرية تستمدها من حيوية

الشعوب الناطقة بها كتلك التي استمدتها الفصحى في ما مضى من حيوية القبائل الناطقة بها .

ونحن لو تفحصنا عبقرية اللغة العامية بتجرد مطلق ، لوجدناها اقرب ما تكون من عبقرية اللغة الانكليزية التي هي في هذه الايام اكثر اللغات حيوية وأوسعها انتشاراً . فالعامية — كالانكليزية — قد استغنت عن الاعراب في أواخر الأسماء والافعال ، فلا رفع ، ولا نصب ، ولا جر ، ولا جزم ، ولا تمييز في الصفات بين الذكور والاناث في صيغة التثنية والجمع . اذ ان فطنة القارىء كفيلة بان تميز بالقرينة ما بين الفاعل والمفعول به ، وبين الذكور والاناث ، ولا حاجة بها على الاطلاق الى التفريق بين أحرف النفي والجزم ، وبين خبر « كان » واسم « لعل » ، والممنوع من الصرف وغير الممنوع ، وفي استطاعة العامة ان تتفاهم كل التفاهم بدون هذه الشعوذات اللغوية . ذلك لان العامة جماعة حية تتطور مع تطورات زمانها، فلا مندوحة للغتها من التطور بتطورها . في حين أن الفصحى تعاند ناموس التطور لأنها لغة اقوام نزحوا عن هذه الارض منذ مئات السنين فأصبحوا في مأمن من ضرورة مجاراة الزمان ومقتضيات الاحوال .

لست بجاهل أن التبسط في مثل هذا الحديث يحتاج الى اكثر من مثل هذا المقال . ولكنه باب لا بد من طرقه ، ان لم يكن

اليوم فغداً . ومن الخير لنا ان نطرقه اليوم ، وان لا نؤجل الى الساعة الآتية ما نستطيع فعله الآن . ذلك اذا شئنا ان نماشي الزمان وأن تبقى لنا لغة حية بين اللغات الحية، وان يقبل على لغتنا القريب والغريب ، وان لا تعبث بأقداسها أوزار الماضي مهما تكن عزيزة على قلوبنا ، فهي أوزار تفوح منها روائح الموت، ولا بد من دفنها . فللأموات القبر ، وللأحياء الارض والفضاء والسماء .

•

اوزار الاجتماع

قيل : « النظافة من الايمان . » وهو قول حق ، اذا نحن لم نقصره على نظافة البدن واللباس والمسكن . فالقلب والفكر واللسان والذوق أحوج الى النظافة من اليدين والرجلين ، والوجه والشعر ، ومن الرداء والحذاء ، والسرير والحصير . وليس أكره من ظاهر نظيف يستر باطناً قذراً .

ان تكن النظافة ضرباً من الايمان والتعبد ، فالقذارة ضرب من الكفر والتهتك. وهي اكثر ما تأتينا من أشياء ليست قذرة في ذاتها، ولكنها تغدو قذارة اذا ما تغير حالها أو تبدل وضعها في الزمان والمكان بالنسبة الينا. فحفنة من الزبل في الحقل ليست قذارة . ولكنها في ردهة الاستقبال قذارة وأي قذارة . وكسرة من الخبز على مائدتنا ليست بالشيء الذي تكره العين أن تنظر اليه أو اليد ان تلمسه . اما على الطنفسة، او في زاوية من زوايا البيت ، فانها تصبح قذارة نتخلص منها بالمكنسة . وزنبقة بيضاء في شعر غادة حسناء لَجمال تتمنى الشفاه لو تلثمه والأنوف لو تشمه . الا أنها في قصعة الحساء قباحة تنفر منها

الشفاه والأنوف والعيون ، وتتمنى حتى القصعة لو ترتاح من أثقالها . والماء نشربه ونستحم به لبركة وأي بركة لأجسادنا . ولكنه نفايات كريهة عندما يفرزه الجلد والكليتان .

كذلك هي حالنا مع عاداتنا وطقوسنا وتقاليدنا . فقد تغيرت اوضاعنا في الزمان والمكان ، وتغير اتجاهنا ونبض حياتنا ، وتبدلت أزياء معيشتنا ، ونبتت لنا حاجات ومشكلات ما عرفها أسلافنا . فبات الكثير من عاداتنا وطقوسنا وتقاليدنا اقذاراً في قلوبنا وافكارنا ، وأوزاراً لأرواحنا وأجسادنا . وباتت هذه الاقذار والاوزار أصفاداً تعوقنا في السير الى أهدافنا . وأهدافنا هي الانفكاك من القيود ، وادراك كنه الوجود لنصبح أسياده بدلاً من أن نكون عبيده .

ان من يؤمن بهذه الاهداف ثم يتأمل حركات الناس في مجتمعاتهم ، ويصغي الى ما يهرفون به من كلام تفرضه اللياقة والمجاملة ليصعق لما انطوت عليه قلوبهم من رياء ، وأفكارهم من تدجيل ، وأرواحهم من ميوعة لا تليق برجل يعرف معنى الرجولة ولا بامرأة تعرف معنى الأنوثة . ولا تليق بالاثنين يسعيان معاً الى المعرفة والحق والحرية . والرياء قذارة ومثله التدجيل والميوعة . والقذارة وزر لا يطيقه حتى الحيوان . فكيف بالانسان ؟

انها لبادرة طيبة أن تطرح السلام على انسان مثلك تلاقيه في الطريق ليعرف انك لا تنوي به شراً ، أو أن تصافحه ليطمئن الى أن يـدك لا تنطوي على مدية تغمدها في صدره . ولكـن السلام تطرحه على أي انسان من شفتيك لا من قلبك ، ويـداً تمدها لمصافحته تكلفاً لا شوقاً ولا تطميناً ، لخسارة من وقتك ووقته، وقذارة في روحه وروحك . فكيف بالسلام اذا تبطن عن بغض وعن خصام ؟

وانها لعاطفة نبيلة أن تعود مريضاً لعلك تخفف من أوجاعه . او أن تؤاسي ملتاعاً عساك تبرد من لوعته. ولكنك عندما تعود مريضاً او تزور محزوناً لا بدافع من نفسك بـل امتثالاً لعادة أو لتقليد ، فانك تحمل وزراً ثقيلاً وتحمـل المريض والمحزون وزراً أثقل .

وانه لمنتهى الشعور الانساني أن تفرح لفرح جارك فتزيـد في فرحه . ولكنك عندمـا تذهب اليه بلسان يتصنـع الفرح وقلب يتأكله الحسد تسمم قلبك وقلبه .

واذا انتقلت من دنيا الاجتماع الى دنيا السياسة والدين ، هالك ما يحمله الناس من أوزار تكاد تسحقهم سحقاً . فتعرقل خطاهم ، وتضيق عليهم أنفاسهم ، وتغشى ابصارهم، وتحجب عنهم أهدافهـم . فـلا هم يعرفون أين هم ، ولا هم يدركون الى أين

يسيرون . وكلها أوزار ورثها الناس عن ماضيهم . وكانت من قبل عوناً لهم في سيرهم وفي نضالهم، فأصبحت اليوم عوناً عليهم . كمعطف من الفرو يرتديه رجل في سيبيريا فيقيه البرد ، ثم ينتقل الرجل الى خط الاستواء ويبقى متمسكاً بمعطفه . أو كجبل من الجليد في عرض اليم ، يعوم عليه جماعة تحطمت سفينتهم . واذ تدركهم باخرة النجاة يأبون الصعود اليها الا اذا أصعدوا معهم جبل الجليد .

*

لقد انقسم الناس فيما مضى قبائل ثم صاروا شعوباً ثم دولاً، ولكن روح القبيلة ما يزال يسيطر على مشاعرهم وأفكارهم . فدول اليوم تتزاحم وتتنافس وتتباغض وتتحارب كقبائل الأمس . ثم هي تقيم من حولها السياجات ، وتقسم باقي الدول الى اصدقاء وأعداء كما كانت تفعل القبائل سواء بسواء. ولا فرق الا في أن القبيلة كان يحكمها شيخ أو أمير في يده التشريع والقضاء والتنفيذ . في حين أن دولة اليوم تحكمها هيئات ثلاث : هيئة للتشريع ، وهيئة للقضاء ، وهيئة للتنفيذ . وهذه الهيئات يُنتخب بعضها انتخاباً ، وبعضها يُعين تعييناً . وكلتا العمليتين – الانتخاب والتعيين – عملية معقدة يلازمها الكثير من الدهاء والرياء والاحتيال والمحاباة .

ولماذا يتهافت الناس على الحكم ، فيحتدم الجدال والقتال ، وتنفق الأموال ، وتتعطل الاشغال، وتتطاحن المصالح ؟ أليس لأن الحكم يغري المتهافتين عليه بالجاه والسلطان ، وبالعظمة والثروة ؟. وذلك ، لعمري ، هو الوزر الأكبر الذي ورثناه عن ماضينا ، وما نبرح نتمسك به تمسك الكسيح بعكازه ، والماشي في الظلمة بسراجه . وكان علينا، اذا نحن شئنا الانعتاق من ذلك الوزر، أن نجرد الحكم عن كل مجد وجاه وأبهة وعظمة وثروة ، فنجعله مشقة بالغة بجعله خدمة خالصة لا يقدم عليها الا الذين ترفعت أنفسهم عن ترهات المجد والجاه ، وعن مغريات الثروة والعظمة . فتطوعوا لخدمة الناس حباً بالناس ورغبة منهم في تسديد خطاهم الى أهدافهم البعيدة . لا طمعاً بمجد يزول ، وثروة تنضب ، وسلطان هو في الواقع أحط أنواع الذل والهوان ..

ان لنا في كل شريعة وزراً وقيداً ، سواء أكانت شريعة سماوية أم أرضية ، ونحن نطلب الحرية . أفلا تعجب مثلما أعجب لهذه المجالس النيابية في طول الارض وعرضها يقيمها الناس ولا شغل لها من يوم ليوم ومن عام لعام الا خلق شرائع جديدة، حتى بات من المستحيل تنفيذها والقضاء بمقتضاها ؟ أما تسمع الناس يتذمرون في كل مكان من كثرة الشرائع ، وأساليب

تنفيذها ، وتعقد القضاء بها ؟ أما كان من الأحرى بنا أن نقلل الحاجة الى القوانين بتقليل الاسباب التي تحمل الناس على انتهاك القوانين ؟ أما كان من الأجدى لنا أن نمنح جميـــع المجالس التشريعية اجازة عام – بل أعوام – وأن ننفـق ما نوفره اذ ذاك من وقت وجهد ومال على تعليم الجاهل ، واطعام الجائع ، ورفع معنويات البائس ، ورد الكرامة الانسانية الى المكدود والمحروم والمقهور لعلهـــم لا يتذمرون ، ولا يسرقون ، ولا يحسدون ، ولا يتمردون ، ولا يثورون ؟

إن أكثر ما يسنه الناس للناس من شرائع باسم السلامة والعدل والحرية ، لقيود فوق قيود وأوزار فوق أوزار .. والسلامة والعدل والحرية منه براء . وهذه القيود والأوزار ليست غير ارث بغيض من ماضٍ ما كان يؤمن بالانسان ومستقبل الانسان، بـل كان يراه وحشاً ضاريـاً لا يروض بغير العصا ، أو جواداً جموحاً لا يلين رأسه الا باللجام .

من قال ان السلامة والعدل والحرية تصان بالقانون ، وان المبادىء الشريفة تنهار وتغدو غير شريفة ما لم تقم على حراستها شريعة أو سجن أو بندقية ، مـن قال ذلك كان اما ضالاً أو مضللا . فحتى اليوم ما ردعت شريعة قاتلا عن قتل، أو زانياً عن زنى ، أو سارقاً عن سرقة ، أو كاذباً عن كذب، أو كافراً

عن كفر . والذين ارتدعوا عن بعض هذه الموبقات مخافة من سجن أو من مشنقة ، أو من خسارة مال أو عقار، فقد أذعنوا للشريعة بأجسادهم وعاندوها بقلوبهم وافكارهم . أما الذين يرتدعون عن الموبقات وعن اذية الغير لان لهم من كرامتهم ومن ايمانهم بالله والناس رادعاً فأولئك هم الابرار . واولئك هم الأحرار .

*

أتراني أدعو الى الفوضى ؟ معاذ الله ! وكيف تكون الفوضى في عالم كله نظام ؟ فلا السماء بما فيها ، ولا الارض بما عليها تستطيعان ان تفلتا لحظة واحدة من النظام. فكيف بالانسان ؟ ونحن لو فهمنا نظام الحياة ، وعملنا به طوع ارادتنا لكان سبيلنا الى الحرية. ولكنني أقول ان كثرة القوانين البشرية قد خلقت لنا مشاكل وأوزاراً نحن في غنى عنها . وقد صرفتنا عن تفهم النظام السرمدي . وحسبك ان القوانين الارضية – كالقوانين السماوية – قد خلقت جماعات من الناس لا شغل لهم إلا درس تلك القوانين والوساطة بين الذين وضعت من اجلهم والذين في ايديهم امر تطبيقها . فكما ان رجال الدين جعلوا من انفسهم وسطاء بين الناس والله، لانهم وقفوا انفسهم على درس الشرائع الالهية وتفسيرها هكذا جعل المحامون من انفسهم وسطاء

بين المتقاضين والقضاء لانهم توفروا على درس القوانين الارضية دون غيرهم من الناس .

اجل . انه لمن الخير للناس المتطلعين إلى ابعد من انوفهم، والتواقين الى الانعتاق من الحدود والقيود، ان يصفّوا حساباتهم مع ماضيهم فلا يحملوا من اوزاره ما فات وقت نفعه ، وما يرهق ابدانهم وارواحهم فيعرقل خطاهم في سيرهم نحو اهدافهم . وان هم لم يفعلوا ذلك بارادتهم ، وعن وعي وفهم، فعلته لهم الحياة... ولكن بالعواصف والزلازل ، وبالحروب والثورات ، وبالكثير من الحزن والوجع . ومن بكى حيث يستطيع الغناء، وتوجع حيث في امكانه ان يفرح ، فلا يلومن غير نفسه .

دود الجبن

مر بي أمس احد الجيران ، وما ان القى السلام حتى اردفه بالسؤال :

« هل من جديد في العالم ؟ »

قلت : « واي جديد ، واي عالم تعني ؟ »

قال : روسيا – اميركا – الدنيا . هل من جديد في الدنيا؟

قلت : وما همك من روسيا واميركا والدنيا ما دمت في خير ؟ أما زرعت زرعك ؟ أما قطفت كرمك وعصرت دبسك؟ اما قطعت مؤونتك من الحطب للشتاء؟ اليست بقراتك وعيالك في صحة حسنة ؟

فاجاب : نعم . نحن بالف خير ما دامت حكومتنا بخير .

قلت متعجباً : وما شأن الحكومة في الامر؟ ام انت تتهكم؟

فأجاب بجدة : وكيف لا اتهكم وقد خسرت دعواي التي ظلت معلقة في المحاكم عشرين سنة؟ عشرون سنة ياسيدي صرفتها وانا من محامٍ الى محامٍ، ومن قاضٍ الى قاضٍ، ومن جلسة الى جلسة . اما كم خسرت من وقتي ومن مالي ومن دم قلبي فلا تسأل . والنتيجة حكم مبرم لخصمي !

قلت : سمعت بدعواك من زمـان . وسمعت ان بعض المصلحين كانوا قد سووا الخلاف بينك وبين خصمك بطريقة ترضيك وترضيه . فلماذا لم تقبل بالتسوية ؟

– قبلت ثم رفضت .

– ولماذا رفضت ؟

– نكاية بخصمي . فقد كنت اريده ان يتعذب اضعاف ما عذبني .

– اذن انت ما ذهبت الى المحكمة لتحصيل حق بل للنكاية بخصمك وللتنكيل به . فما ذنب المحكمة اذا انقلبت نيتـك عليك ؟ اما سمعت ان من حفر حفرة لأخيه وقع فيها ؟

– ما انا بالمغفل. ولا انا ممن ينامون على الأذى. وها انا احفر لخصمي حفرة ثانية ما اظنه الا واقعاً فيها وغير قائم منها .

– أدعوى جديدة ؟

– نعم . لها اول وليس لها آخر .

– وانت ذاهب بدعواك الى المحاكم ؟

– والى اين اذهب ؟

– أما تخجل من ان تشغل المحاكم بدعاويك ولا قصد لك منها الا النكاية ؟ وكيف تلوم المحاكم اذا هي لم تنصفك وانت لا تقصدها للانصاف بل للتشفي ؟ ثم كيف تلومهـا لا تبت

بدعواك في جلسة او جلستين وانت وامثالك تغرقونها بدعاوى لا يصعب على اي رجلين عاقلين من جيرانكم ان يبصرا حقها من باطلها ؟

– ولماذا المحاكم ؟

قلت متهكماً : للنكاية والتشفي ، ثم للتسلية بنقد مفاسدها وكشف عوراتها !

فاجاب بلهجة المتفلسف : لقد طغى الفساد وتفشى في جميع دوائر الحكم فما يجدي فيه ارشاد ولا يصلحه نقد .

قلت : بل قد تصلحه انت .

فقال مندهشاً : انا ؟! ومن انا لأصلح الحكم ؟

قلت : يكفيك ان تحجب فسادك عنه ليصطلح .

– وماذا تعني ؟

– اعني انك تريد حكامك للنكاية بجارك وللتشفي منه . ثم تعجب لجارك كيف يريدهم للنكاية بك وللتشفي منك . ولعلك اذا اردت من حاكمك ان يحكم بالعدل لجارك اراده جارك كذلك ان يحكم بالعدل لك .

– قل ما شئت . اما انا فاقول بان الحكم عندنا فاسد والحكام فاسدون .

– وأحر بك ان تزيد على ذلك ان المحكومين عندنا فاسدون.

ففكر جاري طويلاً ، وحك رأسه ، ثم قال وهو يهم بالانصراف : خلها على الله . كلنا في الهوى سوا . والحق مع الذين قالوا من زمان :

« دود الجبن منه وفيه . »

*

انصرف جاري من عندي وما انصرفت كلماته من اذني : دود الجبن منه وفيه .

واذن فهذه الغيوم الدكن تتلبد اليوم في سماء لبنان ، وهذا القلق يساور افكار الناس فيه فيقض عليهم مضاجعهم ، وهذه التهم النكراء يتراشقها الحاكمون فيه والمحكومون – اذن هذه كلها من صنيع الحاكمين والمحكومين بالسواء . فذلك الطين من هذه الحفرة . وهذا الدود من ذلك الجبن .

واذن فاي مبرر لهذا الضجيج والصخب تثيرهما الصحافة والاحزاب بغير انقطاع حول الحكم والحكام لا غير حتى بات الناس لا حديث لهم الا حديث الحكم والحكام ، مثلما باتوا يعتقدون ان لا ضيق الا من الحكام ، ولا فرج الا من الحكام ؟ فكأنهم لا يأكلون او يشربون ، ولا يفرحون او يحزنون ، ولا يولدون او يموتون ، ولا يزوجون او يتزوجون ، ولا يتعاونون او يتنابذون ، ولا يعرفون الحق او لا يعرفون الا بمنة الحكم

والحكام . وكأنما شمسهم لا تشرق او تغرب ، وسماؤهم لا تضحك او تعبس ، وأرضهم لا تخصب او تجدب الا بامر من وزير في ديوان او قاضٍ على قوس محكمة ، او كأن حكمهم جاءهم من جزائر « واق الواق » وحكامهم هبطوا عليهم من زحل !

كيف يستقيم الحكم لشعب اعوجت مسالكه ؟

كيف يسلك الحكام طريقاً سوياً في الحكم ومن ورائهم شعب ما رفعهم الى الحكم الا ليكونوا اداة نكاية لبعضه ضد بعضه ، او اداة منفعة لهذا الجانب منه دون ذلك ؟

كيف يعدل الحاكم في شعب يكره العدل ؟

كيف يتواضع الحاكم بين قوم رفعه ذلهم الى اكتافهم ؟ اما تراهم يزحفون كالجراد لتهنئة نائب بنيابة او وزير بوزارة ؟ وهم يعلمون في اي مطبخ جهنمي طهيت تلك النيابة وبأي الاحابيل الشيطانية اقتنصت تلك الوزارة .

كيف لا يعتز الحاكم والذين حكّموه فيهم خلعوا عليه برفير العزة ، ووشاح السعادة ، وتاج العظمة ؟

ام كيف يعفّ عن المال حاكم في شعب لا يرى سعادة او كرامة ، وجلالاً او جمالاً ، وسلطاناً او حياة الا في المال وبالمال كيفما جاء ومهما تكن رائحته ؟

ام كيف لحكام شعب تعفنت ضمائره ان يكونوا انقياء الضمائر ؟

لا . لست بناسٍ ان في هذا الشعب افراداً ضمائرهم نقية ، واعينهم شبعى، ونفوسهم عزيزة، وحسهم بالعدل وبالقيم الانسانية الرفيعة صادق ومرهف . ولكنهم ليسوا الشعب . ولا هم يصلحون حكاماً للشعب . بهذا قضت « الديمقراطية » . فحكام الشعب في شرع الديمقراطية يجب ان يكونوا منه وفيه. اي ان تكون اذواقه اذواقهم ، وميوله ميولهم ، واخلاقه اخلاقهم ، واهدافه اهدافهم ، وان تكون مفاهيمه للعدل والحق وقيمة الانسان مفاهيمهم بالتمام. فلا يحكمون على مجرم باقل من الموت اذا كان الشعب يريد له الموت ، ولا يسالمون أمة يأبى الشعب الا محاربتها ، ولا يعقدون صفقة تجارية مع بلاد يعدها الشعب عدوة لمصالحه . وان هم فعلوا غير ما يريده الشعب كانوا غرباء عنه، دخلاء عليه ، وحق للشعب ان يحاسبهم ، وأن يدينهم ، او أن يخلعهم بالقوة اذا اقتضى الامر .

وخلع الحكام بالقوة يدعى ثورة . والثورة في نظر القانون ان افلحت كانت قانوناً فوق القانون ، وكانت حرية بالتبخير والتمجيد . وان اخفقت كانت عصياناً وخروجاً على القانون . وكانت لذلك جديرة بأقصى العقوبات وافظع التنكيل. والغريب

في امر الثورات انها ما ان يستتب لها الامر حتى تشرع في التحريم . واول ما تحرمه الثورة ! فكأنها تخشى على ذاتها من ذاتها ، وعلى سلاحها من ان يفله سلاحها .

اما قام الكثير من دول الارض، قديمها وحديثها ، بالثورة وعلى الثورة؟ ولكن ايّ فتى يجرؤ في اي بلد ان ينادي بالثورة على حكام ذلك البلد؟ انها الخيانة العظمى والجريمة الكبرى. اما ان يبشر سكان بلد بالثورة في بلد آخر وان يعملوا بكل ما لديهم من وسائل مشروعة وغير مشروعة على تحقيقها فذلك هو الفضيلة ما فوقها فضيلة . فالثورات في نظر الحكام كانت وما برحت بضاعة للتصدير لا للاستيراد .

اني اؤمن بالحجة تقرع الحجة . ولا اؤمن بالسيف يقرع السيف . واؤمن بالثورة يشنها النور على الظلمة فتطهر النفس من الذل ، والفكر من الخوف ، والقلب من الضغينة ، ولا اؤمن بها يشنها الحقد على الحقد ليطهر الارض بالحديد والنار من فساد الحاكمين ما دام بالارض غثيان من فساد المحكومين.

من دم المحكوم دم الحاكم . ان يكن دم الحاكم فاسداً فلأن دم المحكوم فاسد . وعندئذ كانت العناية بدم المحكوم اولى وأجدى منها بدم الحاكم .

أتريدون لكم حكاماً عمالقة ؟ اذن تفحّصوا انفسكم اولاً

وتيقنوا من انكم لستم باقزام .

أترغبون في أن يكون لكم حكام يترفعون عن الدنايا ، ويحكمون بالعدل ، ولا يمارون في الحق ؟ اذن طهروا انفسكم من الدنايا ، وتعلموا العدل ، وارفعوا سلطان الحق فوق كل سلطان .

ألا ليت حبراً تريقه الصحف والاحزاب في لبنان تنديداً بفساد حاكم كان دماً طاهراً يسكبونه من قلوب طاهرة في قلوب اخوانهم المحكومين .

ألا ليت ادمغة يذيبونها في كشف عورة نائب او وزير كانت مصلاً واقياً من تعفن الضمير ينفثونه في شرايين اخوانهم المحكومين .

ألا ليت ضجة يثيرونها حول صفقة مشبوهة من التبن او الشعير عقدها ذلك المأمور او هذا المدير كانت نفيراً في آذان اخوانهم المحكومين يدعوهم الى الثورة على كل ما في نفوسهم من ذل وخنوع ونفاق ورياء وجبن وميوعة وانسحاق وضغينة ونميمة . لعلهم اذ ذاك يظفرون بحكام صالحين .

اما ان تصلحوا الحاكم قبل ان تصلحوا المحكوم ، وان تصلحوا الاثنين بهزّة العَلَم وبالتبجح الصبياني أنّ سيفكم والقلم «ملء عين الزمن» فضرب من التخدير والتلهي بمحاولة المستحيل.

وان أنتم بدلتم حكاماً بحكام ووجوهاً بوجوه من غير أن تبدلوا ارواحاً بارواح وقلوباً بقلوب كنتم كالهاربين من الدب الى الجب وكانت خيبتكم ساحقة ، وخطيئتكم تجاه الشعب الذي منه تعيشون وباسمه تتكلمون خطيئة لا تمحوها توبة ولا يدركها غفران .

•

الخيط الابيض والخيط الاسود

إن تكن العين سراج الجسد ، فسراج النفس الضمير .

بالعين يميّز الجسد الليل من النهار، ويميّز الأشياء من حيث اشكالها وألوانها وأبعادها ، ثم يميّز ذاته من سائر الأشياء . وبالعين يستنير ليسلك سبيله في الأرض . كذلك بالضمير تميّز النفس ما بين الحلال والحرام ، والصلاح والطلاح ، والفضيلة والرذيلة ،وتميّز نفسها من سائر النفوس. وبالضمير تستنير لتسلك سبيلها في دنيا الخير والشرّ . والانسان هو المخلوق الأوحد على الأرض الذي خصّته الحياة بنور الضمير علاوة على نور العين.

ومثلما يتفاوت الناس في صفاء البصر يتفاوتون في صفاء البصيرة. فالفرق بين الزبّاء والأعشى ، من حيث نقاوة البصر ، كالفرق ، من حيث نقاوة البصيرة ، بين من يحبّ قريبه محبته لنفسه وبين من يقول : «من بعدي الطوفان . » ولا عجب في ان تختلف مقاييس الخير والشرّ عند الناس ، وان تتفاوت درجات حسّهم بجمال الفضيلة وبشاعة الرذيلة ، باختلاف طبائعهم واذواقهم ومداركهم ، وبتفاوت الدرجات التي بلغوها في سلّم

الرقيّ الفكري والروحي . وانما العجب كل العجب في التفاوت العظيم بين تقديرهم لأهمية العين الخارجية بالنسبة الى العين الباطنية. فهم يحرصون حرصاً بات مضرب المثل على حدقة العين التي بها يميّزون الخيط الابيض من الخيط الاسود ، في حين انهم لا يفتأون يذرّون الرماد والملح والبارود والكبريت في بؤبؤ العين التي بها يميّزون الصدق من الكذب ، والطهارة من الدعارة ، والمحبة من البغضاء ، ولهم في ذلك فنون وفنون . واليك بعض الامثلة :

في اخبار التوراة ان نوحاً كان اول من غرس الكرمة وشرب من عصيرها فسكر . وقد بلغ به السكر حداً اختلّ معه ميزان عقله ، وأفلت زمام أعصابه من يده. فما بقي يدري ماذا يقول وماذا يفعل . وتعطّل ضميره فلا هو يميّز بين ما يليق برجل مثله وبين ما لا يليق ، ولا بين حق وباطل ، او بين صالح وطالح. لقد اصبح – على حد قول القدامى – لا في العير ولا في النفير . فلا هو يرجى لجلب خير ولا لدرء شر . لقد كان ينبض فكراً وايماناً وحركة ، فاذا به مشلول الفكر والايمان والحركة . تخاطبه فلا يسمع . وان سمع فلا يفهم . فكأنه ميت وليس بميت . لقد انطرح في خيمته وهو لا يعي من حاله شيئاً . وكان أن انكشفت سوءته ، فما تورّع احد

بنيه الثلاثة من النظر اليها . وبذلك جلب عليه لعنة ابيه بُعيد ان افاق الاخير من سكرته. وهي لعنة ما تزال تلاحق ذريّته حتى اليوم .

قد يكون الانصاف ان نتساهل مع نوح فنغتفر له صنيعه الشائن ، وننتحل له عذراً من انه كان يجهل فعل الخمر اذا ما تناولها الشارب بكميات تذهب باللب . فما سبق له ، او لأحد من قبله ، ان تذوّقها وعرف قدرتها العجيبة على العبث بجميع مقدرات الانسان والرجوع به الى حالة الحيوان ، بل الى احطّ من حالة الحيوان . اما الذين جاؤوا بعده فمن اين ننتحل لهم الاعذار ، وقد عرفوا ما هي الخمر وكيف انها تذهب بالبصر وبالبصيرة على السواء ؟

قد يكون ان نوحاً تاب عن معاقرة الخمرة من بعد ان خبر مفعولها . فليس في التوراة ما يشهد بعكس ذلك . اما ذريته فما قنعت بان اخذت عنه سر الخمر، بل راحت تفتنّ في صنعها حتى بات من المتعذر اليوم إحصاء كل اصناف الخمور التي يصنعها ويشربها اهل الارض . وما اكتفوا بالخمور يستعينون بها على قتل الانسان فيهم بل انطلقوا يفتشون عمّا هو أدهى من الخمر وأشدّ فتكاً . فاهتدوا الى الحشيش والمورفين والكوكايين وغيرها من المخدرات . فكأنهم يتبارون في استنباط الوسائل

التي من شأنها ان تعطّل ضمائرهم ، وتطفىء بصائرهم ، فتسلبهم قدرة التمييز بين الخير والشرّ التي لولاها لما استحقوا لقب «إنسان» .

إذا ما ذكرتُ المسكرات والمخدرات في طليعة المعطّلات للضمير فليس لأنها الأهم ، بل لأنها أبرزها الى العين ، واقربها الى التناول . فهنالك معطّلات لا تأتي الانسان من الخارج . فلا هي تُذاق ولا هي تُشمّ . ولكنها تُطهى في صميم القلب البشري . ولا يندر ان تفوق جميع المسكرات والمخدرات تخريباً في العقل والضمير والارادة . وللتدليل على واحدة منها أعود بك ثانية الى التوراة ، الى فجر الحياة البشرية كما يصوّره كاتب سفر التكوين – الى حكاية قابيل وهابيل ، ولدَيْ آدم وحواء :

لقد كان قابيل يحرث الارض . وكان هابيل يربي الغنم . وشاء الأخوان ذات يوم ان يقدم كل منهما للرب قرابين من نتاج عمله. وشاء الرب ان يقبل تقدمة هابيل وأن يرفض تقدمة قابيل . فما كان من الاخير الا ان انقضّ على اخيه وأرداه بطعنة . ولماذا ؟ لأن الحسد من الحظوة التي نالها اخوه عند الله أضرم في أحشائه ناراً هاصرة ، فعطّل عين ضميره ، وزيّن له ان النار التي كانت تتأكله لن يُطفىء أوارها إلا دم اخيه . فما

كان يطيق لأخيه نعمة ليست له . وإذن فلا بد من محو تلك النعمة بمحو الحياة التي حلّت عليها .

إن ما فعله الحسد بوجدان قابيل كان افظع بكثير مما فعلته الخمرة بوجدان نوح . فنوح لم يرتكب جريمة إلا ضد نفسه. في حين ان قابيل اقترف جريمة ضد اخيه وجريمتين ضد نفسه . اما الأولى فجريمة القتل . واما الثانية فجريمة الكذب . فقد كان منه عندما جاء الله يسأله عن اخيه ويطالبه بدمه ان انكر فعلته واجاب الله بوقاحة متناهية: «وهل انا حارس لأخي ؟» فاستحق بذلك لعنة الله . وما تدري أهو استحقها لجريمة القتل ام لجريمة الكذب . فلعلّه ، لو اقرّ بذنبه واستغفر الله ، لغفر له الله ذنبه . ولكن الحسد العارم في قلبه كان قد عطّل عين وجدانه فما بقي يبصر وسيلة الى الخلاص من شرّ وقع فيه الا باقتحامه شراً آخر .

منذ فجر التاريخ والحسد يذرّ رماده وملحه وبهاره وكبريته في عيون الناس الباطنية ، واذا بها لا تميّز الخيط الأبيض من الخيط الأسود في نسيج الخير والشر الذي هو نسيج الحياة البشرية على الأرض. وكثيراً ما يصاب الحاسد بالعمى الروحي إلا اذا قُيّض له من ينزع الحسد من قلبه ويبين له ان نعمةً يحسد جاره عليها قد لا تكون غير نقمة ؛ وانها ان تكن نعمة ،

فزوالها عن جاره لن يعني انتقالها اليه ؛ وان للنّعم الحقة سبلاً تسلكها الى قلوب المنعم عليهم . فمن شاء ان يتذوّق اية نعمة فعليه ان يعبّد لها الطريق في قلبه ، بدلاً من ان يخرّبه في قلب جاره .

ومتى ذكرتَ الحسد فاذكر البغض ، والحقد ، والنميمة ، والجشع ، والكبرياء ، والغرور ، وحب الظهور ، والغضب ، وجيشاً لجباً من مثيلاتها. ولعل الغضب اشدها هولاً لأنه اسرعها انفجاراً واكثرها دماراً . والناس – إلا النادر النادر منهم – معرّضون لهزّاته العنيفة على درجات متفاوتة . فهناك من اذا تملكته سورة من الغضب هاج هياج البركان فأخذ يقذف بحممه في كل صوب ؛ يقذفها من قلبه ومن رئتيه ، ومن فمه ومن عينيه ، ومن كل قطرة دم ومنبت شعرة ؛ لا يبالي ماذا تطمر في سبيلها ، ومَن تشوي بلظاها . فكأن الذين اثاروا غضبه ديدان وجعلان . وكأنه ربّ الزمان والمكان ، وصاحب السلطان الذي ما فوقه سلطان ، له الأمر وله النهي ، وليس لأي من الناس او الاشياء إلا الانصياع الى ما يأمر به وينهى عنه .

انها الأنانيّة الجامحة تعبث احياناً برشد صاحبها ووجدانه الى حد ان تعميه عن كل ما في الكون ما خلا السبب المباشر في

إثارة سخطه وغضبه . فيمضي يشتم ويلعن ، ويحطّم ويهشّم ، ويهدد ويتوعد ، ويرغي ويزبد. ولا يندر ان ينتهي الى القتل. اما ذلك السبب الذي اثار غضبه فقد يكون نسمة هواء هبّت على غير ما يشتهي ، وقد يكون طنّة ذبابة او برغشة ، او كلمة بريئة من فم طفل بريء ، او خلافاً في الذوق او في الرأي بينه وبين فرد من افراد عائلته وفي امر قد لا يكون من الشأن اكثر من شراء مكنسة او مسح حذاء . واذ ذاك فالانسان الغضبان والحيوان الغضبان سيّان . ألا نجّنا اللهم من غضب الأنانية الرعناء والعمياء !

ان المشاعر التي تذهب باللب وتفسد التوازن في الانسان السويّ فلا يبقى في مستطاعه ان يميّز معها الخيط الابيض من الخيط الاسود – خيط الخير من خيط الشر – لأكثر من ان يتسع لتعدادها ووصفها مثل هذا المقال . فقد لا يخطر لك في بال ان في جملتها الفرح والحزن . فالفرح ، وعلى الأخص ما كان منه ناتجاً عن امور زمنية عابرة ، اذا تمادى فيه صاحبه فعلَ بلبّه فعل الحميّا ، فأغمض فيه عين الضمير عن كل ما في الكون من وجع ، وشقاء ، وظلم ، وبشاعة . وكذلك الحزن اذا تمادى في القلب اعماه عن كل مباهج الحياة ومفاتنها ، وصرفه عن اهدافها التي تسمو الى ما فوق الحزن والفرح. وأستثني من ذلك

فرح المتعبّد اذا ما تجلّى له وجه الحق . وحزنه اذا ما انحجب عنه ذلك الوجـــه لهفوة او هفوات بدت منه ، او لقصورٍ ما تمكّن بعدُ من التغلب عليه . ذانك الفرح والحزن من شأنهما ان يزيدا عين الوجدان قوة وصفاء في اجتـلاء الحق ، فهما على عكس الفرح والحزن الدنيويين اللذين من شأنهما ان يعميا عين الوجدان عن الحق وجماله .

جميل بنـا ان نحرص على حدقة العين التي بها نميز الخيط الابيض من الخيط الاسود. واجمل من ذلك بكثير ان نحرص على حدقة العين التي نميز بهـا بين الخير والشر – بين الفضيلـة والرذيلة – بين بياض الحق وسواد الباطل .

•

حدثني جبران

بين الاحياء والاموات صلات لا تختلف في شيء عن صلات الاحياء بالاحياء الا من حيث انها لا تقوم مباشرة على الحواس الخارجية . فنحن لا ننفك نتخاطب مع الاموات ، ولكن باصوات لا تسمعها الاذن . ولا ننفك نبصرهم ، ولكن بغير العين المحصنة بالاجفان والاهداب . ذلك في حالة اليقظة . اما في المنام فما اكثر ما نجالس الاموات ونحادثهم ، ونؤاكلهم ونشاربهم ، فنسمعهم ونبصرهم كما لو كنا واياهم في دنيا واحدة وجو واحد .

ولا بد من يوم ينصرف فيه العلم الى درس النوم وحالاته وما يطرأ فيه على النائم من رؤى وأحلام واحساسات غريبة فيكشف عن قوانينها ومصادرها ومعانيها . فقد يكون لنا في درس تلك الامور الغامضة خير اعم وأهم من كل ما جنيناه حتى اليوم من دروسنا في الطبيعة . بل انه لمن العار علينا ان ندّعي المعرفة او شبه المعرفة في شؤون الارض والسماء ونحن ما نزال في حياتنا اليومية في ظلمات دامسات . أليست حياتنا بعضها

غفلة وبعضها يقظة ؟ أليست الغفلة ثلث العمر ان لم تكن نصفه ؟ فكيف بنا نهملها من دروسنا ، وهي نصف حياتنا ، فنمضي نعيش بنصفها الآخر ونحن نحسبنا نعيش حياة كاملة ؟ ومن يدري فلعل في غفلة النوم مفاتيح اسرار اليقظة ؟

هذا تمهيد سريع لما سأرويه لك من حديث جرى بيني وبين جبران خليل جبران منذ أيام في المنام . وما هي بالمرة الاولى يزورني فيها جبران من بعد ان لفظ أنحابه أمام عيني وبين يدي مساء العاشر من نيسان – ابريل – عام ١٩٣١ في مستشفى القديس فنسنت بنيويورك :

رأيتني سائراً وحدي في طريق جبلي ضيق لا يخلو من المخاطر. وكما يحدث للحالم ، التفتُ واذا بجانبي رجل ، واذا بذلك الرجل جبران . فما دهشت ، ولا رأيت في الأمر ما يصح ان يدعى مفاجأة ، بل تقبلته كما لو كان طبيعياً للغاية . الا انني قلت في نفسي: « جبران مات. وها هو يُبعث حياً . العله ما مات حين حسبناه قد مات ؟ »

مشينا مسافة صامتين . واخيراً عنّ لي ان اطرح سؤالاً على جبران . فقلت :

– العلك آسف لموتك قبل الاوان يا جبران ؟

فأجاب بصوته الذي الفته اذني من زمان :

– قبل الاوان؟ ومتى سمعت يا ميشا[1] بشيء تم قبل اوانه؟ لكل عمر غاية ونهاية فمتى انتهت الغاية انتهى العمر. حتى الطفل الذي يموت في مهده لا يموت قبل اوانه . فقد تكون الغاية من عمره ان يحترق في المهد ويحرق قلبي والديه .

– عنيت يا جبران انك ارتحلت عنا وانت ما تزال في اوج نضجك وانتاجك . فلو أنك عشت حتى اليوم لجئتنا بكتب جديدة ورسوم جديدة .

– صحيح . فلو انني عشت حتى اليوم لما ارتاح قلمي ولا ارتاحت ريشتي . اوَما سمعت ما تقوله العامة : « العمر ينتهي والشغل لا ينتهي » ؟ وموتي يعني ان قلمي وريشتي كانا في حاجة الى الراحة . فما أدري لو انني كتبت فوق ما كتبت ورسمت فوق ما رسمت اذا كنت آتي بأفضل مما كتبت ورسمت . ما أظن . فالشهرة عبء يا ميشا – عبء ثقيل ولذيذ . وهي اذ تشحذ الهمة للعمل تحد من حرية القريحة . وقد أخذت اشعر ان شهرتي باتت تعكر عليَّ صفاء عزلتي – تلك العزلة التي لا تزهر العبقرية ولا تثمر الا فيها . ثم انها باتت ترهقني وتستنزف الكثير من قوّتي ووقتي في مطالب لا طائل تحتها .

---

[1] ميشا : اختصار لميخائيل .. وكان الكاتب يعرف به بين اصدقائه بأمريكا .

– اما تشتاق العودة الينا يا جبران – الى اخدانك في «الرابطة القلمية» – الى ايامنا الحافلات بالجد والهزل، بالهدم والبناء، بالثورة على الجمود والتقليد وبالدعوة الى الانطلاق والتجديد ؟

– ولكنكم معي دائماً ابداً يا ميشا. فالصداقات – والعداوات كذلك – تتمسك بالروح تمسك الجذور بالتراب. فلا تنقطع اواصرها بانقطاع القلب عن النبض. والحاجز الذي بيني وبينكم شفاف الى حد ان العين لا تبصره. وهل تبصر العين الهواء ؟ فكيف بما كان ارق من الهواء؟ انا معكم وانتم معي. والرابطة القلمية التي جمعتنا عقداً وبعض العقد من السنين ما تزال تجمعنا حتى اليوم. نحن بذار واحد في تربة واحدة. فكيف نتفرق؟ ونحن بذار قديم في تربة قديمة. وما من جديد فينا الا اننا نقينا البذار من السوس والزؤان، والتربة من الاعشاب البرية والاشواك. فقال الناس: هؤلاء قوم ثائرون.

كان يروقني ويدغدغ كبريائي ان ادعو عملي ثورة وان يدعوني الناس ثائراً. اما اليوم فأصبحت ارى ان الثورة قوة عمياء تجتاح الصالح والطالح معاً. وكثيراً ما تعرقل المجنح اذ هي تحاول ان تجنح الكسيح.

الجماهير يا ميشا بطيئة ابداً. بطيئة الحس والفهم والحركة.

وهي حجارة رحى في اعناق قوادها . ولكنها حجارة تصبح
قلائد من ذهب في اعناق الذين يعرفون قيمتها الانسانية ويحسنون
قيادتها. فبينا ترى العباقرة يتخاطبون ويتفاهمون من اعالي القمم
ترى الجماهير تدب في الاودية دبيب النمل وابطأ . وليس في
مستطاعها قط ان تسكر بخمرة الأعالي. لذلك لا تفعل بها الثورة
اكثر من ان تسرع نبض الدم والشهوة في شرايينها . ولكن
الى حين . ولذلك تتلاشى حدة الثورة حالما تبلغ الجماهير ،
مثلما تتلاشى قوة الصاعقة في التراب . ويكاد البعض يقنط من
الانسانية وخلاصها جاهلين انها سلّم رأسه في السماء واسفله في
الارض ، وان الناس يصعدونه فرادى لا جماعات .

اما ثرت على القساوسة والرهابين ، وعلى التقليد والمقلدين ؟
ومـاذا كانت النتيجة ؟ كانت النتيجـة ان القساوسة والرهابين
استأثروا برفاقي فخنقوا ثورتي . ثم اصبحت نهباً للمقلدين. ما دام
في الارض جماهير دامت الجماهير مقابر للثورات والثائرين .
وما دام في الارض عباقرة دام فيها المقلدون . تلك هي سنّة
الحياة يا اخي . فلنثر ما راقنا ان نثور . ولنبدع ما طاب لنا
الابداع . ولكن حـذار ان ننسى الجماهير والمقلدين . بـل
حـذار ان لا نبارك الجماهير والمقلدين . فلولاهم لما كانت ثورة
ولا كان ابداع .

قلت : اذن انت غير راضٍ عن دفنك في مار سركيس ؟

فاجاب بعد تمهل : بلى ولا . فمار سركيس خلوة ليس اجمل منها خلوة . وانت تذكر كم كنت امني نفسي وامنيك بها . ولكن الحياة – تباركت مشيئتها – شاءت لنا غير ما شئناه لنفسينا . وانه لشعور غريب يا ميشا وساذج الى اقصى درجات السذاجة ان نتمنى ونحن في الحياة لو يضم بقايانا تراب درجنا عليه واحببناه . وأنت تعلم عظيم محبتي للبنان ، ولبلدتي بشري، ولجبل الارز ووادي قاديشا. من هذا القبيل ما اظنني، لو خُيرت في الامر ، كنت اختار مرقداً لعظامي افضل من مار سركيس . الا انني ما كنت اريد لتلك العظام ان تمسي سلاحاً ضدي في ايدي رجال الدين . فهم بالتعازيم التي يقيمونها فوقها من حين الى حين قد محوا كل ما قلته فيهم وأظهروني كاذباً تجاه نفسي وتجاه قرائي ، او تائباً عن اقوال حسبوها عليّ اثماً . أما انا فلست بنادم عليها .

– ورسومك يا جبران التي اوصيت بها الى ماري هاسكل ثم تمنيت عليها ان توسلها الى بشري ، اراضٍ أنت عن بقائها في بشري حيث يتعرض الكثير منها للتلف ، ويعرض الباقي عرضاً ما اظنك ترضى عنه؟ أما كان الافضل لو تنقل تلك الآثار الفنية الى متحف في بيروت حيث تعرض عرضاً لائقاً بها، وحيث

يشهدها المتعطشون الى الفن في لبنان وسائر البلاد العربية فضلاً عن الذين يؤمون الشرق من اجانب ؟

– من دون شك . ومن غيرك يا ميشا لهذا الامر ؟

– سرني يا جبران ان الذين في ايديهم الحل والربط اقتنعوا اخيراً بوجوب الاهتمام بآثارك الكتابية . وقد كلفوني الاشراف على تنسيق كتبك العربية وترجمة كتبك الانكليزية واخراجها كلها اخراجاً واحداً من حيث القطع والطباعة والورق. فقبلت المهمة بالشكر . وقد باشر الناشرون العمل . وما اخالك الا راضياً عنه . ولعلنا نوفق بعد حين الى تنسيق رسومك توفيقنا الى تنسيق مؤلفاتك .

– اما تعتقد اعتقادي يا ميشا ان لآثارنا اعماراً مثلما لنا اعمار ؟ فالاثر الذي ما انتهت الحاجة اليه ما انتهى عمره بعد . وهو يسعى الى الذين يحتاجون اليه مثلما يسعون هم اليه. فلا بد من تلاقٍ من الجانبين . ومن هذا القبيل كان اهتمامنا بما سيحدث لآثارنا من بعدنا ضرباً من البلاهة. فكم من اثر ينام اجيالاً ثم يستفيق ، وآخر يملأ الارض دوياً في حينه ثم يختفي الى الابد .

– حقاً ان للزمان غربالاً اين منه غرابيل الناس . والويل للذين يطمحون الى البقاء ولا يحسبون لغربال الزمان حساباً .

*

وكنا قد بلغنا في سيرنا منعطفاً فيه اشجار وعين ماء . فاقترحت على جبران ان نستريح هنيهة وفي خاطري ان اتبادل واياه الآراء في شؤون الساعة، شؤون الشرق والغرب، والحرب والسلم ، ومستقبل الفن والادب . ولكنني التفتُّ واذا بي وحدي ... وفي سريري .

•

التشاؤم والمتشائمون

يكفي ان يكون في الارض موت ليكون في الناس تشاؤم ومتشائمون . فما قيمة حياة تنتهي في حفرة ضيقة مظلمة حيث الدود لا ينام ولا يشبع ؟

ولو انها كانت حياة طافحة بالملذات لهان الأمر بعض الشيء وخفّت الأسباب الداعية الى التشاؤم . فقد يرضى أكثر الناس بسكرة من اللذة الخالصة وان هم كانوا على يقين من انهم سيغفون من بعدها غفوة لا استفاقة منها .

إلاّ ان الحياة من المهد الى اللحد طريق مفروش باللذة والألم معاً . فشبع وجوع ، وصحة ومرض ، وراحة وتعب ، وبسمة ودمعة ، وأمل وخيبة ، وانتصار وانكسار ، ومتعة وحرمان ، ونور وظلمة الى آخر ما هنالك من متناقضات غريبة وعجيبة تلازم كل خطوة نخطوها ، وكل لحظة نحياها على الارض . والأنكى من كل ذلك انه ما من بشر استطاع حتى اليوم ان يأخذ من الحياة شهدها دون علقمها ، او ان يبلغ حافة القبر غير نادم على شيء وغير راغب في شيء . فغصّة الشهوة المخنوقة ،

وبصيص الرجاء التائه يرافقان كل حي حتى آخر نسمة من حياته.

ناهيك بما في سلوك الناس بعضهم مع بعض، ومع الكائنات حواليهم، من التواء وخبث وقسوة وظلم ونفاق ودعارة. فحبٌّ يتحول بغضاً، وصداقة تغدو عداوة، وأمانة تمسي خيانة؛ وَلَدٌ يعقّ والديه، وحاكم يمتص دم محكومه؛ غنيٌّ يشكو التخمة، وفقير يبيت على الطوى؛ خنزير بشري لا يلذ له الا التمرغ في القواذير، وذئب آدمي لا يطيب له شيء مثلما يطيب له دم الحملان الآدميين ولحمهم.

ثم ناهيك بالطبيعة تعيش الحول تلو الحول على وتيرة واحدة. فنهار يتقلص عن ليل، وليل يتمخض عن نهار. فصول تتسابق وتتعاقب، وكواكب تتدافع وتتجاذب. شمس تشرق وتغرب من حيث اشرقت وغربت منذ آلاف السنين. وقمر يكتمل ثم ينقص ثم يتلاشى شهراً بعد شهر مثلما كان يفعل منذ آلاف السنين. وأرض لا تنفك تتقيأ الأشياء لتعود فتبتلعها ثم تتقيأها من جديد.

انها لحلقة مفرغة اولها ظلمة وآخرها ظلمة وقلبها تَعَبٌ ونصَب ووجع وخيبة لغير ما غاية او جدوى الا الفناء. لذلك كان من الخير للرجل العاقل ان لا يتعلق بالحياة، وان ينبذها بحلوها ومرّها. فما هي غير سراب خدّاع، وغير جوهرة

زائفة أو ثمرة شهية المنظر ، ولكن قلبها يتأكله العفن ومذاقها لا يطاق .

تلك ، بالاختصار ، هي «فلسفة» التشاؤم . وهي ، كما ترى ، فلسفة قاتمة قانطة ، تبدأ في البقاء وتنتهي الى الفناء اما مداها فلا يتعدى الفترة القائمة ما بين المهد واللحد . وعذرها في قصر اهتمامها على تلك الفترة التي لا تكاد تكون غير رفة جفن في حساب الزمان هو ان الانسان لا يملك من وسائل التفتيش عن معاني الحياة ما يخوله معرفة ما كان قبل الولادة وما سيكون بعد الموت . أما كل ما يجري ما بين ذينك القطبين – بين الولادة والموت – فأمور نخبرها بأنفسنا خبرة مباشرة . ولنا ملء الحق في ان نصدر حكمنا عليها . في حين اننا لا نستطيع ان نخبر ما قبل الولادة وما بعد الموت . فكل حكم نبديه في ذلك او هذاك حكم فاسد .

لقد كان على دعاة التشاؤم ، حالما بلغوا حد اليقين من صواب دعوتهم ، ان يكونوا دعاة انتحار اجماعي في الأرض ، وان يبدأوا بانفسهم . واذا هم جبنوا عن الانتحار فقد كان الاولى بهم ان يكفّوا عن التنديد بمعايب الحياة والناس . فما همهم من شر الحياة وخيرها ما دام مصيرها الى الزوال ، وما دامت بغير معنى وبغير غاية ؟

اما ان تكون الحياة ذات معنى. واذ ذاك فتشاؤم المتشائمين ليس اكثر من شهادة عليهم بانهم قصروا عن ادراك ذلك المعنى. واما ان تكون الحياة بغير معنى. واذ ذاك فلا معنى لأيّ شيء. وللتشاؤم على الأخص .

اما ان يكون للانسان هدف من ولادته . واذ ذاك فله هدف من موته كذلك. لأن الولادة تتصل بالموت اتصالَ اول الطريق بآخره . واما ان لا يكون له اي هدف من ولادته وموته . واذ ذاك فأي حرج عليه إن هو عاش على الأرض ملاكاً او شيطاناً ؟ وأية قيمة لتنديد المتشائمين بكثرة اوجاعه وشروره ؟

لقد حاول الدين منذ اقدم العصور ان يسد تلك الثغرة التي تنطلق منها عواصف الشك والتشاؤم. واعني ثغرة الشر والارادة الحرة والموت . فجعل الانسان وحده مصدر الشر في سائر الخليقة ، ثم جعله مسؤولاً عن شروره وغير مسؤول عن كل ما عداها ، ثم اجتاز به وهدة الموت بجعله الموت عبّارة الى قيامة عامة لا يعرف زمانها الا الله ، والى حياة أبدية من بعد تلك القيامة قد تكون في الجنة وقد تكون في جهنم .

إلا ان وعود الدين ما اقنعت المتشائمين . ولا هي ردتهم عن الكفر بالحياة . لقد كانوا – وما برحوا – يتخذون من

العقل سلاحاً للقضـــاء على العقل ، ومن الخيـال اداة لتحطيم الخيال ، ومن الارادة قوة لشل الارادة. فهم بالحياة التي لولاها لما كان لهم عقل ولا خيال ولا ارادة ، يحاولون محو الحيـاة . فشأنهم في ذلك شأن العطشان المشرف على الهلاك يرتوي من بئر حتى اذا استعاد الحيـاة والنشاط ارتد الى البئر فردمها بالزبـل والتراب والحجارة .

انه لمن الغرابة بمكان ان يركن المتشائم الى ما فيه من قوة التحليل والتعليل والاستنتاج وان لا يركن الى الحياة التي منها تلك القوة . والأغرب من ذلك ان يُصدر حكمه المبرم على الحياة وان لا يسأل نفسه من اين جاءه السلطان لاصدار مثـل ذلك الحكم . وهل في استطاعته ، اذا هو اصدر حكمه ، ان ينفّذه ؟ واذا لم يكن في مستطاعه تنفيـذ حكمه فما نفعه من اصداره ؟ اما كان من الأفضل له ومن الأشرف لو انه تردد في اصدار حكمه عساه ان يهتدي الى مخرج من المأزق الحرج الذي زج فيه نفسه ؟

واي مأزق احرج من مأزق الرجل الذي يحكم بالفناء على كل ما في السماء والأرض وليس في مكنته ان يغير لون شعرة واحدة من الشعر الذي على رأسه وبدنه ؟ فكيف به يحاول ان يقضي على نسمة الحياة وقوة الحركة في كل منظور وغير منظور

من العوالم الشاسعة السابحة في رحاب الفضاء ؟

انه من المؤسف حقاً ان يقوم في الناس رجال ونساء دأبهم الانهزام من وجه الحياة ثم التغني بذلك الانهزام كما لو كان هو النصر بعينـه . تلك لعمري هي حالة الضرير كُفَّ بصره عن المرئيات فاقتنع بأن وجودها وعـدم وجودها سيّان . وحالة الأطرش سُـدّت اذناه دون الأصوات فراح يعزّي نفسه بأن عالماً لا صوت فيه خـير من عالم يعجّ بالأصوات . ولكننا ما عرفنا حتى اليوم اعمى واحداً استطاع ان يقنع مبصراً واحداً بسَمْل عينيه. ولا أطرش تمكن من ان يحمل رجلاً سليم الاذنين على تعطيل سمعه .

لقد كان على المتشائمين ، قبـل ان يحكموا على الحياة بانها طائشة ورعناء وعمياء، ان يتيقنوا من ان الطيش والرعونة والعمى ليست صفات ملازمة لقصور في مداركهم بدلاً من ان تكون صفات ملازمة للحياة . لئن هالهم ما في حيـاة الناس من شر وعبودية وموت فما يجب ان يغرب عن بالهم ان شرّ النـاس وخيرهم ، وعبوديتهم وحريتهم ، وحياتهم وموتهـم ما عرقلت يوماً من الأيام سير الحياة الشاملة في مجاريها الكونية . ولا هي قلّلت من قيمتهـا حتى في نظر الناس المبتلين بالشر وبالعبودية والموت . فشغفهم بها ، وتعلّقهم بأذيالها ، وتحمّلهم كل اوجاعها

في سبيـل ما تحمله اليهم من متعة جسدية وروحية يفوق حدّ الوصف والتحليل والتصوّر .

ان في سلطان الحياة على الأحياء لمفتاحاً الى سر الحيـاة . فلو انها كانت بغير مشيئة لما كانت لنا المشيئة . ولو انها كانت بغير احساس لما كان لنا الاحساس . ولو انها كانت بغير ادراك لما كان لنا الادراك . ذلك لأننا منها وفيها . واذ ذاك فعملنا هو ان نعرف مشيئتها ، وان نتحسّس احساسها ، وان نـدرك ادراكها . ولو انهـا ما شاءت لنا ان نعرف شيئـاً من ذلك لأقامت بيننا وبين المعرفة حواجز لا تخترقها بصائرنا وأبصارنا . ولما دفعتنا على التفتيش . ولما اودعتنـا ذلك الشوق الذي يهزأ بالزمان والمكان ، ويقتحم معاقل الحزن والوجع ، ولا تحـدّ من قوة انطلاقه احابيل ابليس ولا جحافل عزرائيل .

ههنا سرّ الحياة. وههنا عظمة الانسان الذي هو اسمى مظهر من مظاهر الحياة على الأرض . وهذا الانسان ما تعلق بأذيال الحياة إلا ليبلغ في النهاية قلب الحياة . ولو لم يكن واثقاً من مقدرته على بلوغ قلب الحيـاة لاستسلم للموت من زمان . إلا انه مـــا استسلم ولن يستسلم للموت . ولا رضي ولن يرضى بالعبودية الأبدية . وهو إن نام حيناً في احضان الظلمـة فلن ينام الى الأبد . فليخرس النعّابون . وليرعوِ المتشائمون .

مجد القلم

الى الأدباء الناشئين

تأتيني من حين الى حين رسائل من أدباء ناشئين يطلبون إليّ فيها أن أرشدهم الى السبل الكفيلة بأن تجعل منهم كتّاباً وشعراء ذوي مكانة في دولة الأدب. ويا ليته كان في مستوصفي أو مستوصف سواي «روشتة» اذا استعملها الراغب في الأدب أصبح أديباً، إذن لكنّا «نصنع» الأدباء بمثل السهولة التي بها نصنع الزبيب من العنب والخبز من القمح. إلا ان الأدباء يُخلقون ولا يُصنعون. والفرق بين الأديب المخلوق والأديب المصنوع كالفرق بين العين الطبيعية والعين من زجاج.

من كان مُعَدّاً للأدب كان في غنًى عمّن يدلّه على طريقه. ففي داخله ومن خارجه حوافز لا تتركه يستريح حتى يتمّ التزاوجُ ما بين عقله وقلبه وذوقه وبين القلم والمداد والقرطاس. وهو، عن وعي وعن غير وعي، لا ينفكّ يلتهم التهاماً كلّ ما يتّصل به من آثار أدبية. ثم لا ينفك يسوّد الاوراق بما يتولد في نفسه من أحاسيس وأفكار وانطباعات. إن اغمض عينيه في

الليل فعلى كاتب او مقال . وإن فتحهما في الصباح فعلى شاعر او قصيدة . فكأن كل ما فيه وكل ما حواليه يدفع به دائماً ابداً الى تحقيق حلمه بان يدرك اليوم الذي فيه ينطبع اسمه على شفاهٍ كثيرة وتغدو مؤلفاته نجعة لجيش من القراء والاقلام .

لكل ذي مهنة او حرفة عُدّة . وعدّة الاديب لغة وفكر وخيال وذوق ووجدان وإرادة . وهذه كلّها قابلة للتنمية وللصقل . وخير الوسائل لتنميتها وصقلها هو احتكاكها المستمر بما سبقها وما عاصرها من نوعها . ثم توجيهها التوجيه المستقل في الطريق الذي تفرضه على الكاتب حياته الباطنية والخارجية . لذلك كان لا بد لكم من المطالعة، ومن فكر سريع الالتقاط، وخيال مسبل الجناح ، وذوق مرهف الحدّين ، ووجدان صادق الميزان ، وإرادة صلبة العود . وكان لا بدّ لكم ، فوق ذلك كلّه ، من معدةٍ ادبية تهضم ما تلتقطونه هنا وهناك فتحوله غذاءً طيباً لكم وللذين يقرأون ما تكتبون . وإلا كنتم كالاسفنجة إذا غمستموها في سائل من السوائل ثم عصرتموها ردّت اليكم ما امتصته عيناً بعين ودون زيادة او نقصان . وكنتم إذ ذاك أصداء فارغة لا أصواتاً حيّة .

وإن تسألوني ماذا يحسن بكم أن تطالعوه أجبكم : إن ذلك يتوقف الى حدّ بعيد على ميولكم واذواقكم وعلى مقدار جوعكم

الى المعرفة التي بدونها لا قيام لايّ ادب . فقد يكتفي الواحد منكم بمطالعة بعض الآثار الادبية المشهورة . وقد يتعداها الآخر الى النجوم والحيوان والنبات وطبقات الارض والفنون والاديان والتاريخ والفلسفة بانواعها ، حتى الى الروايات البوليسية والمقالات التافهة التي تحفل بها حقول الصحافة الرخيصة . فالأمر الذي لا شك فيه هو انكم كلما اتسع اطلاعكم على مجاري الحياة البشرية ، قديمها وحديثها ، بعيدها وقريبها ، جليلها وحقيرها ، اتّسع مجالكم للتأمل والتفكير وللعرض والتصوير . فما انسدّت في وجوهكم الطرق الى مواضيع جديدة تعالجونها باساليب جديدة .

تحاشوا اللف والدوران ، فليس اكره من جثة فيلٍ او حوتٍ تحيا بقلب ضبّ او بقلب ضفدع . وتحاشوا النوح والبكاء ، والتشكي من الدهر ، واستجداء رحمة القارىء وشفقته . فهذه كلها من دلائل الهزيمة . والهزيمة عار وأيّ عار على الذين سلّحتهم الحياة بالفكر والحس والخيال والارادة . ومن ثم فالناس يحبون السير في ركاب الظافرين ويكرهون مماشاة المنهزمين .

أما العار الأكبر والأفظع فهو تقليدكم الأعمى للغير او سرقة بضاعة الغير. فالتقليد هو الشهادة بافلاس المقلّد . وسارق

أدب الأحياء والأموات كمن يأكل لحم اخيه نيئاً ، أو كمن ينهش جيفةً في قبر .

اما الشهرة فإياكم أن تبتغوها في ذاتها . فما هي غير ظلّ قامتكم الأدبية . إن امتدت تلك القامة امتدّ . وإن تقلّصت تقلّص. فظل السروة السامقة غير ظلّ العلّيقة اللاصقة بالتراب.
وأما الغرور فاقتلعوا جذوره من صدوركم . فهو أشد فتكاً بكم من السوس بالخشب .

والغرور هو غير الايمان بالنفس . ذلك بالوعة وقاذورة . وهذا ميناء ومرساة . وما لم يكن لكم من ايمانكم بانفسكم ميناء ومرساة كنتم حيرةً في حيرة وكان ادبكم رغوةً في رغوة .

قبل ان تهتموا بما يقوله الناس فيكم اهتموا بما يقوله وجدانكم لوجدانكم . أخلصوا لأنفسكم ولأدبكم اولاً وإذ ذاك فصدوركم لن تضيق بذمٍّ ولن تنتفخ بمدح . فان كنتم أكبر من ناقديكم فما همكم أذمّوكم أم مدحوكم ؟ وان كنتم في مستواهم فيجمل بكم ان تصغوا الى ما يقولونه فيكم . وان كنتم دونهم فجدير بكم ان تتعلموا منهم .

تنافسوا ولا تتحاسدوا. وإياكم ان تتشاتموا . فعداوة الكار إن هي اغتُفرت لاسكاف او نجار أو غيرهما من صانعي السلع وبائعيها فهي لا تُغتفر للعاملين على السمو بالانسان في معارج

الفهم والحرية .

ما دمتم واثقين من ان لكم رسالة تؤدونها فلا تقنطوا من تأديتها وإن أغلقت في وجوهكم ابواب الصحف ودور النشر . ثابروا على العمل وانا الكفيل بانكم ستشقون لرسالتكم طريقاً في النهاية . فالناس في جوع وعطش دائمين الى القول الحق والقول الجميل . ولا تنسوا ان الذين تبصرونهم اليوم في القمّة كانوا بالأمس في الأغوار وفي السفوح .

خذوا مواضيعكم من انفسكم ومن الناس والاكوان حواليكم . ولا تمسحوا أقلامكم منها إلا من بعد ان تبدو لكم صريحة المعالم مشرعة الأبواب كي يسهل تناولها حتى على الذين هم دونكم مقدرة ومهارة في الغوص الى الأعماق. وليكن اجركم الاول والاعظم تلك البهجة التي يشيعها في الروح شعوركم بانكم قد خلقتم مخلوقاً جديداً وجميلاً، أكان ذلك المخلوق مقالاً أم قصيدة ، أم قصة ، أم رواية ، أم كلاماً لا ينساق الى التبويب ولكنه يترك فيكم وفي القارىء نشوة وعبرة .

الكتابة عمل مرهق كسائر الأعمال البنّاءة . إلا انه عمل لذته لا تفوقها لذة . وهي لذة قلما يتذوقها الكسالى وفاترو الهمة . فان شئتم بلوغ القمم الأدبية حيث «الخالدون» فعليكم ان لا تشركوا في محبتكم للقلم محبة اي سلطان سواه ، وان

تنبذوا الكثير من ملذات العالم وامجاده. وانتم متى ادركتم اي مجدٍ هو مجد القلم هانت لديكم من اجله كل امجاد الأرض، وصنتم اقلامكم عن التملق والتسفل والتبذل. فما سخرتموها لمال او لسلطان، ولا لأية منفعة عابرة مهما يكن نوعها. وما دامت اقلامكم عزيزة فأنتم أعزاء.

•

جنديان

خرج عباس من بيته قبيل الفجر . فما درى كيف خرج ولا كيف بلغ نهاية الغابة الكثيفة التي تفصل ما بين بيته وبين الطريق العام. لقد كان يمشي ذاهلاً عن كل ما حواليه وشاعراً كما لو كانت الارض تهرب من تحت قدميه ، والأشجار تتهاوى عليه ، والسماء تهبط رويداً رويداً من فوقه فتكاد تسحقه سحقاً . ذلك لأنه تلقّى في المساء أمراً من وزارة الحربية بأن يمثل في الساعة السابعة صباحاً لدى اقرب دائرة اليه من دوائر التجنيد ليجري تصنيفه في الجيش. لقد كانت الجبهة في حاجة الى الرجال ، والمدفع ما يزال يطلب المزيد من اللحم البشري .

وأقرب دائرة للتجنيد كانت تبعد عن بيت عباس مسافة ثمانية أميال. وكان عليه ان يقطع تلك المسافة على قدميه ، لأنه كان يعيش في برية منعزلة عن العمران . ولم يكن لديه من وسائل النقل غير حماره . وهذا لو شاء ان يركبه الى الدائرة لما وجد من يرده الى البيت .

وقع الأمر على عباس ووالدته وقوع الصاعقة . وقد تمنت

الوالدة من أعماق قلبها لو ان الله قبضها اليه قبل ان يجربها من جديد مثل تلك التجربة القاسية . فهي ما نسيت بعد ، يوم جاءها الساعي منذ ستة أعوام ببرقية من وزارة الحربية تنعى اليها زوجها الذي قضى في «ساحة الشرف» دفاعاً عن الوطن وعن «الحق والحرية» تاركاً لها أطفالاً ثلاثة – صبيين وابنة – وأملاكاً زهيدة تنحصر في كرم من العنب وبستان من التفاح والزيتون وبيت صغير تداعت جدرانه ، ورث سقفه حتى بات يخشى عليه من الريح اذا هي هبت عاصفة عنيدة .

ولكن الله كان مع الأرملة ، فتمكنت بالكثير من الجهد المضنك ، والحرمان القاسي ، والسهر المستمر ان تدفع الجوع عنها وعن صغارها ، وان لا تقع واياهم في فخاخ المرابين . فقد كان من حسن طالعها ان بكرها عباس شب على أخلاق والده الرضية وعلى ولعه الفطري بالأرض ، وطموحه الى النهوض أعلى فأعلى . فما انقضت ست سنوات على وفاة والده حتى زاد في غلة الأرض بضعة أضعاف ، ورمم البيت ووسعه ، واقتنى بقرتين ، وأرسل أخاه واخته الى المدرسة ، وراح يفكر في الزواج لعل زوجه تحمل قسطاً من متاعب والدته . وفي الواقع خطب عباس ابنة فلاح من الفلاحين الأثرياء في الجوار ولما يتجاوز التاسعة عشرة . وكان منهمكاً في إعداد العدة للعرس

حين جاءه الأمر بالالتحاق بالجيش .

يا لها من ليلة مرة أمضاها عباس ووالدته من غير ان يغمض لهما جفن . فقد بات كل ما بنياه بالكد والتقتير مهدداً بالانهيار والتلاشي . ومن يدري أيعود عباس من الحرب أم لا يعود ؟ واذا عاد أيعود رجلاً كاملاً ام نصف رجل ام حطاماً من رجل؟

*

بدت طلائع الفجر في الأفق ، وسرت رعشة في الغابة المخضبة بألوان الخريف ، وغلملت العصافير على أفنانها عندما ادرك عباس آخر الغابة . فوقف ليرسل التفاتة في اتجاه البيت الذي غاب عن ناظريه . وقد حز في نفسه كثيراً انه لم يقبّل اخته الصغيرة قبلة الوداع ، وفاته ان ينبّه أمه الى ان بقرتهم السمراء توشك أن تضع مولودها الأول . فلا بد من السهر عليها في الليل ومن مراقبتها عن كثب في النهار . فتنهد عميقاً ثم هتف عالياً : «ربي وإلهي !» وانهمرت الدموع من عينيه قسر ارادته فما استطاع وقفها .

ولشد ما ذعر عباس عندما سمع هتافه عائداً اليه من خلفه . فالتفت واذا برجل منطرح تحت شجرة يحاول النهوض فلا يتمكن منه بسهولة . ثم سمع الرجل يخاطبه من غير أن ينظر اليه . فكأنه كان يخاطب نفسه :

«لقد ارسلك الله لتقيل عثرة عاثر . اعطني يـدك يا بني . ربي وإلهي !»

تقدم عباس من الرجل ومد يده المرتجفة اليه. فتناولها وشد عليها قائلاً : «اسعفني من لطفك على الجلوس. لقد يبست ضلوعي من الـــبرد والرضوض . ما كنت احسبني سأتحطم فوق ما تحطمت . ربي وإلهي !»

وأسعف عباس الرجـل . فاستوى جالساً واسند ظهره الى جذع الشجرة من ورائه ثم تنهد عميقاً وقال :

– لا . ما كنت اظنني سأتحطم الى هذا الحد. لقد خانتني عيني ، فارتطمت بهذه الشجرة وانا احسبها ظـلاً ، وهويت الى الأرض فكان ما كان .

– وماذا كان ؟

– كان ان انخلعت رجلي الخشبية من الورك وتحطمت . وكان أن وقعتُ على عكازي فانكسر، وأصابتني رضوض كثيرة. فبت ليلتي حيث وقعت. لقد خانني ضوء القمر كذلك .

والتفت عباس فأبصر رِجلاً خشبية مطروحة على الأرض وابصر على قيد باع منها عكازاً مكسوراً . وعندما تأمل الرجل ملياً تبين أنه بعين واحدة وذراع واحدة ورجل واحدة . وانه من العمر ما بين الاربعين والخمسين. وانه كان فيما مضى على جانب كبير

من متانة البنية وجمال الصورة .

كان الرجل يتكلم لاهثاً من الاعياء ، ولكن من غير ان يكون في صوته اقل أثر للتبرم والشكوى. الأمر الذي اثار في قلب عباس شفقة ممزوجة بالاعجاب . فما كان يدري كيف يخاطبه . الا انه رأى أن يطرح عليه سؤالاً من باب المجاملة والملاطفة :

– من أين ، يا عماه ، والى اين ؟

– لا بل قل لي أنت من اين والى اين ؟ ان صفحتي توشك ان تنطوي – بل انها انطوت . اما انت فما تزال من حياتك في المقدمة . فمن اين والى اين ؟

– من الحقل والى الحرب .

– الى الحرب ؟ ! م – م – م ! لقد طالتك اليد المخضبة بالدماء – طالتك يد الجيش ...

– اجل . انا ذاهب للالتحاق بالجيش .

– أذاهب انت بارادتك ام قسر ارادتك ، يا بني ؟

– بارادتي ؟ ! وهل من يترك أهله وبيته ويمضي الى الموت بارادته ؟

– ارادة من ، اذن ، ساقتك من بيتك الى حيث انت ذاهب ؟

– ارادة الدولة والذين في ايديهم تصريف شؤونها .

– ومن أين للدولة الحق بأن تسوقك الى الموت رغم أنفك؟ ألعلها وهبتك الحياة لتتصرف بها على هواها ؟

– ولكنها تحمي حياتي ، وتحمي بيتي ، وتحمي حريتي .

– ولأنها تحمي حياتك وبيتك وحريتك اصبح من حقها ان تسلبك حياتك وبيتك وحريتك ساعة تشاء ؟ يا لغدر الحارس الذي يقضي على محروسه ! اما كان خيراً للحمَل لو لم يحرسه الذئب ؟

– ولكنني ان متّ ففداء الوطن وفداء الذين يحيون من بعدي . لعلهم يتذوقون طعم السلم الذي حُرمته والحرية التي لم انعم بها .

– هه . هه . فداء الوطن ... ألا تقبل نصيحتي يا بني ؟

– وما هي نصيحتك ؟

– عد من حيث أتيت . تلك هي نصيحتي اليك . عد من حيث أتيت .

– ولكنني أعَدّ اذ ذاك عاصياً على الدولة ... وجزاء العصيان السجن او الموت ... ومن انا لأعصي الدولة ؟

– الدولة . وما هي الدولة ؟ انت الدولة ! انا الدولة ! لولاي ولولاك ولولا غيرنا من الناس لما كانت الدولة . لقد

تضامناً على الحياة وفطءُ ما تضامنّا على الموت . ومتى أصبحت الدولة مورد حتوف لا مورد حياة للناس فلا كانت الدولة ولا كان الناس .

وبغتة انتفض الرجل وبسط كف يده الصحيحة على الأرض وطوى رجله السليمة كمن يهم بالوثوب . ولكنه ما استطاع ان يرتفع عن الأرض اكثر من شبر او شبرين. فغمغم وتفل وعاد فالتصق بالـــتراب . ثم التفت الى عباس بعين تقدح شرراً واستطرد فقال :

« دعيتُ الى الحرب قبلك . وكنت جاهلاً فلبيت . ولقد فديت الوطن برجل من رِجليَّ ، والسلم بذراع من ذراعيَّ ، والحرية بعين من عينيَّ . وها انا لا وطن ولا سلم ولا حرية . ما كنت املك من حطام الارض شيئاً . وكل ما كنت املكه شباب غض ، وآمال خضر ، وشغف بالحياة مـا بعده شغف . وها هم الذين فديت شبابهم بشبابي ، وآمالهم بآمالي ، وحياتهم بربيع حياتي . ها هم الذين فقدت لذة الحياة لتبقى لهم املاكهم يتهربون مني ، ويتقززون من منظري . فما اجد لي عنـدهم طعاماً ولا كساء ولا مأوى إلا ببذل ماء الوجه وعصر القلب ومحق النفس .

« لقد ضحيت بوطني وسلمي وحريتي ليكون لك ولأمثالك

وطن وسلم وحرية . وها انت وامثالك تساقون – كما سيق امثالي من قبلكم – الى حيث الوطن جحيم والسلم حرب والحرية عبودية. فيا لضياع ربيع الحياة، ويا لضياع العظام التي انسحقت، والدماء التي انهدرت ، والأرواح التي تبعثرت هباء في الفضاء ! اذا كان كبار الارض واولياء الشأن فيها جادين في زعمهم بأن الحرب تضمن السلم، والموت يكفل الحرية، فهم لا شك بُلْهٌ. وان كانوا عابثين فهم لا شك مجرمون .

«ليردوا اليّ رِجلي ويدي وعيني . ليردوا اليّ كرامتي . ليردوا إليّ زهو الحياة وليأخذوا كل ما في الأرض من اوطان. فما من وطن يوازي رِجلاً تعدو وترقص، ويداً تقبض وتعمل، وعيناً تبصر وتحلم!

«أيريد كبار الأرض ان يبتاعوا سلمهم بالدم ؟ فليبتاعوه بدمائهم ! أيريدون حرباً لصيانة أملاكهم ؟ فليخوضوا غمارها هم ! أيريدون حرية لأفكارهم وقلوبهم ؟ فليبنوا صروحها بأفكارهم وقلوبهم في افكارهم وقلوبهم ! أما أنا وأنت ، يا بني ، فما شأنهم منا يسوقوننا بالاسواط وأعقاب البنادق لنقاتل أُناساً مثلنا لا عرفناهم ولا عرفونا فما أبغضناهم ولا ابغضونا. فنخرب ديارهم ويخربون ديارنا . وننهش لحومهم وينهشون لحومنا . ونهدر دماءهم ويهدرون دماءنا ؟ ما لتلك الغاية وُجدنا . بل وُجدنا

لنحيا ، ولنحب الحياة ، ولنقهر الموت بالحياة .

«عد من حيث اتيت ، يا بني : فالحياة كنز لا توازيه كل جواهر الارض وكنوز السماء ...»

*

واطبق الرجل شفتيه وعينيه من شدة الاعياء. فارتبك عباس ولبث بضع دقائق في حيرة صامتة . ثم تنحنح وقال :

ـ انتظرني ريثما أذهب وآتيك بحماري فأحملك عليه الى بيتي .

ولكن الرجل لم يفه بكلمة . ومضى عباس يعدو . وبعد ساعة عاد ومعه الحمار . فلم يجد للرجل أثراً الا العكاز المكسور والرِّجل الخشبية المحطمة .

التوبة

– قل : « تباركت الحياة ! »

قلت : « تباركت الحياة ! وماذا بعد هذا التبريك ؟ »

قال : « اتذكر كم نهيتني عن الصيد فما انتهيت ؟ »

قلت : « أذكر .. ألعلك انتهيت اليوم ؟ »

كان محدثي رجلاً تخطى الاربعين، صبيح الوجه، ناعس الجفن، لطيف المبسم ، خفيف الظل والحركة . وقد اشتهر الى رشاقته في الصيد ، بصفاء سريرته ، وسخاء كفه ، وعفة لسانه ، ورقة قلبه. والحكايات التي يرويها الناس عن عطفه الجميل على الحيوان كثيرة وطريفة . منها أن هرة في بيته انكسرت رجلها ، فكاد يعادي كل من في البيت عندما قر رأيهم على التخلص من الهرة باغراقها في النهر . وعكف عليها يداويها ويتداركها بالأكل والشرب حتى انجبر كسرها .

ومنها ان دجاجة من دجاجاته اصيبت بالعمى. فما كان منه الا ان بنى لها قناً خاصاً بها وراح يخدمها بنفسه فيطعمها ويسقيها من يده، ويأتيها بالاعشاب الندية التي تحبها، وينظف لها مرقدها،

وقد حرم لحمها على نفسه وعلى زوجه واولاده . وما انفك يعولها حتى انتقلت الى جوار اسلافها ، فدفنها باحترام وخشوع . ويقال انه بكى فوق مدفنها .

ومما اشتهر عنه كذلك انه ، على وفرة صيده ، ما كان يذوق شيئاً مما يصطاده . واذا سئل في ذلك كان يجيب : « سبحان الله . ان يدي تطاوعني على القتل ، اما فمي فلا يطاوعني على أكل ما أقتل . حسبي ان اقتل . وحسب غيري ان يأكل . »

ولأنني عرفت الرجل عن كثب وخبرت ما فيه من فطرة طيبة ، كنت كلما اجتمعت به وأصغيت الى احاديثه الاخاذة عن مغامراته في الصيد أبدي له دهشتي للتناقض الغريب في طبيعته . فبينا هو ينفطر قلبه لدجاجة عمياء او قطة عرجاء ، اذا به لا يعرف لذة تفوق لذة البطش بحجل او بأرنب او بغزال .

لقد حاولت جهدي ان اصرفه عن الصيد فما افلحت . واذكر انني قلت له مرة على سبيل التهويل ان الحياة من شأنها ان تتقاضانا وجعاً بوجع ولذة بلذة . فنحن نتوجع ونتلذذ على قدر ما نسبب لمخلوقات الله وجعاً او لذة . ولذلك قيل من قديم الزمان : « عين بعين وسن بسن . » الا انه ما أبه لقولي بل راح يحك في رأسه على مهل ثم قال ببرودة متناهية : « الصيد حلال .. وما من لذة عندي تفوق لذة الصيد . »

وقد سألته غير مرة ان يحلل لي تلك اللذة من أين مصدرها: اهو في التفتيش عن المجهول، ام في الحيلة البارعة يحتال بها الصياد على العصي فيذلله ، وعلى القصي فيدنيه؟ ام انه في الرياضة البدنية التي يفرضها الصيد على الصياد ؟ فكان جوابه في كل مرة ان لذة الصيد عنـده هي في كل ذلك وفي مشاعر اخرى تستعصي على التحليل. ومنها لذة الانفلات من هموم المعيشة، ولذة الانطلاق مع الطبيعة حيث يتاح له ان يتنشق عبير الصخر والتراب، والريح والسحـاب ، وان يسكر بأهازيج الاسحار والاغساق ، وان يغتسل بعرقه، وان يسمع دقات قلبه، وهو يعدو خلف طريدته.

ثم ينهي حديثه بهزة من كتفيه ويتمتم :

— م — م — م ! الصيد متعة نادرة لا يعرفها الا الصياد . هو عيـد اي عيد للروح والبدن معاً . ويا ويلي يوم يمسي هذا البدن رهين جدران اربعة .

*

مر كل ذلك في خاطري بسرعة البرق ساعة جاءني ابو مروان يطلب الي ان ابارك معه الحياة ويذكرني بما كان بيني وبينه بشأن الصيد . وقد اشتممت في لهجتـه ان تغييراً قد طرأ على تفكيره . فقلت :

— ان في عينيك لخبراً يا أبا مروان . هات ما عندك .

فأمسك بذقنه وأطرق هنيهة، ثم اخذني من يدي، واجلسني على حجر بجانبه ، وتنحنح وقال :

– اسمع.. افقت صباح امس مذعوراً من حلم رأيته في المنام، فقد حلمت انني ارديت حجلاً. وعندما لممته عن الارض وجدت ان رمقاً ما يزال به ، فاستللت سكيني وذبحته. واذا به يتحول بغتة في يدي طفلاً آدمياً ذبيحاً، واذا بذلك الطفل ولدي الأصغر فؤاد وله من العمر اربع سنوات. وانت تعرفه وتحبه . ولعلك لا تعرف انه يكاد يكون معبودي من بعد ربي. وكنت عازماً على الذهاب الى الصيد في ذلك الصباح ، فكاد الحلم يثنيني عن عزمي . ولكنني عدت فانتهرت نفسي لما ابدته من ضعف اذا هو لاق بامرأتي فانه ما كان يليق بي . وأخذت زادي وعدتي وانطلقت . وقبل ان اجتاز العتبة لحق بي فؤاد وهو يصيح : « بابا . بابا ! » فرفعته الي وقبلت عينيه وجبهته ووجنتيه وسألته ماذا يريدني أن أجلب له معي . فكان جوابه : « حجل تبيل – اي كبير – تبيل – تبيل ! » واشار بيديه الاثنتين الى حجم الحجل الذي كان يريدني ان آتيه به .

« اتصدق يا صاحبي انني صرفت النهار بطوله أهبط وادياً واتسلق جبلاً ، فما توفقت حتى الى ريشة من حجل ؟ لا . لم يكن السبب قلة الحجال ، فقد عثرت على الكثير منها . وقد

اطلقت لا اقل من عشرة عيارات على عشرة حجال فما اصبت واحداً منها. لو ان غيري اخبرك ذلك عني لسفهته من غير شك. فأنت تعرف ان ابا مروان لم يتقن شيئاً في حياته اتقانه الرماية. ولكن يدي وعيني كانتا في نفار ، وما كنت ادري السبب. حتى بت أعتقد ان ذلك الحلم المزعج قد فعـــل فعله بأعصابي وافكاري عن غير علم مني. فما زادني ذلك الاعتقاد الا حنقاً على نفسي. لقد كنت ارفض ان اسلم بقولك ان للحياة موازين غير موازيننا ، وان فينا قوى باطنية تدفعنا على اعمال وتردعنا عن اعمال من غير ان نعرف لماذا تدفعنا ولماذا تردعنا. وانه من الخير لنـا ان نتفهم تلك الموازين فنتبناها ، وتلك القوى فنطاوعها.

« مالت الشمس الى المغيب وليس في جعبتي حتى ولا عصفور. فحز في نفسي أن اعود الى البيت وان يلاقيني فؤاد وليس في يدي حجل « تبيل ». لقد كنت اوثر أن تحذف سنة من عمري – بل عشر سنوات – على ان اقابل ولدي الصغير تلك الليلة بيدين فارغتـين. وكم تمنيت لو كانت لي قدرة يشوع بن نون – الذي ورد ذكره في التوراة – لأوقف الشمس وأمد في عمر النهار ساعة او ساعتين لعلني اوفق الى اصطياد حجـل او طائر آخر يستعيض به ولدي عن الحجل.

« أخيراً غُلبت على امري . وعدت ادراجي والخيبة تنهش قلبي نهشاً ، والحلم اللعين يقفز في رأسي وامام عيني. وقد ايقنت انه كان السبب الوحيد في فشلي الذريع . اما كيف كان ذلك ولماذا ، فما كنت ادري ولا كنت احاول ان ادري .

« وانا كذلك ، وقد هممت ان افرغ بندقيتي واعلقها في كتفي، وان أجدّ في السير مخافة ان يدركني الظلام في الجبال، اذا بثعلب يطفر من بين الاشواك عند عطفة في الطريق ... فأرديته في الحال لا طمعاً بجلده ، فجلود الثعالب ، كما تعلم ، لا تنفع لشيء في هذا الفصل من السنة . ولكنني ارديته تشفياً من الطبيعة التي عاندتني كل ذلك النهار وتشفياً من نفسي . ومن ثم فقد كنت اريد ان استعيد ثقتي بعيني وبيدي وان أزحزح عن فكري كابوس ذلك الحلم المزعج .

«عدت الى حيث وقع الثعلب واذا بثلاثة جراء صغار تطفر من بين الاشواك وتتغلغل ما بين الصخور القريبة . فأدركت للحال انني قتلت أماً لثلاثة بنين ، بل قتلت اماً وبنيها الثلاثة ، فقد كانوا قاصرين عن تحصيل رزقهم بدونها . واحسست كأن حراباً تطعنني في قلبي وعصياً تنهال بالضرب على رأسي. ولكن اوجاعي ما لبثت ان انقلبت دهشة، ثم قشعريرة، ثم غبطة عندما ادركت الثعلبة القتيلة فوجدت في فمها حجلاً كبيراً، ووجدت

أن الحجل ما يزال على رمق من الحياة .

« لا تسلْ عن الافكار والاحاسيس التي تجاذبتني في تلك اللحظة. لقد ارتكبت جريمة فظيعة ، ما في ذلك شك، فهذه ثعلبة ترضع ثلاثة جراء ، وجراؤها عزيزة على قلبها مثلما اولادي اعزاء على قلبي سواه بسواء . ولعلها اذ خرجت في ذلك الصباح من وجارها طلب اليها اصغر جرائها ما طلبه الي اصغر اولادي: « حجل تبيل ! »

ولعلها جالت النهار كله ، مثلما جلته ، فما توفقت الى صيد الا في ذلك المكان وفي تلك الدقيقة. فمن قادني الى ذلك المكان بعينه في تلك الدقيقة بعينها لاسلب الثعلبة المسكينة حياتها ، ثم لاسلبها واسلب صغارها عشاء ليلتهم لأجعله عشاء لصغاري؟ وهل كانت تدري تلك الثعلبة انها عندما اصطادت الحجل ما اصطادته لنفسها ولصغارها بل لي ولابني فؤاد واخوته ؟ اجبني . اجبني اذا كان لديك من جواب . »

ولكنني ما اجبت جليسي بشيء . فتلمظ كمن يأكل شيئاً شهياً ، وعاد الى حديثه فقال :

« ذلك فوق ادراكي . اما العبرة فليست في ما ذكرت بل في انني عندما اخذت الحجل في يدي ووضعت السكين على عنقه ثم ذبحته عاودني الحلم . وفي لحظة خلتها دهراً تراءى لي الحجل

الذبيح في يدي كما لو كان ابني الاصغر . فكدت افقد رشدي ، وكادت روحي تفلت من بين اضلاعي . لا تؤاخذني فالقشعريرة تمشي في بدني الآن .

« ولكنها كانت لحظة لا اكثر عاد من بعدها رشدي الي وعادت روحي فلبستني. وايقنت ان نية ولدي الطاهرة هي التي دبرت كل ذلك كيلا اعود اليه صفر اليدين. فلا جريمة في الامر، ولا مبرر لتقريع الضمير . اما الحلم فما كان غير ضغث من الاضغاث .

«عدت الى البيت شاكراً ربي على الخاتمة الموفقة التي اختتمت بها نهاري. وقد نسيت ــ او تناسيت ــ ان الحجل الذي كنت احمله في جعبتي ما كان من صيدي بل من صيد ثعلبة منكودة الحظ ، وان تلك الثعلبة كانت في الواقع صاحبة الفضل في الفرح العظيم الذي كان من نصيبي ونصيب ولدي عندما ناولته الحجل.

« وشوت زوجتي الحجل . واعطت الصغير فخذاً وبعضاً من لحم الصدر ، والجو حول المائدة جو مشبع بالهرج والمرج . وبغتة صرخ الصغير صرخة المذعور ، وركبه السعال ، واخذ يشهق ويصيح ، ويتخبط بيديه ورجليه ، فأدركنا ان حسكة نشبت في حلقومه ، واننا خاسروه لا محالة اذا لم نتداركه في الحال . ومن حسن حظنا ان جارنا طبيب ، وانه كان في البيت.

« الخلاصة يا صاحبي ان الولد نجا من الموت باعجوبة. وها أنا يرتجف قلبي وتصطك امعائي في داخلي كلما عاودتني صورته وهو يشهق ويتمرغ على الارض ويطلب المدد . »

وسكت محدثي طويلاً. ثم نهض بتثاقل وقال وهو يضع يده في يدي مودعاً :

« قل معي تباركت الحياة ، فهي تعلمنا من حيث ندري ولا ندري . »

قلت : « تباركت الحياة . وهل يعني ذلك انك طلقت الصيد ؟ »

فأجاب بحدة : « اوتشك في ذلك من بعد أن سمعت ما سمعت ؟ »

مسيو الفونس

انصرف المدعوون الى حفلة تدشين القصر الجديد نحو الساعة الثانية والنصف بعد منتصف الليل . وكان مدير الجوقة الموسيقية – وهو فرنسي من كورسيكا – آخر المودعين . فراح يكيل الثناء والدعاء لرب القصر وربته لأنهما اجزلا له العطاء . وطال وقوفه في الباب ، وطال ثناؤه ودعاؤه ووداعه الى حد أن ربة القصر فقدت صبرها ولطفها واتزانها . فقطبت حاجبيها وقالت بلهجة فيها الكثير من السأم والتهكم :

– ألعلك من الذين لا ينامون يا مسيو ألفونس ؟

فما كان من مسيو الفونس الا أن وضع الكمنجة التي كانت تحت إبطه على عتبة الباب . وضعها بمنتهى الرفق والتأني ، وراح يفرك يديه فركاً عصبياً ، ثم أجاب بلسان متلجلج يتصنع الضحك :

– أجل . أجل . وكمنجتي كذلك في حاجة الى النوم . هه . هه .

– واذن تصبحان على خير ، انت وكمنجتك يا مسيو الفونس .

قالت السيدة ذلك وأدارت ظهرها الى الرجل ، ومشت

بخطوات سريعة في البهو الفسيح العابـــق بالطيوب والمتلألىء بالأنوار ، فما لبثت أن غابت خلف باب حجرة مـن حجرات القصر الكثيرة .

عندها عاد مسيو ألفونس الى كمنجته فرفعها الى إبطه، وشد عليها بذراعه ، ومن غير ان يتزحزح من مكانه تنهد وقال كمن يخاطب نفسه :

— ما اقسى القدر !

وبغتة انتبه الى أن رب القصر ما زال واقفاً بالقرب منه ، فأجفـل وارتبك وهمّ بالانصراف على الفور من غير أن ينبس بكلمة . لكنه عاد فرأى من الواجب أن يقول شيئـاً — وإن تافهاً — ليصرف ذهن صاحب الدار عن شكواه العفوية من القدر وقساوته — تلك الشكوى التي مـا كان يحسب حين فاه بها أن أذناً غير أذنه ستسمعها :

— معذرة يا سيدي . لقد أطلت الكلام . وأطلت الوقوف في الباب . والليل يكاد يشيب . وسيدي ، لا شك ، يقول في قلبه : « ما أثقل هذا الانسان ! »

— لا يا مسيو ألفونس . ولكن ...

— ولكن قد تجاوز مسيو ألفونس كل حدود اللباقة. معذرة يا سيدي ، ونوماً هنيئاً . تصبح على خير .

وهمَّ ألفونس ثانية بالانصراف . ولكن رب الدار استوقفه هذه المرة ليستفسره السبب في شكواه من قساوة القدر :

– أهنالك حاجة أستطيع قضاءها لك يا مسيو ألفونس ؟

– لا يا سيدي . لقد غمرتني بفضلك ولطفك وكل حاجاتي مقضية من كرم الله .

– إذن ما بالك تشكو قساوة القدر ؟

– لست أشكوها على نفسي يا سيدي . فصفحتي انطوت ، أو تكاد . لقد ودعت عامي السبعين منذ يومين .

– لا تشكو قساوة القدر عليك ؟ فعلى من إذن تشكوها ؟

– على الناس . على ...

وتلعثم ألفونس. ثم أخذته نوبة من السعال المصطنع. فأحس رب القصر أن محدثه يريد الافضاء اليه برأي أو بخبر . ولكنه يتهيب الموقف ولا يدري من أي الأبواب يقتحم موضوعه .

– تكلم يا مسيو الفونس . مَن شرب البحر لـن يغص بالساقية – من سهر حتى الثالثة بعد منتصف الليل لن يضيره أن يسهر حتى الثالثة والربع .

قال رب القصر ذلك، ثم عاد فأنّب نفسه على تشوقه الفجائي الى استطلاع ما في ضمير ألفونس . أما كان الأحرى لو ودع وانصرف الى مخدعه الزوجي وترك ألفونس ينصرف في سبيله ؟

ولكن ألفونس – وقد استأنس بما أبداه رب القصر من شوق الى سماعه – عاد فوضع الكمنجة في تأنٍّ على العتبة ، وتنحنح وقال :

– ليعذرني سيدي . انني رجل ابتلاه ربه ببليتين عظيمتين : حب الموسيقى ، وحس باطني مزعج .

فضحك رب القصر لنعت ألفونس حبه للموسيقى بالبلية . وشاقه أن يعرف شيئاً عن « البلية » الثانية فقال :

– وماذا تعني يا مسيو ألفونس بالحس الباطني ؟ ولماذا تنعته بالمزعج ؟

– أعني أنني أحس الأشياء على غير ما يحسها الناس . وذلك يسبب لي الكثير من الانزعاج في علاقاتي مع الناس . مثلاً : ان ما سأفضي به اليك سيزعجك ويزعجني من غير شك . ولكنني لا أستطيع كتمانه لأنني أحببتك يا سيدي ، وأحببت السيدة قرينتك . فأنتما في نظري جديران بكل خير . الا أن الأقدار تقول عكس ما أقول .

عندها فتح رب القصر عينيه وأذنيه وأحس شيئاً من القلق في فكره والانكماش في قلبه .

– تكلم يا مسيو ألفونس . تكلم ولا تخشَ أن تزعجني .

– ليعذرني سيدي . فانا لا أقصد لك الا الخير . ولكن

الأقدار تقصد غير ما أقصد . فقد رأيت الليلة سيدتي ربة هذا القصر تراقص الكثير من الرجال ما بين شبان و كهول .

– وأي بأس في ذلك ؟ ألعلك ما رأيت بعد في حياتك سيدات يراقصن رجالاً ؟

– كيف لا وقد أنفقت أكثر من نصف عمري في السهرات الراقصات ؟ ولكنني رأيت سيدتي ترقص مع شاب طويل ، نحيل ، جميل ، على أنفه نظارتان في إطار من ذهب . فلتحذره !

– ويحك . ذلك الشاب هو شقيقها .

– لست أدري . ولكن ذراعه على خصرها كانت تظهر لي في شكل أفعى كلما وقعت عليها عيني ، وكانت الأفعى تنهشها نهشاً .

– أما كنت ترى مثل ذلك في غير الرجال الذين راقصتهم قرينتي ؟

– أبداً !

– اعذرني يا مسيو ألفونس اذا قلت لك إنك تهذي . فالشاب من خيرة شبابنا . وهو شقيق قرينتي الأوحد. وكلاهما مضرب المثل في هذه المدينة بمحبتها كل منهما للآخر .

– لست أدري . ذلك ما ابصرته بعيني .

– لعلك شربت من الشمبانيا فوق ما تتحمله كبدك وأعصابك.

– قد يكون . قد يكون . اعذرني يا سيدي .

وانحنى ألفونس فتناول كمنجته عن العتبة وتأبطها . ثم انحنى مودعاً وانصرف .

دخل رب القصر مخدعه الزوجي فألفى زوجته لا تزال يقظى في انتظاره . وعندما أخبرها بما كان بينه وبين المسيو ألفونس كادت تتفتت أضلاعها من شدة الضحك . وشاركها هو كذلك في ضحكها . ثم راحا يستعرضان السهرة ويتذاكران ادوار حياتهما منذ هجرا وطنهما الى البرازيل ، فلا يكادان يصدقان أنهما بلغا ما بلغاه من الثروة والجاه في سنوات معدودات ، وأنهما تمكنا من بنيان هذا القصر الذي ليس له في البلاد كلها من مثيل . حقاً ان الحظ قد خدمهما في كل شيء الا في قضية واحدة . فهما بدون ذرية. وبقيا يتذاكران الماضي والحاضر الى أن اشتدت وطأة النعاس على اجفانهما ، فاستسلما للنوم .

*

بعد اسبوع كان القصر يعج بوفود المعزين . وكانت ربة القصر المجللة بالحداد من أم رأسها حتى أخمصيها، تتقبل التعازي بعينين مقرحتين وقلب كسير ، والى جانبها شقيقها وقد بدا كما لو كان أشد حزناً منها على زوجها الذي قضى في حادث مروع من الحوادث التي تطرأ على السيارات وراكبيهـا . والذي شاع عن وفاة

الرجل انه خرج وحده للنزهة في سيارته . وقد أصر عـلى أن يسوقها بيده . والمعروف عنه انه كان من أمهر من امسك بمقود سيارة . وفي اليوم التالي وجدوه والسيارة محطمين أشنع تحطيم في قاع وادٍ سحيق تمر الطريق في أعاليه. وبعد الفحص والتدقيق استنتجوا أن عطـلًا طرأ على مقود السيارة إذ بلغت عطفـة في الطريق ، فتدهورت في الوادي السحيق ، وكان ما كان .

*

وفي مقهى منزوٍ متواضع من مقاهي المدينة كان المسيو ألفونس وأربعة من مواطنيه الكورسيكيـين يشربون الجعة ويتندرون بأخبار الساعة . وكان أن جرهم الحديث الى مقتل صاحب القصر. فقال ألفونس :

– لقد تنبأت بوقوع هذا الحادث منذ أسبوع .

وعندما قرأ الدهشة على وجوه سامعيه ، تابع كلامه قائلًا :

– وأنا أعرف الذي قتله. ولكنني لا أستطيع أن ابوح باسمه، إذ ليس من شهود . ولو أنني أفضيت الى النيابة العامة بما أعرف، ومن أي السبل عرفته ، لما صدقتني النيابة . وقد تحسب أن لي ضلعاً في الجريمة ، فتزجني في السجن .

وأراد ألفونس أن يتوقف في حديثه عند ذلك الحد. ولكن جلساءه راحوا يطلبون المزيد بالحاح . فاستأنف الكلام وقال :

– إنني رجل ابتلاه الله ببلايا ثلاث: حب الموسيقى، والحس الباطني المزعج ، والتقاط الأحلام العجيبة في المنام . ففي الليلة السابقة للحادث أبصرت في نومي سيارة تجري في بطن وادٍ وليس فيها غير سائقها . ثم رأيت السيارة تتوقف لتلتقط رجلاً كان يمشي وحده في اتجاه معاكس لسيرها . وركب الرجل الى جانب السائق . وعندما بلغت عطفة على شفير هاوية ، توقفت السيارة كأن عطلاً طرأ على محركها أو على مقودها . فنزل منها الرجل الغريب ، والتفت ذات اليمين وذات اليسار ، ثم دفعها بكل قوته الى الهاوية – ذلك ما رأيته في نومي .

فسأله أحد الأربعة بشيء من الدهشة :

– أتعني أن الرجل لاقى حتفه على الشكل الذي رأيته في منامك ؟

– ذلك ما أعنيه بالتمام .

– أوَتعرف مَن هذا الغريب الذي التقطه في الطريق وأركبه بجانبه ؟

– أعرفه . هو ابن حميه – شقيق زوجته .

عندئذ ضحك الجميع من ألفونس قائلين إن شقيق زوجة الفقيد رجل مشهور بثروته ومشهود له بطيب أخلاقه وبمحبته المتفانية لشقيقته وصهره . فليس من المعقول أن يقدم على عمل

كذلك العمل . ومن ثم فلا مسوغ لعمله .

ولم يتمكن المسيو ألفونس من إخفاء امتعاضه من شك رفاقه في صحة تفسيره لمنامه ، ولم يجد حجة يدفع بها شكهم أقوى من أن يقول :

– لكم أن تصدقوني ، ولكم أن لا تصدقوني. أما أنا فواثق مما أقول . ولقد سألت بعض الواقفين على أحوال شقيق زوجة الفقيد فقيل لي إنه يتخبط في ضائقة مالية قد تودي بتاجره الواسعة وتقضي على سمعته ومركزه بين الناس . وان كبرياءه لا تطاوعه على اعلان افلاسه ، ولا على الاستعانة بأصدقائه . فلا عجب أن يكون قد دبر لصهره مثل تلك النهاية كي لا يرقى اليه الشك ، وكي تنتقل ثروة صهره الى شقيقته ، فلا تجد شقيقته من يدير ثروتها غيره . وهكذا ينجو من الافلاس ، من غير أن يدري أحد أنه أشرف على الافلاس . ذلك ما أقدره ، بل ذلك ما أقسم عليه أنه الواقع بعينه .

وسكت ألفونس ، ثم أخذ كأسه بيده . وبعد أن جرع ما تبقّى فيها من الجعة قال بصوت خافت ومن غير أن يرفع بصره الى أحد من جلاّسه :

– تلك هي بليتي : انني أحب الموسيقى. وانني أحس ما لا يحسه الناس، وأرى ما لا يراه الناس – فلا يصدقني أحد من الناس .

هدية الحيزبون

كنا نتنادر الأخبار من باب «اغرب ما سمعت وما رأيت». وكانت بيننا سيدة في السبعين من عمرها مشهود لها بالصدق والرزانة والتقوى، وبحسن الصورة واناقة الهندام. وكانت تصغي بانتباه الى كل رواية تروى، ولكن من غير ان تشترك في الحديث. فكان من الطبيعي ان نلتفت اليها التفاتة ذات معنى عندما افرغ كل منا جميع ما في جعبته فلم يبق امامنا غير الصمت المزعج.

وفهمت السيدة معنى التفاتتنا، فاعتدلت في كرسيها، وردت خصلة من شعرها الفضي الى ما وراء اذنها، ثم ثبتت خاتم الالماس في خنصرها وتنحنحت، فقال أحدنا:

– كلنا آذان مصغية يا سيدتي.

قالت السيدة: «ارجو ان لا يثقل على آذانكم ما سوف ألقيه فيها فيتهمني بعضكم، أو كلكم، بالمبالغة أو بما هو أفظع من المبالغة – بخفة العقل.»

فأجبنا بصوت واحد: «حاشا. حاشا!»

وكأن السيدة اطمأنت الى ما في اصواتنا من صادق الاحترام لها ومن عظيم الشوق الى سماع روايتها، فتنحنحت ثانية ومضت في حديثها :

«ولدت ونشأت في قرية نائية انتشرت فيها الخرافات بأنواعها. وكانت تعيش في جوارنا أرملة عجوز لقبها احد الظرفاء بالحيزبون . فلبسها اللقب حتى بات الصق بها من اسمها الحقيقي. وكانت تسكن كوخاً غاية في الحقارة والقذارة، وكان يُعرف في القرية باسم «بيت الضبعة» . وكان صغار القرية، والبعض من كبارها لا يجرؤون على الدنو منه لكثرة الاشاعات الغريبة التي كانت تحوم حوله وحول ساكنته . ومن تلك الاشاعات ان الحيزبون ، يوم كانت في شرخ شبابها ، تزوجت من أحد انسبائها من غير معرفة والديها ووالديه ورضاهم. فلعنها والداها، مثلما لعن زوجها والداه . ورزق الزوجان اللعينان غلاماً . وذات مساء جاءها زوجها بساحر من المغرب . والساحر اقنعها واقنع زوجها بأن في زاوية من زوايا بيتهما قد دفنت برنية تحتوي ثروة عظيمة من الذهب المسكوك. ولكن الكنز كان مرصوداً على دم طفل ذكر يكون بكر أبويه .

ليس من يجزم بما جرى تلك الليلة في بيت الزوجين المغضوب عليهما. ويجزمون بأن الساحر اختفى قبل طلوع الفجر،

مثلما اختفى الطفل . وقد ادعى الوالدان يومئذٍ ان الساحر خطفه وانهما راحا يطلبانه في كل مكان فما وقعا له على أثر . وبعد أيام شيعت القرية الزوج الى المقبرة . وقد قيل يومئذ ان الرجل مات متسمماً من أكلة جبنة خضراء . وهكذا بقيت ارملته وحدها ، مغضوباً عليها من الجميع وهدفاً للشكوك في براءتها من دم ابنها وزوجها .

عاشت الحيزبون الى ما فوق التسعين . وقد امضت السنوات الخمس الاخيرة من عمرها المديد طريحة الفراش . وذلك على أثر وقعة وقعتها على عتبة بيتها ، كان منها ان انخلعت وركها من الحُق . وليس من يعرف كيف عاشت من بعد وفاة زوجها ، ولا من اين كانت تأتي بما يقوم اودها . على انها اشتهرت بشحها ، وبانطوائها على نفسها ، وببغضها لجميع الناس ، وبأنفتها البالغة حد الكبرياء . فما قيل عنها انها قبلت إحساناً من أحد ، إلا من بعد ان لزمت فراشها ولم يبق في امكانها ان تعول نفسها . فقد باتت تقبل المعونة من بعض جاراتها اللواتي اخذتهن الشفقة عليها في محنتها ، فرحن يقدمن لها ما تيسر من الزاد والخدمة لوجه الله الكريم .

*

كنت في العشرين من عمري عندما جاءني ذات صباح من

يقول لي ان الحيزبون تطلب مقابلتي وتلح في الطلب. وكان ذلك قبل موعد زفافي بيوم واحد. فارتجفت امعائي في داخلي، وانقبض قلبي، وتعوذت من الشيطان. اذ ان مجرد التفكير في «بيت الضبعة» كان كافياً لنشر القشعريرة في بدني. فاعتزمت الرفض. إلا انني عدت فخجلت من نفسي وقلت: لعل لها حاجة لا يستطيع قضاءها غيري. فالرفض عيب وحرام. ولماذا الجزع؟ فالحيزبون طريحة الفراش، ولا يُعقل ان تنوي بي سوءاً. وبالنتيجة ذهبت.

دخلت على العجوز فألفيتها جالسة في فراشها الممدود على الأرض، وقد سندت ظهرها الى حائط تفشت الرطوبة من اعلاه حتى اسفله. ووجدتها تنكت بالملقط رماداً في موقد بالقرب منها، كأنها تفتش فيه عن جمر ولا جمر فيه. ولولا أنني تمالكت نفسي لصرخت من الذعر حالما وقع بصري عليها. فشعرها الأشعث وقد تدلى خصلاً على كتفيها وجبينها، ووجهها المتقلص المتجعد وقد علته صفرة الموت، وعيناها الصغيرتان، الذاويتان والغارقتان في محجريهما فكأنهما تنظران اليك من خلال ابديات سحيقات، واصابعها التي لم يبقَ عليها الا الجلد، وقد طالت أظافرها وانحنت فكأنها المخالب، ولحافها وفراشها ووسادتها وقد مزقها طول الاستعمال وسوّدها الوسخ، والحصير

الذي تناثر قشه فانكشفت من تحته بقع من التراب ، والعتمة الغبراء المثقلة بروائح النتن والعفن ، وجدران الكوخ المتداعية وسقفه الادخن – كل ذلك كان كفيلاً بأن يبعث الرجفة في بدن فتاة مثلي .

لست ادري من اين جاءتني القوة العجيبة للتغلب على الذعر الذي ضيّق علي انفاسي. ولعلها جاءتني من صوت الحيزبون نفسها حالما نادتني باسمي وقالت : اقتربي يا بنيتي . اقتربي مني ، لا تخافي . فسألتها وفي قلبي موجة عارمة من العطف عليها :

– أجائعة انت ؟

فجاءني جوابها بصوت متقطع ، خافت ما كدت أسمعه :

– شكراً يا بنيتي . لم يبقَ بي من جوع إلا الى الموت – وقد أصبح على قيد انملة مني – والا الى حاجة لن يقضيها لي غيرك . أتعدينني بقضائها ؟

قلت :

– ارجو من صميم قلبي أن يكون قضاؤها في مستطاعي .

قالت :

– بلغني انك ستزفين غداً الى شاب على جانب كبير من العلم والثروة . انتِ اهلٌ لكل خير يا بنيتي . وفقك الله . والجيرة تقضي بأن أقدم اليك هدية . إلا انني لا املك ما

اهديه اليـكِ . وأملك القحة لأطلب منكِ هدية . فهل تبخلين بها عليَّ ؟

قلت بشيء من اللجاجة :

– وما هي ؟

قالت :

– اريد منـك اولاً أن تطبقي أجفاني بيديك الناعمتـين عندما يدركني الموت . واريـد منك ثانياً ان تطبقي فمي على شيء من الذهب – على ليرة واحدة لا أكثر. ولا ذهب عندي . وعندك منه الشيء الكثير . هل تستطيعين ذلك ؟

قلت وقد أدهشني طلبها :

– اذا أنا لم أستصعب طلبـــك فاني استغربه . واستغربه جداً . فما قصدك من اطباق فمـك على شيء من الذهب في ساعة الموت ؟

عندها لمحت ما يشبه الـبريق في عيني العجوز ، وأبصرت جسدها المتهدم يهتز كأن قد مسه تيار من الكهرباء ، ثم سمعتها تقول و كأنها تهذي :

– بي جوع ، بي نهم ، بي لهفة الى الذهب . اجمـل ما في الأرض ، وأبقى ما في الأرض ، وأثمن ما في الدنيا – الذهب . الذهب سيف . الذهب جناح . الذهب عز . الذهب سلطان .

في الذهب الحق . في الذهب العدل . في الذهب القوة . في الذهب الخبز والخير . كلٌ يعبد ويعشق على هواه . وقد عبدت الذهب وعشقت الذهب ، واي غرابة في ذلك ؟ أما رضي ابراهيم ان يقدم ابنه ذبيحة لربه ؟ وأنا قدمت ابني الوحيد ذبيحة للذهب . فهو ربي . فما شأن الناس معي ؟

« في هذا الكوخ ذبح ابني وبكري ووحيدي . ذبحه الساحر من المغرب . وللحال ابتسم معبودي لي عندما انكشف الكنز للساحر : برنية ملأى بالدنانير الذهبية . رأيتها بعيني ولمستها بيدي . ولكنني اشتريتها بدم وحيدي وبكري . وكنت وزوجي قد تعهدت للساحر المغربي ان نؤدي له ثلث الكنز . فشقّ عليّ وعلى زوجي ، وقد اصبحت الدنانير في حوزتنا ، ان نفرط بواحد منها . وهكذا ذهب المغربي كذلك ضحية الكنز الذي اكتشفه . وقد حفرنا للضحيتين جدثاً واحداً في ارض هذا الكوخ . هناك ، هناك ، في تلك الزاوية .

« ذلك المغربي لعنة الله عليه . تفقدنا البرنية من بعد موته فاذا الذي فيها رماد . لقد حول الذهب الى رماد . لعنة الله عليه . وعندما طار الذهب طار عقلي . ألعلني ما اشتريت بدم ولدي إلاّ حفنة من الرماد ؟ جننت . نعم ، جننت . ولو حل ما حل بي بقديس او بملاك لجن جنونه . ومن لا يفقد رشده وقد

ابتاع ذهباً ومجداً وعزاً بدم ابنه الوحيد ، فاذا بـه لم يتمع في الواقع الا حفنة من رماد ؟ وهل يلومني لائم اذا انا سممت زوجي من بعد ذلك ؟ ما نفع الزوج ، ما نفع العالم ، ما نفع الدنيا من بعد ان قهرني ذلك الساحر اللعين في اعز ما عندي . في ابني وفي الذهب الذي ابتعته بدمه ؟

«سبعون عاماً . سبعون عاماً بنهاراتها ولياليها انفقتها ولا رفيق لي إلا ذهبي المترمد ورفـات ولدي الذبيح والساحر الذي سبب ذبحـه . لا يقشعرن بدنك يا بنيتي . اتفلي في وجهي اذا شئت . اركليـني اذا شئت . قولي فيّ كل كلمة شنيعـة . ولكن رجوتـــك بأعز عزيز لديك ان لا تخيبي طلبي ، وان تأتيني بليرة ذهبية تطبقين عليها فمي. فالذهب مفتاح كل شيء . مفتاح الجنة كذلك . لعلني ، وقـد خسرت الدنيا ، اكسب الآخرة .»

وانخفض صوت الحيزبون الى درجـة الهمس . ولا عجب . فقد كان في ما قالته اجهاد وأي اجهاد للبقية الباقية من الحيـاة في صدرها. أما أنا فانتابني شيء من الغثيان حتى بت اخشى ان يغمى عليّ . وخامرني شعور بأن الحيزبون ما كانت الا جنيـة تحاول ان تصطادني بشباك سحرها . لكنها ما عتمت ان ردت شيئاً من الطمأنينة الى نفسي عندما أشارت بيدها الى زاوية من

زوايا البيت ، وقالت بصوت كله انسحاق واستغاثة :

« لا تخافي يا بنيتي. أنا جيفة ولا خطر مني على أحد . اشفقي عليّ ، رضي الله عليك. هنالك .. في تلك الزاوية. ارفعي جانب الحصير . تحت الحصير قطعة من حبل . شدي بها الى فوق فالغطاء مشدود بها . تحت الغطاء تجدين البرنية . ايتيني بها لأضع حفنة من رمادها في عيني ، هو رماد كنزي ورماد ابني . لا تجزعي . جزاك الله عني كل خير . »

وعملت بإشارة الحيزبون . واذا هناك في الواقع برنية عليها غطاء من جلد . وعندما ناولتها العجوز وهذه رفعت عنها غطاءها ، شهقت شهقة خلت انها اسلمت معها الروح . فالتفتُّ واذا البرنية مملوءة حتى أعالي فوهتها بالذهب الوهاج ! واذ العجوز تحفن حفنة منها بيمينها واخرى بيسارها وتحاول الكلام فلا ينطلق صوتها من حنجرتها . وأخيراً سمعتها تتمتم وكأنها في الرمق الأخير :

— وجهك سعد . وجهك خير. هذه اللحظة تكفّر عن عذاب تسعين سنة. الآن أموت كما كنت أشتهي ان اعيش . لا تذهبي قبل ان تغمضي أجفاني وتطبقي فمي . وهذه البرنية لا تدفنيها معي . خذيها. خذيها. هي هدية الحيزبون لك .. في يوم عرسك.

وانقطع صوت الحيزبون ، وارتخت مفاصلها ، والتوى

عنقها، وانطفأ النور في عينيها ثم شخرت من بعدها شخرة كانت الأخيرة . فاطبقتُ أجفانها وفمها .

وعندما هممت بالانصراف ألقيت نظرة على الذهب في قبضتيها فاذا به رماد ، وفي البرنية فاذا به رماد كذلك . »

•

زلزال

طغى حديث الزلزال على حديث الثورة في سائر البلاد. فمن بعد ان استسلمت العاصمة للثوّار وراحت الملحقات تتبارى في اعلان ولائها لهم اذا بالارض تزلزل زلزالها، واذا بالعاصمة تغدو في طرفة العين أنقاضاً فوق انقاض وقد اندلعت فيها ألسنة النيران مشبوبة بريح عاتية. فقال انصار الثورة : حتى الطبيعة ثارت على الطغاة والمستبدين. وقال مناوئوها : حتى الطبيعة انبرت لمحاربة الأوغاد والمفسدين .

لقد هلك في الزلزال جمّ من البشر غفير، وتلف خير كثير. وكان في جملة الذين كُتبت لهم النجاة زعيم الثورة وقائدهـا الاكبر ، وفتاة قيل انها عشيقته ، ويده اليمنى في جهاده ، والدماغ المفكّر من خلف خططه وحركاته . ومما يروى عنها انها من اسرة عريقة في أرستقراطيتها، وأنها لشدّة تحمّسها للثورة ما ترددت في اعتقال والدها وزجّه في السجن لأنه كان من ألد أعداء الحركة الجديدة وأعنفهم نقداً وتشنيعاً للقائمين بها ، ومن أشد قواد الجيش إخلاصاً للحكومة القائمة وتعلقاً بالنظام القديم.

وهذه الرواية يرويها الناس عنها كانت كافية لتجعل منها شبه بطلة اسطورية ولتكسب لها وللثورة أنصاراً عديدين ، وعلى الاخص بين الفلاحين والعمال والفقراء والمعدمين — وهم الاكثرية الساحقة في البلاد .

تنادى الباقون على قيد الحياة من رجال الثورة للتشاور في ما عساهم يفعلون. فالبلاد في فوضى ما بعدها فوضى بسبب التضعضع الناجم عن الزلزال؛ والثورة في خطر وزمام الامور يكاد يفلت من أيديهم . ومما يزيد في تعقد الحالة أن زعماء العهد القديم ، ومن بينهم والد الفتاة، قد استعادوا حريتهم اذ تمكنوا — بفضل الذعر والقلق والفوضى التي اشاعها الزلزال — من قتل حراس السجن وتحطيم ابوابه والفرار بأرواحهم. وهؤلاء ما داموا طليقين فلا يؤمَن كيدهم . وقد يقلبون الاحداث رأساً على عقب فيعيدون كل شيء الى ما كان عليه ، بل الى اسوأ مما كان عليه ، وينكلون برجال الثورة افظع التنكيل . إذن لا بد من تعقبهم اينما كانوا، ولا بد من ردهم الى السجن ليحاكموا فيما بعد ويشهروا أمام الشعب. وان تعذر ذلك فلا مناص من قتلهم. وقد أجمع الكل ، وفي رأسهم الفتاة ، على ان والدها يجب ان يكون في مقدمة المطلوبين للمحاكمة — أو للموت . اذ انه ما برح ذا نفوذ عظيم في البلاد، بالنظر لاعماله الحربية الباهرة التي اكسبته شعبية

واسعة بين الجماهير . وبعد أخذ ورد تكفلت الفتاة لرفاقها بأن تأتيهم بوالدها حياً او ميتاً .

خرجت الفتاة من الاجتماع وقد تهيأت لها الخطة المثلى للقيام بالمهمة الموكولة اليها. فتزيت بزي شاب قروي واكترت حماراً وسارت في طريق جبلي وعر تقصد ديراً يبعد عن العاصمة مسيرة يومين، وهو يتسنم اكمة في وسط غابة كثيفة الاشجار والادغال. وقد كانت على يقين من ان والدها لجأ الى ذلك الدير لان بينه وبين رئيسه صداقة قديمة ما كان غيرها يعرف عنها شيئاً .

بلغت الفتاة الدير قبيل هبوط الظلام. وطلبت مقابلة الرئيس في الحال . فكان لها ما ارادت . الا أنها كاد يرتج عليها عندما وجدت نفسها وجهاً لوجه أمام راهب طاعن في السن ، هزيل البدن ، منتصب القامة ، أبيض الهامة واللحية ، مخدد الجبين والوجنتين ، كث الحاجبين ، غائر العينين . وقد شاعت في اساريره ابتسامة لطيفة، ناعمة، يشق عليك ان تعرف اين تستقر: أفي الشفتين ، ام في العينين ، ام في القلب ، ام في مكان اعمق وأبعد من ذلك بكثير . قال الراهب بصوت فيه الكثير من الرقة والعذوبة والوقار :

– أهلاً وسهلاً يا ابني . تريد ان تبيت عندنا الليلة ؟

– اشكرك . ولكنني جئت بمهمة .

– وما هي مهمتك يا ابني ؟

– إني أحمل رسالة الى الجنرال فيدوم. ولا بد من تسليمها في الحال .

– الجنرال فيدوم ؟ ومن قال لك انه هنا ؟

– الذي حمّلني الرسالة .

– ولكن... ولكن... من الذي حمّلك الرسالة يا ابني؟

– سأبوح باسمه للجنرال .

– وأنت ما اسمك يا ابني ؟ وهل يعرفك الجنرال وتعرفه؟

– أعرفه ويعرفني .

ارتبك الراهب المسكين وبدا عليه كما لو كان يحاول إخفاء أمر ولكن لسانه يأبى عليه ان يفوه بغير الصدق. وبعد تردد قال:

– انتظرني يا ابني ريثما أعود .

وعاد الراهب بعد فترة ظنتها الفتاة طويلة جداً وفي يده مصباح ضئيل النور ، فرفع المصباح الى وجه الزائر الغريب ، ومن بعد أن تأمله ملياً ، سأله بمنتهى الجد والبساطة :

– هل تحمل سلاحاً يا ابني ؟

فأجابته الفتاة، وقد أقلقها سؤاله المفاجىء، فنمّ صوتها وعيناها عن قلقها :

– كنت اجيبك « لا » لولا أن صدقك يجردني حتى من

سلاح الكذب . إني احمل هذا المسدس .

– لا غير ؟

– وهذا الخنجر ، لا غير .

– هاتهما يا ابني. فأنت هنا في غنى عن اي سلاح. وتعال اتبعني.

ومشى الراهب ومن خلفه الفتاة، على ضوء المصباح اللاهث ، فانحدرا في سلالم ثم سارا في دهاليز ضيقة ، رطبة ، تتعرج في كل ناحية، الى أن بلغا نقطة ينتهي عندها الدهليز بجدار واطىء كأنه حجر واحد . ولشدما كانت دهشة الفتاة عندما رأت الراهب الشيخ يدفع ذلك الحجر العظيم بيده فينفتح عن غرفة رحبة ، ويُسمع لانفتاحه صرير منكر يبعث القشعريرة في البدن والانقباض في القلب . لقد كانت أرض الغرفة مغطاة بالحصر واللبد ، وفي زاوية من زواياها سرير ، وبالقرب منه ، تحت نافذة عالية في الجدار ، منضدة عليها شمعة كبيرة مضاءة وبعض الاوراق والكتب ، وقد جلس اليها راهب ما وقع نظر الفتاة على وجهه حتى عرفت فيه والدها . فكاد الدم يجمد في عروقها ثم يتحول ناراً .

وانغلق الباب من تلقائه ، ولكن بمثل الصرير الذي رافق انفتاحه . وتقدم الرئيس من الراهب الجالس الى المنضدة وقال في هدوء ورزانة :

– ها هوذا الرسول الذي اخبرتك عنه، وقد عملت بوصيتك فجردته من سلاحه .

وكأنه بهذه الكلمات القليلة، البسيطة، قد اشعل فتيل قنبلة ما عتم ان دوّى انفجارها . فما ان تفرس الجنرال في ملامح « الرسول » حتى صاح بصوت كأنه قصف الرعد :

– يا خائنة ! يا اعق البنات ! يا أوقح الوقحات ! يا احط المخلوقات ! أإلى هنا ... أإلى هذا الحد بلغت بك الخساسة ؟ حنانيا... يا أخي حنانيا، كن على حذر. فالدير مطوق بالثوار. لا بد من الفرار . ولكن من بعد ان اشفي غليلي من هذه الخائنة . ولن يموت الجنرال قيدوم الا شريفاً .

وهمّ الوالد بانتشال المسدس من يد الراهب الشيخ الذي كاد يصعق لغرابة ما يشهد وما يسمع . الا أنه احتفظ من الوعي ورباطة الجأش بما يكفيه لصد صديقه عن المسدس والخنجر في يده . ثم ما لبث أن راح يخاطب الوالد الهائج بلهجة وبعبارات ردت اليه رشده وهدأت من ثورة اعصابه. إلا أنه عندما فهم ان الرسول ما كان غير ابنة صاحبه اعترته رجفة وكاد يغمى عليه . ذلك لأنه كان محظوراً على النساء دخول الدير الذي ما داست ارضه قدما انثى على مدى تاريخه المديد . وهكذا انقلبت الآية وعاد الوالد يخفف من هول « المصاب » على صديقه الراهب .

وأخيراً هدأت العاصفة وصفا الجو إلى حد أن الراهب الشيخ حمد ربه وقال لعله عز وجل قد دبر ما جرى بحكمته الفائقة كي يتاح له – وهو الراهب الحقير، العاجز – أن يصلح ما افسدته الايام ما بين والد وابنتـه الوحيدة . وعندها طمأنت الفتاة والدها والراهب بأنها لا تضمر لهما الشر ، وأنها جاءت الدير وحدها ، فهو ليس مطوقاً بالثوار كما توهم والدها . فسألها الاخـير بشيء من الامتعاض :

– اذن ما الداعي لمجيئك ؟

– جئت لأردك إلى صوابـك . ولأقتلك او تقتلـني اذا أخفقت في مهمتي .

– أسمعت أيها الرجل القديس ؟ أسمعت ؟ جاءت تقتلني او تقتل نفسها . وتقول انها لا تضمر الشر ...

حنانيـا : عفواً يا أخي . لا تدعني قديساً . كلنا خطاة . ولكنني بينكما كالضائع لا أفهم ما اسمع ولا ما ابصر. فأنت جئتني تقول إنك مللت العالم ومشاكله وتريد أن تمضي ما تبقّى من عمرك بعيداً عن الناس وقريباً من الله. وها هي ذي ابنتك تأتيني في زي شاب قاصدة قتلك او قتل نفسها إذا هي اخفقت في ردك الى الصواب . ألعلك فقدت رشدك ؟ أم لعلها مجنونة؟ أم أنني انا المجنون؟ لست ادري. نجنـا يا الله من الشيطان وحبائله.

الوالد : دعني أبوح لك بما كان من واجبي ان ابوح به ساعة دخلت هذا الدير . اما بلغك أن ثورة اجتاحت البلاد فأطاحت بالتاج والعرش ، وقضت على الملك ، وشردت عائلته ، ونشرت الذعر والفوضى في كل مكان ؟ فماذا كان عليّ ان افعل — أنا قيدوم الذي وقف حياته على خدمة مليكه وبلاده؟ أكان يليق بي أن أقف مكتوف اليدين فأترك البلاد نهباً لزمرة من الرعاع والمتشردين ؟ لا وربي . لقد فعلت ما يمليه الشرف والواجب . جمعت ما تبقّى من رجال الجيش الذين ما ادركتهم الخيانة وبهم زحفت على الثوار الاوباش وكدت اقضي عليهم وعلى ثورتهم عندما نبتت الخيانة في عقر داري . والله لولا حرمة هذا الدير وحرمة ثوبك وشيبك وصداقتك يا أخي حنانيا لكنت امزق هذه الخائنة تمزيقاً وارمي بلحمها للكلاب. لقد افسدت ابنتي عليّ عملي، واختطفت الظفر من يدي، واوشكت ان تقطع حبل حياتي...

حنانيا : وكيف ذلك ؟ لا اكاد اصدق .

الوالد : صدّق . صدّق . فقد وشت بي الى الثوار ودلتهم على مخبئي . فاعتقلوني وزجوني في السجن ليحاكموني ثم يعدموني ويجعلوا مني مثالاً لغيري من الباقين على ولائهم للعرش وللبلاد. وما كنت ادري ان ابنتي — لعنة الله عليها ...

حنانيا : لا تلعنها يا اخي . لا تلعنها. اللعنة لا تجوز الا على

ابليس . حيث لا تستطيع ان تبارك فلا تلعن .

الوالد : بلى . بلى . لعنة الله عليها . فهي من الابالسة . ما كنت ادري انها على اتصال بهؤلاء الاوغاد. ولا كنت أحسب انني من بعد ان اطعمتها لحم قلبي وأنفقت عليها وعلى تربيتها زهرة عمري وثروتي ، فمكّنتها من الدرس في اعظم الجامعات، أنها ستنسى فضلي ومحبتي، وستنضم إلى أعداء مليكي وبلادي، وستمرغ بالوحل شرفي وشيخوختي، ثم تنتهي بان تسلمني للموت من ايدي رعاع تتقزز نفسي من مجرد النظر اليهم . آه منها آه ! ..

حنانيا : ماذا تقولين دفاعاً عن نفسك يا ابنتي ؟

الفتاة : اترضى أن تكون حكماً بيننا ؟

حنانيا : الحكم لله يا ابنتي .

الفتاة : دع الله جانباً . فقد يكون الملك غير الهي . نحن بشر . واني ، إذا صحّت فراستي فيك ، لن اجد قاضياً له عقل كعقلك ونزاهة كنزاهتك .

حنانيا : استغفر الله يا ابنتي. تكلمي.

الفتاة : ليفهم والدي قبل كل شيء أنني احبه ، ولكن ليس فوق محبتي لنفسي . وانني اقر بفضله عليّ . ولكنه فضل ضئيل جداً اذا ما قيس بما لمجموع الناس عليّ من أفضال . وأحب نفسي لأني احبّ الحياة. ولكن لا قيمة للحياة عندي إلا بما فيها من

طموح أبدي الى الخـــير والعدل والمعرفة والجمال والحرية . ولولا هذه لكان الموت خيراً من الحياة. والذي احبه لنفسي أحبه لسائر ابناء جنسي. وليس يؤذيني شيء في العالم مثلما يؤذيني ان ارى السواد الاعظم من الناس محروماً حقه في العدل والمعرفة والحرية بفضل نظم رثة فرضتها عليه اقلية جائرة، طاغية، رعناء، عمياء.

هنالك بشر – وما أكثرهم في الارض – يزرعون ويحصدون، ولكنهم ابداً جياع . ويغزلون وينسجون، ولكنهم ابداً عراة. ويقتلعون الصخر ويبنون البيوت، ولكنهم بغير مأوى. ويعملون في ظلمات الارض كالمناجذ فيستخرجون منها كل اصناف المعادن، ولكنهم افقر من فأر في كنيسة . لذلك كانت الثورة في لحمي وفي دمي . وكان كل من يقاومها ويحاول ابقاء القديم على قدمه عدوّاً لي ولجميع المغبونين والمضطهدين والمنبوذين والمنسيين والمستعبدين في الارض . ولذلك كان والدي عدوي .

حنانيا : الله يكره الظلم والظالمين يا ابنتي . ولدولة الظلم يوم ثم تدول .

الفتاة : أتدول من تلقائها ؟ ام ينزل الله من سمائه ليبيدها؟ إن كان ربك يكره دولة الظلم فهو من غير شك ، يشد ازر العاملين على محقها ويبارك حتى رصاصهم وقنابلهم . وإن كان ربك يكره الخير والعدل والمعرفة والجمال والحرية لأبنائه فهو

بكرهي احرى منه بعبادتي .

أما ثار معلمك على الباعة الذين جعلوا بيت أبيه « مغارة لصوص » ؟ أما حطم موائدهم وجلدهم بالسياط؟ فعلام تستغرب ثورتي وثورة الناس على شرذمة من الحكام والجشعين والمفسدين الذين حولوا هذه البلاد – بل الارض كلها – الى مغارة لصوص؟

حنانيا : ولكن الله يؤدب بنيه باللطف لا بالعنف . فالقتل في شرعه حرام .

الفتاة : بل قل إنه لا يؤدب بنيه الا بالعنف . وكفاك بالموت مثلاً. فكيف بالاوبئة وبالأعاصير وبالمجاعات وبالزلازل؟ الثورة من سنّة الطبيعة – أو قل من سنّة الله. وهي ترمي الى تصحيح ما اختلّ في توازن الحياة البشرية مثلما يرمي الزلزال الى تصحيح ما اختلّ في توازن الأرض . الثورة زلزال بشري يا أبت . وهي من ناموس ربك شئت أم أبيت .

حنانيا : أعيد القول يا ابنتي إن الله يوصي باللطف لا بالعنف. وبالمحبة لا بالبغض . ولا تنسي أن الانسان من روح الله . فناموسه غير ناموس التراب والنبات والحيوان. الانسان مطالَب بدم أخيه الانسان . وليس كذلك الحيوان . أسمعت بذئب أغمي عليه عند منظر دم ذئب آخر ؟ ولكنك سمعت من غير شك بأناس كثيرين أغمي عليهم لدى منظر الدم يتفجر من عروق

انسان آخر .

الفتاة : وأنا منهم .

حنانيا : إنَّ في ذلك وحده يا ابنتي لعبرة لقوم يعتبرون . الانسان ذو عقل وخيال وضمير وإرادة. وليس كذلك الحيوان. ولكنَّ مثل الأكثرية الساحقة من الناس مثل الذي دفن الوزنة المعطاة له بدلاً من أن يتّجر بها. إنهم يدفنون خير ما حباهم الله من هبات روحيــــة في التكالب والتقاتل على ما يهلك الروح والجسم معاً. ثم يعجبون للأوبئة والمجاعات والأعاصير والزلازل، وللحروب والثورات توردهم حتوفهم قبل الأوان . لقد حبلت الأرض بالآثام والموبقات فلا عجب أن تلد الآثام والموبقات . ولقد استعر قلبها بنيران الباطل فانحجب عن ابصارها نور الحق. وإنه لمن الاثم يا ابنتي أن نرى بيتاً يحترق فنسكب على النـار زيتاً . من أحبَّ الناس يا ابنتي فليخفف من غلوائهم في التهالك على الـتراب ، وليرفع قلوبهم قليـلاً الى فوق – الى السماء – الى الله .

الفتاة : وما هي السماء ؟ وأين هي ؟ ومـــا هو الله ؟ وأين هو ؟

حنانيا : السماء في قلبك يا ابنتي . فأنت كلما فكّرت في الخير وعملت الخير كنت في السماء . والله في قلبـك كذلك

يا ابنتي . فأنت كلما أحببت مخلوقاته كنت فيه وكان فيك .
إنه قوة الحياة في حياتك، وهو معناها الأعمق والأسمى وهدفها الأبعد والأسنى .

الوالد : كفاك يا أخي حنانيا . ويا لضياع وقتك ونفسك .
قد يبتل الصخر بالطل قبل أن يبتل قلب هذه المجنونة بندى قلبك الطاهر . كفاك . وهات قل لي : أين ترى أن تدبر لها مكاناً تنام فيه؟ فمن الجنون أن تعود وحدها الليلة الى العاصمة.

حنانيا : أجل . أجل . ذلك مستحيل. أمن بأس لو قضت ليلتها في هذه الغرفة وانصرفت في سبيلها قبل بزوغ الفجر ؟
وأنا آتيها بفراش ولحاف .

الوالد : لا بأس من جهتي ، وسأحاول أن أعود أباً صالحاً – ولو لهذه الليلة .

الفتاة : ولا من جهتي . وأنا سأحاول أن أعود ابنة صالحة – ولو لهذه الليلة .

ليس من يدري ما دار من حديث في تلك الليلة بين الوالد وابنته . ولكن اهل البلاد ، وقد انقضى على ذلك عام وبعض العام ، ما برحوا يتحدثون عن الفتاة التي اصبحت راهبة في دير، وكانت من اعنف دعاة الثورة ، وعن والدها الذي انضم الى صفوف الثوّار وقادهم الى النصر بعد أن كان خصم الثورة الألد.

الورقة الاخيرة

تمثيلية في فصل واحد

الاشخاص :

سميرة – على عتبة العشرين .

سمير – اخوها . في الثانية والعشرين .

امين – خطيبها . في الخامسة والعشرين .

الوالد – في الخمسين .

الجد – في الثمانين .

المكان : ردهة استقبال في بيت فوق الدرجة المتوسطة.

الزمان : بعيد الحادية عشرة من مساء الحادي والثلاثين من كانون الاول «ديسمبر» . في الخارج تنهمر امطار غزيرة ترافقها ريح عاصفة وبرق ورعد .

المشهد الاول

الجدّ وسميرة

الجد : أما من خبر بعد يا سميرة ؟

سميرة : من اين يا جدّي ؟

الجد : من المستشفى .

سميرة : بلى . بلى . (متلعثمة) لقد جاءنا خبر ان الماما... وضعت ... وضعت غلاماً .

الجد : (بفرح) الحمد لله . ليهنئك يا بنيتي هـــذا الاخ الجديد يأتيك من بعد ثلاثة ما كُتبت لهم الحياة. إنها بشارة خير وطالع سعد للسنة الجديدة .

سميرة : ولكنه ... ولكنه هو كذلك ...

الجدّ : ولكنه ماذا ؟ ولد ميتاً ؟

سميرة : أجل . ولد ميتاً يا جدي !

الجد : (بحرقة وغصة) تبارك اسمك يا ربي ! أنوء بالثمانين ويموت اربعـة من احفادي قبل ان يبصروا النور ! أما كان الأحرى أن أموت ويحيا المولود الجديد ؟

سميرة : (تهرع اليـه وتضم رأسه الى صدرها) جدّي ! حبيبي ! قلبي ! لا تقل مثل هذا القول لسميرة . إنك يوم تموت تموت سميرة معك . لا كان الموت .

الجدّ : (متأثراً) أعيذك بالله يا ابنتي مما تقولين . بل قولي ألف مرحباً بالموت لمن شبع ، مثل جدك ، من الحياة .

سميرة : وأنا كذلك شبعت من الحياة .

الجدّ : أنت ؟! أنت شبعت من الحيـاة وما تزالين على عتبة العشرين ؟ ذلك ضرب من الكفر .

سميرة : ولكنني اؤثر الموت على حياة ليس فيها جدّي .

الجدّ : أنت تبالغين يا بنيّتي في حبك لجدّك على قدر ما تبالغ أمك في كرهه. حتى أبوك يا سميرة — أليس انه ابني ومن لحمي ودمي؟ وهو، مع ذلك، قد أخذ يتبرم بي. وعلى الأخص من بعد أن فقدت بصري .

سميرة : ليت لي أن أعطيك بصري يا جدّي .

الجدّ : لقد أعطيتني ما هو أثمن من العين المبصرة يا بنيتي — أعطيتني قلباً مبصراً .

سميرة : آ. جدّي، جدّي! إنك تلاطفني فوق ما أستحق . أو انك تسخر بي .

الجدّ : معاذ الله يا ابنتي . بل أقول الحقّ .

سميرة : ومن انا — ولست غير فتاة جاهلة — لأعطيك قلباً مبصراً وأنت الكاتب الذي أنارت مؤلفاته آلاف القلوب؟

الجد : صدقي يا سميرة. إنه لولا المحبة التي تنهلّ عليّ شآبيبها من قلبك الطاهر لكانت شيخوختي رزية لا تطاق ولكان كل ما ألفته في حياتي هراء في هراء .

سميرة : هذه مغالاة في التواضع يا جدي .

الجد : صدقيني يا ابنتي . إنه ما هالني يوماً من الأيام ان يُغمض الموت اجفاني. وهالني ان تبلغ بي الحياة شيخوخة كهذه

الشيخوخة ثم أن تغمض عني اجفان الناس فلا يكون نصيبي منهم غير نصيب الليمونة المعصورة .

سميرة : وهذه مغالاة في التشاؤم .

الجد : قوتل الفكر فما اكثر مخاوفه . ولكن الحياة كانت ارفق بي من فكري إذ وصلت أواخر أيامي بأوائل أيامك. فالحمد لله . ثم الحمد لله .

سميرة : واي فضل لي في ذلك وانا حفيدتك ؟

الجد : آ. سميرة، سميرة! الفضل كل الفضل لمن يحب وفي استطاعته ان يبغض . ولمن يعطي وفي إمكانه ان يمسك . ولمن يقبل عثرة عاثر وفي قدرته ان يمضي في سبيله من غير ان يمد الى العاثر يداً . بوركت يا ابنتي فمعدنك معدن كريم .

(يدق جرس التلفون فتمضي سميرة اليه)

سميرة : آلو... وأين أنت يا سمير ؟ .. اما زلتم مصممين على الذهاب حتى في مثل هـــذه العاصفة ؟ .. ذلك ضرب من الجنون ... والبابا هـل هو آتٍ معكم كذلك ؟ .. خفف من حدتك ... سنرى ...

(تسمع قصفة رعد هائلة يرتج لها البيت . سميرة تهرول الى جدها وترتمي مذعورة في حضنه)

جدي ... جدي ! آه ما أقل عقلي وما أضعفني ! إنني أخشى

الرعد ، أخشاه حتى اكاد افقد رشدي .

الجد : لا تخافي يا ابنتي . لا تخافي يا حبيبتي . إنه لعام بروق ورعود هذا الذي سيولد عما قريب . وأبناء هذا الجيل أبنـاء العواصف .

سميرة : لا كانت الوالدة ولا كان المولود ! ألأنّ الارض دارت دورة حول الشمس يفقد الناس رشدهم ويمضون يتوقعون ان تهبط السعادة عليهم في قفة من السماء ؟

الجد : لا تلومي الناس يا بنيتي . فجلهم أولاد يحتالون على قتل ساعة من الدرس بعدّ الازرار في ثيـاب معلّمهم ، أو المسامير في الجدران ، أو الأخشاب في السقف . ولولا أنهم تواضعوا على أساليب لقتل الوقت لقتلهم الوقت .

سميرة : (بحدة) بئست الأساليب يا جدّي .أما كان الأحرى بهم أن يصغوا الى ما يقوله المعلم لعلهم لا يشعرون عندئذ بوطأة الوقت ؟ أوَما كان من الأجدى لهم أن يعدّوا خطاياهم ضدّ أنفسهم وضدّ بعضهم بعض بدلاً من أن يعدّوا الثواني والدقائق والساعات ؟

الجدّ : صحيح ، يا سميرة ، صحيح . ولكن ...

سميرة : أليس من الجنون أن يهرول الناس في ليلة كهذه الليلة إلى حيث يهدرون أموالهم وقواهم هـدراً طمعاً بلذة

يصطادونها في الكاس والطاس ، أو بهم يطردونه بالدف والمزمار ، أو بساعة يتخدرون فيها عن كل ما كان وما سيكون ؟

الجد : جميل منك يا ابنتي ان تفكري تفكير الشيوخ . وليس جميلاً — وأنت في ريّق الشباب — أن لا تتمتعي بلذات الشباب . العبي ، وغنّي ، واطربي يا بنيتي .

سميرة : (بجدة اشد من ذي قبل) وكيف ألعب وأغنّي وأطرب وقلبي يتلفت دائماً أبداً إلى الذين لا لعب لهم إلا مغالبة الوجع ، والذين غناؤهم بكاء ، والذين طربهم قرقرة البطون الفارغة ؟

الجد : دعيك من هذه الأفكار يا ابنتي ، وافرحي مع الناس بالعام الجديد .

سميرة : لا كان عام جديد لا يحمل الشبع للجائع ، والري للظمآن ، والدفء للمقرور ، والعدل للمظلوم ، والبلسم للجريح ، والحرية للسجين ، والبصر للكفيف . ولا كانت هذه المهرجانات السخيفة يحييها أهل العز والبطر وداعاً لعام يموت واحتفاء بآخر يولد .

الجد : (بصوت متهدج من التأثر والعياء) سميرة ! كفاك يا حبيبتي . كفاك يا ابنتي . لقد اصبحت أتمنى لو أطبق أذني إلى الأبد على ما سمعته منك الليلة ، وقلبي على ما أثرته

فيه من مشاعر . ما كنت أدري أنّ ربي كان شفيقاً بي إلى هذا الحدّ عندما جعلني جدّك وجعلك حفيدتي . هاتي اخبريني عن برنامجكم لهذه الليلة . اليس ان سميراً خاطبك منذ هنيهة بهذا الشأن ؟

سميرة : نعم . ولكنني عزمت الاّ اذهب معهم . إنه الجنون بعينه ان نذهب الى نادٍ يعج بالمجانين ، وفي ليلة كهذه الليلة .

(قصف رعد متواصل)

الجد : ألعلّ والدك ذاهب كذلك ؟

سميرة : اجل . وابي كذلك .

الجد : وماذا يقول خطيبك إذا انت تخلفت عن الذهاب ؟ اليس هو صاحب الدعوة ؟

سميرة : ليقل ما يشاء . فرضاه وغضبه عندي سيّان .

الجد : واخوك سمير — انه ولا شك سينقم عليك .

سميرة : وسمير كذلك — نعمته ونقمته عندي على حدّ سواء . ومن كان لها جدّ كهذا الجد كيف تؤثر سهرة في نادي « نبتون » على سهرة بجانبه ؟

الجد : ولكن جدك روزنامة تعرّت من كل اوراقها — إلا الاخيرة .

سميرة : والورقة الاخيرة هي التي اقيم لها اكبر الوزن .

فهي الخاتمة التي ترمي اليها كل فاتحة. والامور بخواتيمها ، أليس كذلك يا جدي ؟

الجد : (ضاحكاً بشيء من الاجهاد) هه . هه . سميرة ! لكأنك في شبابك نسخة عن جدك في شبابه. هه. هه. او تدرين يا ابنتي انني احفظ حتى اليوم الورقة الاخيرة من كل روزنامة منذ ان كان لي من العمر خمس عشرة سنة؟ لا تضحكي من جدّك. هه . هه .

سميرة : ولمن عساك ستوصي بها يا جدي ؟

الجد : لك يا ابنتي . لك . فهي تمثل خلاصات عمري. وها هوذا عمري يتصل بعمرك . فلا انقطاع في الروزنامة . إيتيني بالورقة الاخيرة من روزنامة هذه السنة .

سميرة : (تذهب وتأتيه بالورقة) اليكها يا جدي .

الجد : (يطويها ثم يطوي يده عليها) ها هي ذي خلاصة عمر طوله ثمانون عاماً او ثمانون دهراً او ثمانون لحظة . إنها لوريقة لا اكثر ولكن... لله ما اثقلها يا ابنتي ! فهي تحمل خلاصة كل الزمان منذ ان كان الزمان . والزمان لحامليه اثقل من كل ما في الارض والسماء من اثقال .

سميرة : إي وربي . ثقيل هو الزمان . وانني لأشعر بثقله في قلبي ، وفي فكري ، وفي كل جارحة من جوارحي .

الجد : (بقوة وحماسة) اما انا فقد اعتزمت ان انفض عن كاهلي كل اثقال الزمان. ها أنا ذا انزع الخوف من قلبي، والشك من فكري ، والوهن من جسدي. فأقول للموت : أهلاً وسهلاً. وللمجهول : ستغدو معلوماً . وللماضي والحاضر والمستقبل : أنا الماضي ، وأنا الحاضر، وانا المستقبل. ها أنا ذا امزق هذه الورقة الأخيرة من وريقات عمري. (يمزقها نتفاً نتفاً) هكذا . هكذا ! (ينهض عن كرسيه ويتابع بصوت عالٍ ينخفض رويداً رويداً الى درجة الهمس)

لا روزنامة بعد اليوم . لا عام يموت وعام يولد. لا ساعات، ولا أيام، ولا شهور. لا رغبة تغفو ولا شهوة تستيقظ . لا سباق ولا لحاق . بل ديمومة أولها آخرها وآخرها أولها .

(متابعاً تمزيق الورقة) هكذا . هكذا ! لن اكون عبدك بعد الآن يا زمان . (يذرو نتف الورقة في يده) هكذا . هكذا اذروك يا زمان. تعال يا موت . لقد صفيت حسابي مع الزمان . تعال ... تعال ...

(يقع منهوكاً على الكرسي الذي كان جالساً فيه)

سميرة : جدي . حبيبي . لا تجهد نفسك الى هذا الحدّ . ولا تنس أنّ قواك الى نفاد . لا كان الزمان .

الجد : (مرتجفاً من البرد) حُوّ — و — و ..... لقّيني

بجرام من الصوف يا ابنتي ... وزيدي الوقود في النـــار . حوّ — و — و ...

(سميرة تأتي بجرام وتطرحه على جدها . قصف رعد . ثم يسمع جرس الباب . سميرة تذهب وتفتح الباب)

المشهد الثاني

الجد وسميرة والاب

سميرة : بابا !.. بابا !.. كيف تمكنت من المجيء في مثل هذه الساعة ؟ وكيف تركت الماما وحدها ؟ ادخل . ادخل . هات قبعتك . ومن أين تبللت الى هـذا الحدّ ؟ أما جئت في تاكسي ؟

الاب : (نافضاً ثيابه وفاركاً يديه) جئت في تاكسي . أكيد. ولكني تبللت من التاكسي الى الباب. يا لها من عاصفة مجنونة . أخشى ان تنقلب سيلاً جارفاً . لا شك في انها ستفسد على الكثير من الناس سهرة رأس السنة .

سميرة : والماما — كيف حالها ؟

الأب : حالتها طبيعية . ولكن موت الطفل اثر عليهـا تأثيراً بالغاً .

سميرة: يظهر ان لا نصيب لي ولسمير بأخ ثانٍ .

الأب : اما انا فلست بعاتب على الحظّ او على الله . فقد رضيت من زمان بك وبسمير . وأين سمير ؟

سميرة : تلفن منذ دقائق انه قادم برفقة امين .

الاب : وقد تَلفَنَ لي كذلك الى المستشفى قائلاً ان الملتقى يكون هنا، ثم نذهب معاً الى « نبتون » .

سميرة : أما تظنّ يا بابا انّ الخروج من البيت في مثل هذه الليلة ضرب من الـ ... مجازفة ؟

الاب : بل قولي من الجنون . ولكن ما العمل، والشباب كان – ولا يزال – يؤثر الجنون على العقل . وأنا ما رضيت أن اترك والدتك في المستشفى لأمضي السهرة في نادي «نبتون» إلا إكراماً لك ولأخيك وخطيبك .

سميرة : ذلك لطف منك يا بابا ....

الأب : وعلى الأخص بعدما عرفت ان خطيبك قد حجز لنا الامكنة منذ اسبوعين ، وانه قد اوصى على عشاء ملوكي . وذلك سيكلفه ، بما فيه المشرب والزهر ، نحو الخمسمائة على اقل تعديل .

سميرة : خمسمائة ؟!

الأب : أتستكثرين ذلك ؟ هنالك عيال تدفع الالف والالفين

والثلاثة لتشهد حفلة رأس السنة في بعض الاندية والفنادق الشهيرة.

سميرة: الف... الفان... ثلاثة آلاف... على سهرة واحدة؟ ما أرخص الآلاف عند آلاف الناس، وما أعزّ القرش عند الملايين!

الأب : بالطبع . كلٌّ ينفق على قدر طاقته . وصاحب المليون غير صاحب المائة .

سميرة : وصاحب الصفر – كيف يعيش وماذا ينفق ؟

الأب : له ربه . وهو ادرى به .

سميرة : أليس الناس ارباب الناس كذلك ؟ ألست انت ربّ هذا البيت؟ اليس العاقل مطالَباً بالجاهل، والقوي بالضعيف، والبصير بالكفيف ، والكبير بالصغير ، والغني بالفقير ؟

الاب : (هازّاً كتفيه) مّ –م–م ... مطالَب اذا شاء . وغير مطالَب اذا لم يشأ . وليس على الجواد ان يجاري السلحفاة ، ولا على النسر ان يساير البغاث ، ولا على النملة المجتهدة ان تبذل من جناها للجندب الكسول .

سميرة : إذا صح ذلك في الجواد والسلحفاة ، وفي النسر والبغاث ، وفي النملة والجندب، فما أظنّه يصحّ في كائن يشتمل قاموسه في ما يشتمل على مفاهيم سامية من نوع « العدل » و« الاخاء » و« الحرية » و« المحبة » و« الرفق » و « المساواة » وغيرها ، وغيرها .

الاب : تلك كلمات في القواميس، وليس يأبه بها الا" الذين انوفهم ابداً في القواميس . أما الحياة العملية فبراء من سوسها ومن وساوسها .

سميرة : (بحرقة) بابا !.. بابا !.. ارحمني وأبقِ على البقية الباقية في قلبي من إيمان . . . لا تمزقني بمثل هذه الشفار . . . ارحمني ...

الاب : يا لك من فتاة غريرة !

سميرة : (تنتفض) قل ما شئت . انعتني بأبشع النعوت . ولكن الظلم يبقى ظلماً، وهو أقبح ما في الارض. ويبقى العدل عدلاً ، وهو اجمل ما في الارض .

الأب : اعيد القول : فتاة غريرة و كفى .

سميرة : غريرة ... أجل غريرة لأني مؤمنة وانتم كافرون.

الأب : وبماذا تؤمنين ؟

سميرة : بعدل الحياة .

الأب : اذن من عدل الحياة ان يكون فيها كل ما نراه من عظيم التفاوت بين حظوظ الناس .

سميرة : بل انها جعلت كل ذلك التفاوت لتعلّم الظالمين كيف يعدلون .

الأب : وما بال الظالمين لا يتعلمون ؟

سميرة : لأن الظلم ختم على قلوبهم فما يفقهون ما يتعلمون.

الأب : من ذا الذي يفض الخواتم عن قلوبهم ؟

سميرة : وددت لو يفضونها بأيديهم ومن تلقائهم إذن لما كانت هذه القلاقل في الأرض ، وهذه الثورات والحروب .

الأب : منذ كان العالم ، والقلاقل والثورات والحروب بعضٌ من حياته. اما العصر الذهبي الذي تحلمين به انت وأمثالك فما كان يوماً من الايام غير حلم من الاحلام . دعيك من هذه التخيلات وامضي بدّلي ثيابك . فالوقت قد ضاق بنا . وكاد ينتصف الليل . وسمير وأمين قد يطرقان الباب في اية لحظة . ولن ينتظرا .

(سميرة تبقى مكانها)

ما لجدك في كرسيه وقد التف بالحرام ؟

سميرة : أحسّ شيئاً من البرد ، فطلب الي ان الفه بحرام. وأغلب ظني انه استدفأ فنام . وكان علينا ان نتكلم همساً لكي لا نزعجه في منامه .

الاب : لا تخافي عليه . فما من هموم تحفر في دماغه كالتي تحفر في دماغ ابيك .

(يقرع جرس الباب فتفتحه سميرة . يدخل سمير وامين لاهثين)

المشهد الثالث

سمير وامين وسميرة والاب والجد

سمير : (لاهثاً وبصوت عالٍ) سميرة ! يا إلهي ! أما لبست بعد ؟

سميرة : (ببرودة) ألعلني عريانة ؟

سمير : (يستشيط غيظاً) نعم . نعم . عريانة . عريانة . أفي مثل هذه الثياب تذهبين الى حفلة رأس السنة ؟ وأين ؟ في نادي « نبتون » حيث يجتمع علية القوم ! البسي ثياب السهرة . حالاً . حالاً . بلمحة الطرف .

أمين : أخشى ان يفوت الوقت .

سمير : (مثابراً في حدته ولهجته) فات الوقت. فات. اما قلت لك انها ستؤخرنا ؟ ذلك هو شأنها في كل مرّة تصمم على الذهاب الى نزهة أو زيارة او حفلة. بل ذلك هو شأن كل النساء. يا الهي ! لا تقفي كالصنم . تحركي ! اما ترين الساعة ؟

امين : نعطيك ربع ساعة يا سميرة. الا يكفيك ربع ساعة؟

سمير : تحركي ! في ربع ساعة يولد مليون ويموت مليون . تحركي اسرعي !

(سميرة تبقى مكانها)

الأب : وما الذي اخركما عن المجيء حتى الآن ؟

امين : هذا الطقس الذي ما رأيت اكرب منه في حياتي .

(قصف رعد)

الأب : ما قولكم لو نستقبل العام الجديد ههنا ؟

سمير : (يكاد يخرج من جلده) هنا ؟ (متهكماً) حقاً انه لرأي غاية في الصواب. هنا الموسيقى الساحرة، والازياء الخلابة، والانوار اللألاءة، والكؤوس المشعة، والاعين الغمازة، والثغور الضحّاكة ، والقدود المياسة . هنـا البهجة السكرى بالانس والحبور... ومن ثم فهذا الرجل (مشيراً الى امين) قد كرّس مبلغاً لا يستهان به لهذه السهرة .

الاب : ما قولك يا أمين لو تَلْفَنْتَ الى النادي وألغيت توصياتك بشأن السهرة ؟

سمير : يا لها من حكمة أوحت اليك بهذا الرأي !

امين : هـــذا مستحيل . شرفي لا يطاوعني . في المسألة شرف كذلك .

سمير : أكيـد . المسألة مسألة شرف . (الى سميرة) ما بالك كالمسمرة في مكانك ؟ تحركي . كل دقيقة تفوتنا يفوتنا معها عالم من اللذة والمتعة. فنادي « نبتون » قد أعدّ لهذه الليلة برنامجاً

لا مثيل له على الاطلاق .

أمين : يكفي أنه قد أنفق على تزيين المسرح لا غير أكثر من عشرة آلاف .

سمير : وعلى الأنوار !

امين : أما على الأنوار وعلى الأوركستر وعلى المغنين والمغنيات ، والراقصين والراقصات ، فلا تسل .

سمير : آ آ. ان لعابي ليسيل في فمي عندما أفكر في كل ذلك . وإن مرارتي لتنشق عندما أرانا واقفين هنا كالمجاذيب نضيع الوقت مع آنسة متحجرة الفكر . فاقدة الشعور . سميرة ! تحركي !

امين : ألعلك لا تريدين مرافقتنا يا سميرة ؟ ام لعلك تؤثرين البقاء في البيت ؟

الأب : دعوها وشأنها . فما يدري ما بها غير الله .

سمير : انا أعرف ما بها . إنه كيد النساء . ولكنك ستتحملين مغبة هذا الكيد يا سميرة . اصطبري . اصطبري .

الاب : سميرة ! اذاهبة أنت ؟ أجيبي بنعم او لا . لا يليق بك أن تفسدي على شقيقك وخطيبك سهرة كهذه السهرة لا تكون غير مرة في السنة .

سميرة : وأنت يا بابا – اذاهب أنت ؟

الأب : إذا ذهبت ذهبت .

سميرة : وإن لم أذهب ؟

الأب : (متردداً) مَّ — مَّ — مْ .... لا أذهب .

سميرة : بل اذهب ودعني في البيت مع جدّي . فقد يستيقظ قريباً ، وليس من يقوده إلى فراشه .

الأب : ما أظنه يستيقظ قبل الصباح .

سمير : (وقد عيل صبره) كنا بعقدة واحدة فإذا نحن بعقدتين . كنا في شك من أمر سميرة وها نحن في شك من أمر أبي سميرة . « بصوت عالٍ » امين ! لن نضيع دقيقة بعد . هيا بنا . وسنصطاد لنا رفيقتين من الشارع . هيا بنا !

(يأخذ بيد امين ويهرع معه إلى الباب فيفتحه بحركة عصبية، ثم يلتفت إلى الوراء وينادي بأعلى صوته مهدداً) سميرة — ه — ه !!! (ويطبق الباب بعنف يرتج له البيت) .

الأب : مجنون . كاد يكسر الباب . انظري يا سميرة . لقد وقع الحرام عن جدّك من عظم الرجة . رديه كما كان .

سميرة : (تتقدم من جدها ثم تهتف مذعورة) بابا !..

الأب : ما بك يا سميرة ؟

سميرة : (بلهفة واضطراب) جدّي ... حبيبي ... نور قلبي !..

الأب : (يدنو مـن والده) ماذا جرى ؟ (يهز والده من كتفيه) أبي ! أبي ! .. (بانسحاق) إيـ ـيـ ـيـ ـه ... سأبيت الليلة بغير أب ...

سميرة : (تصرخ بتفجع) جدّي . جدّي . جدّي ! .. (تجهش بالبكاء)

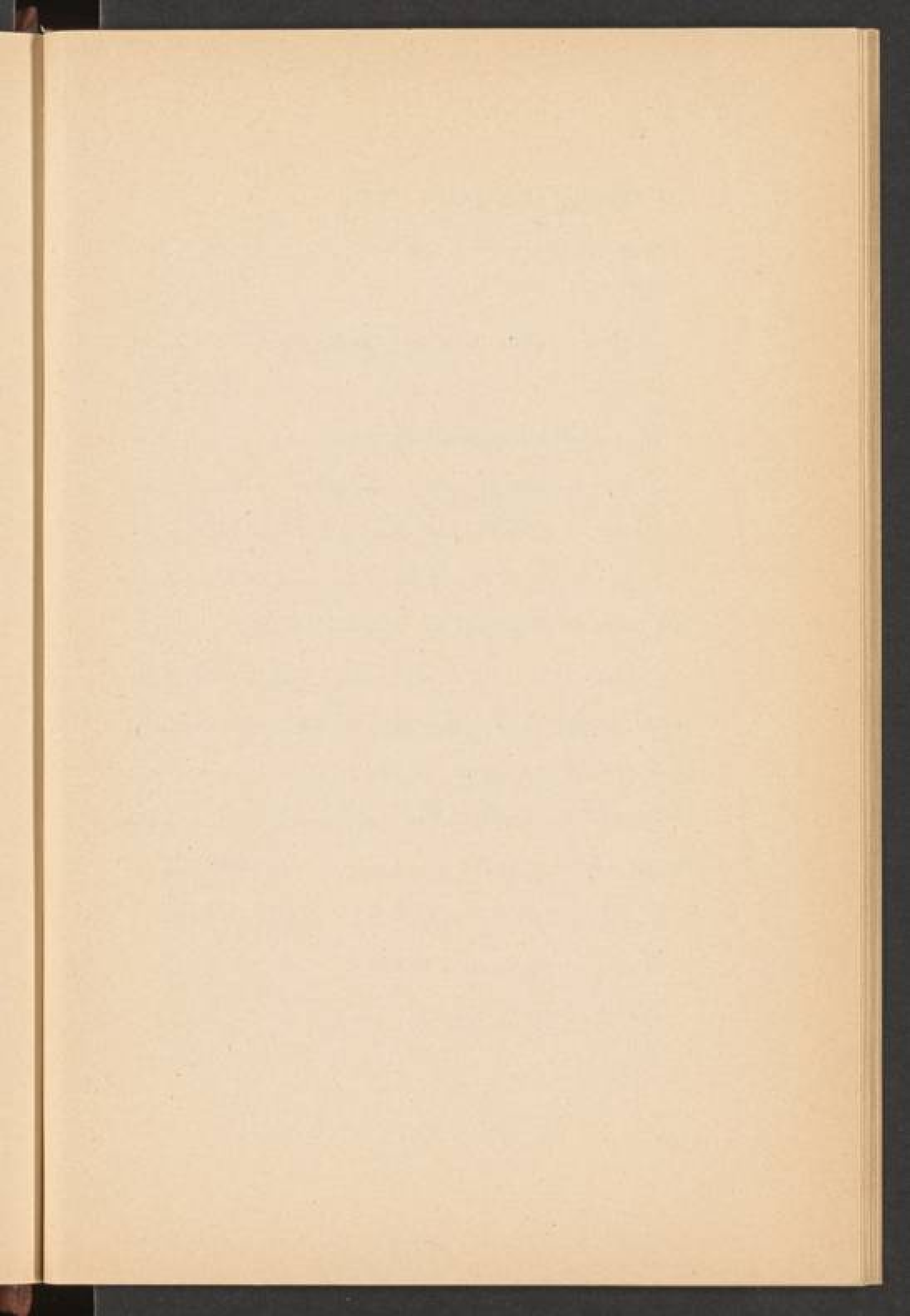
الأب : إيـ ـيـ ـيـ ـه ... أجيال جهيضة. وأجيال مريضة. وأجيال مهيضة ... أجيال تشد الرحال. واجيال تشد الاطناب. والأرض تدور والزمان لا ينفك يحدو القافلة .

سميرة : (تنشج) جدّي جدّي ...

الاب : لا تبكيه يا ابنتي . بل قولي هنيئاً له . فقد كان جيلًا في ذاته .

سميرة : أجل. هنيئاً له. فقد مزّق ورقته الأخيرة. (تنشج. تسمع ضجة من الخارج – صفارات معامل وبواخر وأجراس كنائس . زمارات سيارات . هتافات صاخبة . تـدق الساعة اثنتي عشرة دقة) .

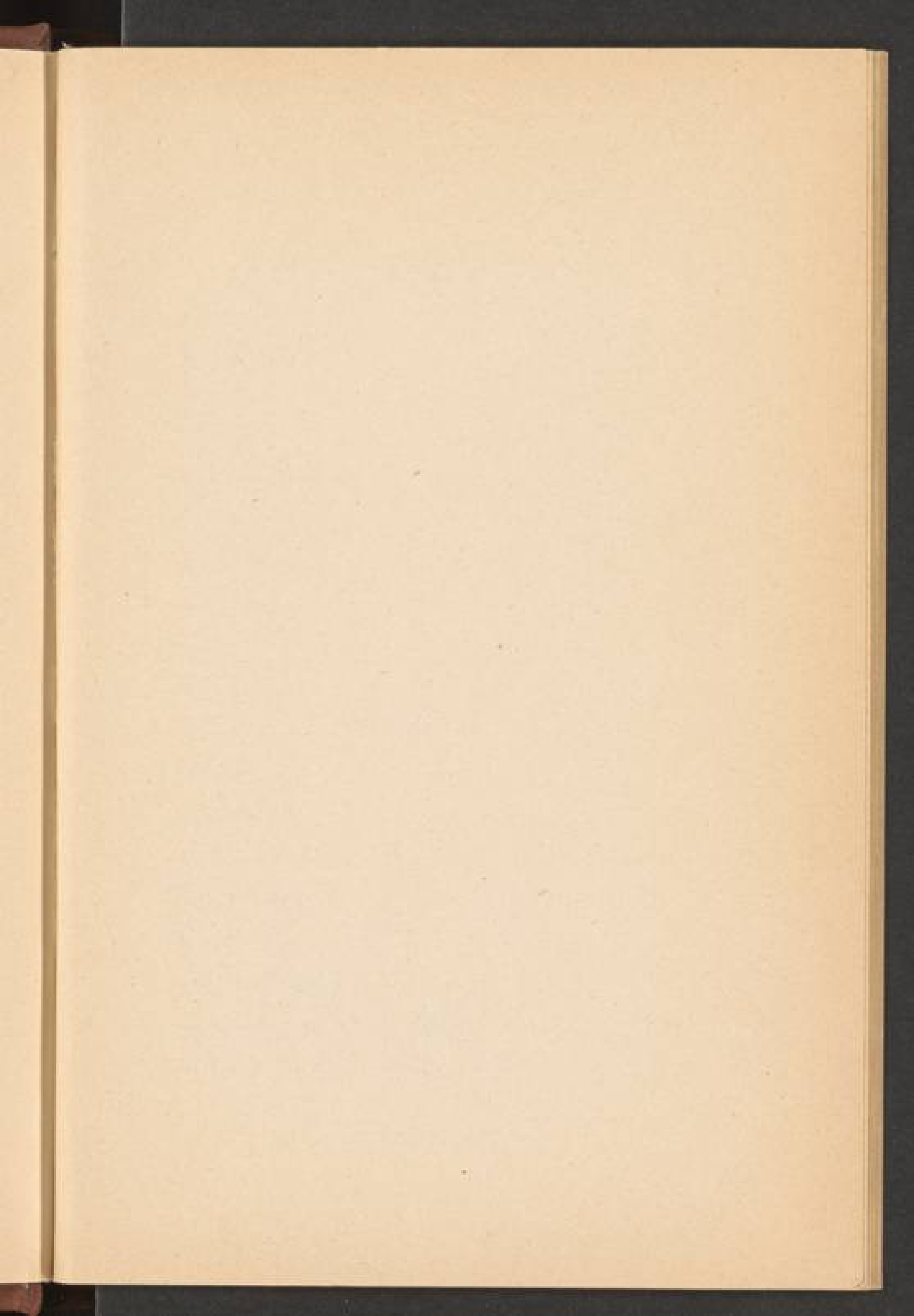
الستار

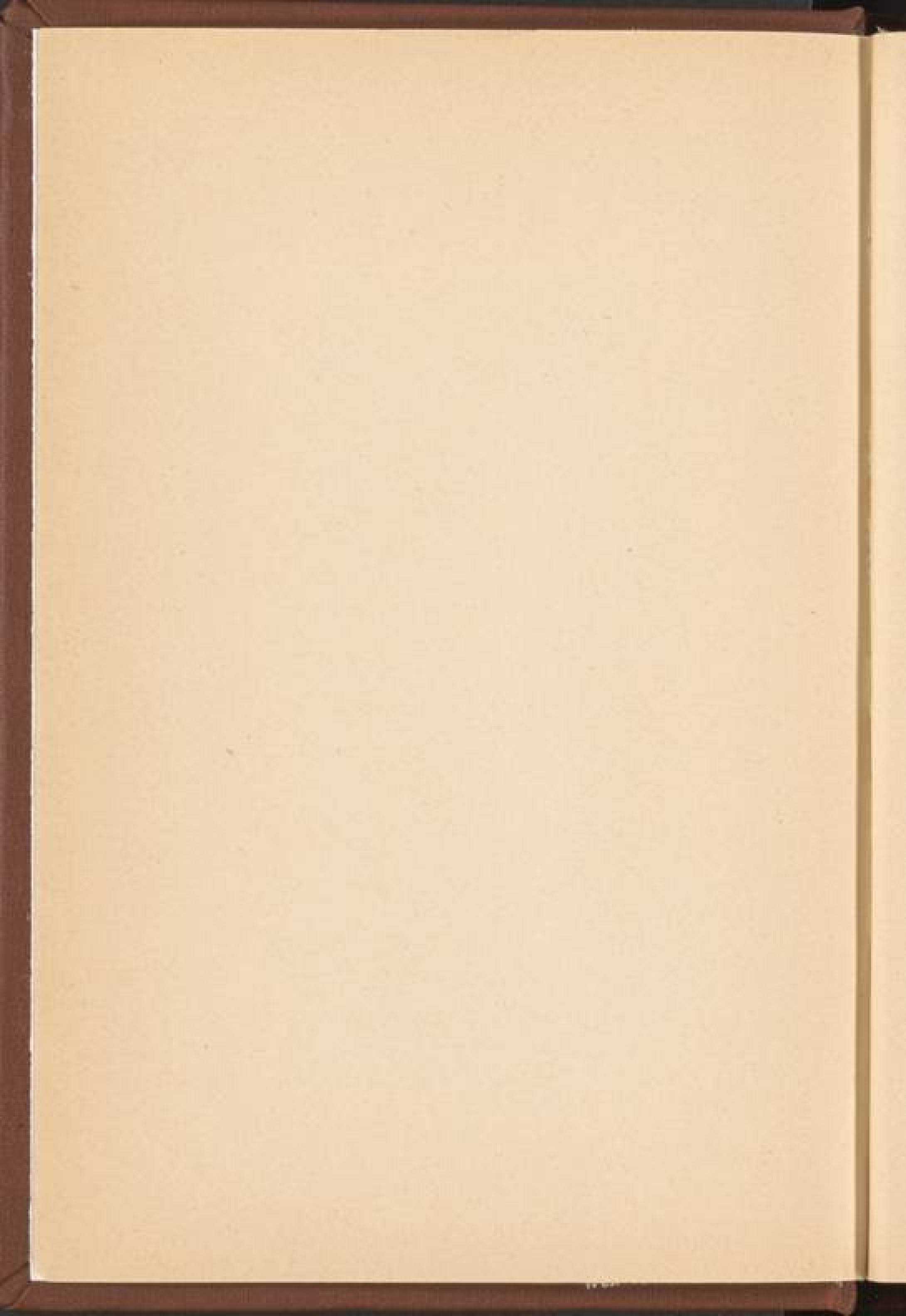


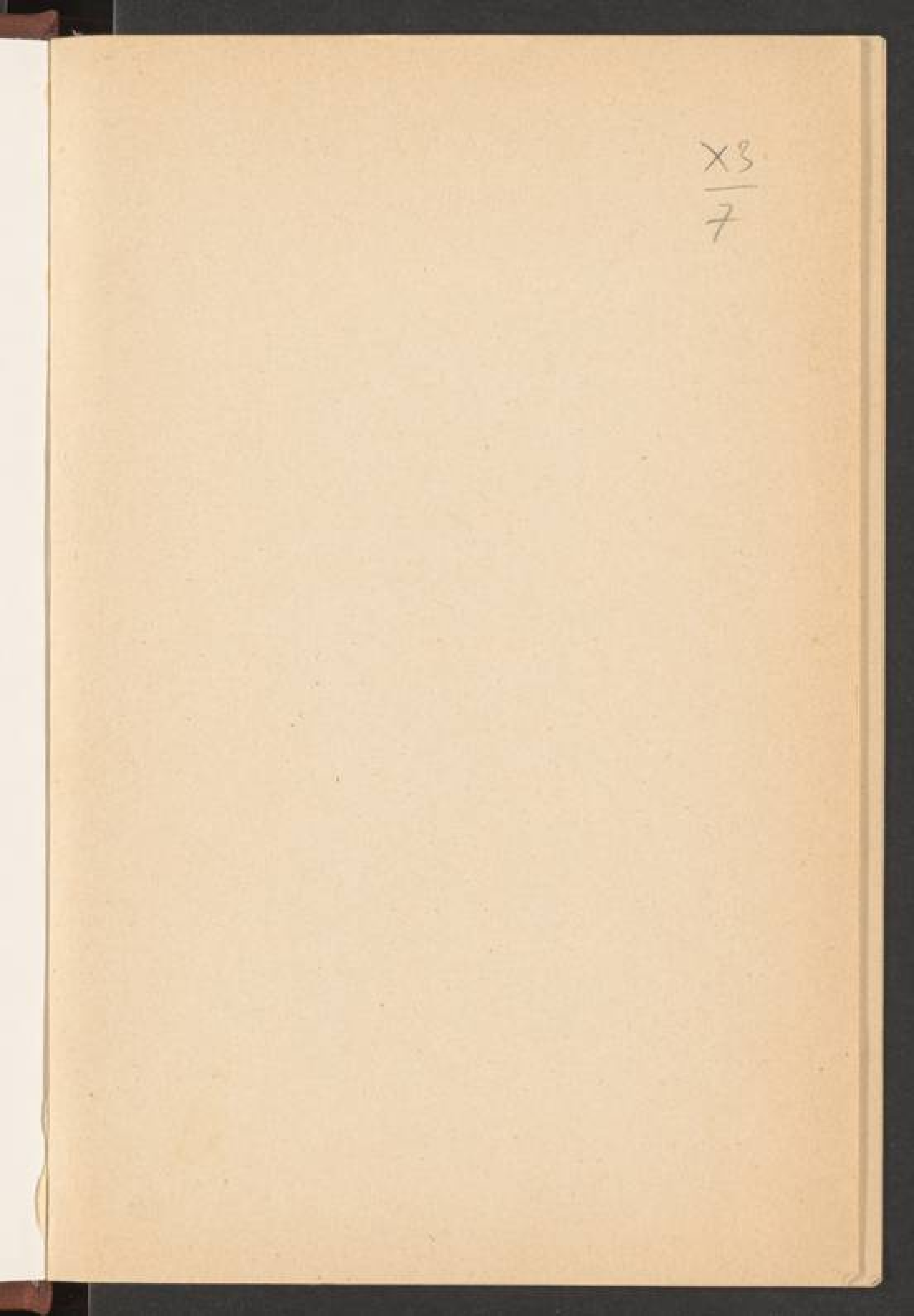
في مهب الريح

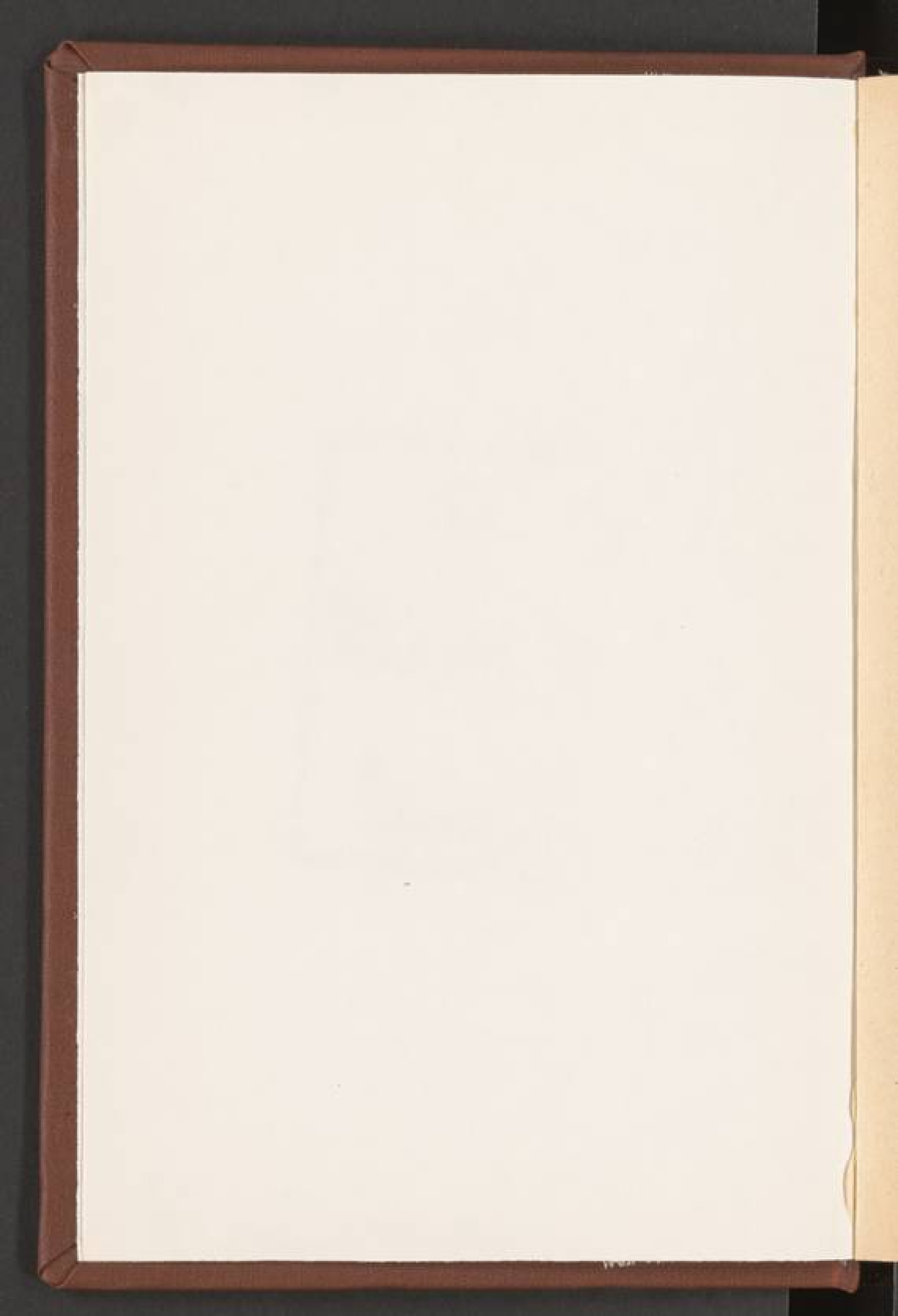
للمؤلف

الآباء والبنون
الغربال
المراحل
جبران خليل جبران
زاد المعاد
كان ما كان
همس الجفون
البيادر
كرم على درب
لقاء
الاوثان
صوت العالم
مذكرات الارقش
النور والديجور
في مهب الريح
مرداد « بالانكليزية »
جبران خليل جبران « بالانكليزية »
مذكرات الارقش « بالانكليزية »

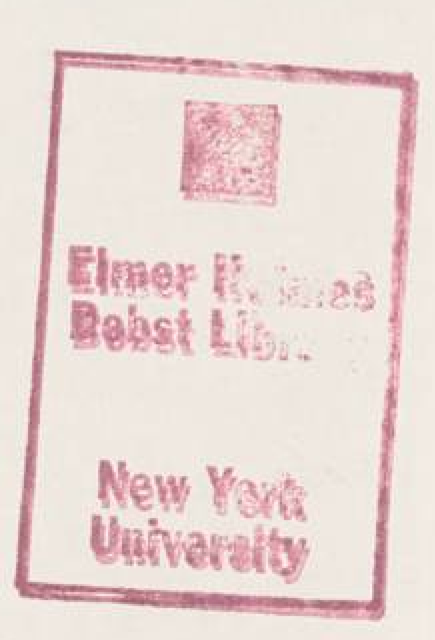











New York
University

